الفصل الثاني

البعد التراثي الفكري.

(ثنائية المكان التاريخي والمكان الاني).

تقديم.

المبحث الاول: المكان التاريخي .

_ المكان الحربي.

_المكان الديني.

_ المكان الحضري.

المبحث الثاني: المكان الاني.

_الامكنة الانية المستوحاة من موروث الامكنة التاريخية.

_ادب الاستنجاد تجسيد للمكان الاني عند الشاعر الاندلسي.

تقديم.

يقوم هذا الفصل برسم البعد التراثي والفكري للمكان عند الشاعر الاندلسي في عصور: المرابطين والموحدين وبني الاحمر. فالمكان يثير احساسا بالتاريخ في جميع اشكاله[1].ويثير التاريخ اهتماما بالمكان ايضا لما له من اهمية في اخضاع الحوادث التاريخية -الحربية والدينية والحضرية- لمكان معين واقليم ما . فيعد المسرح الذي تجري عليه تلك الاحداث.

وقام هذا الرسم للابعاد التراثية الفكرية للمكان في الشعر الاندلسي على مبحثين اثنين. استغلا مفهوم الثنائيات لجمع العناوين الكثر، واختصار المادة العلمية والادبية وتبويبها على وفق المنهج الذي وضعناه في الفصل الاول.

فكان المبحث الاول تحت عنوان (المكان التاريخي)، وفيه كشفنا عن الامكنة الحربية وما خلفته من نتائج تراوحت بين نصر وهزيمة، وما تركته هذه الهزائم على مكان الشاعر، وتبعات الهزائم المتوالية لجيش المسلمين ولاسيما بعد عصر الموحدين وهم تلك التبعات سقوط المدن بيد النصارى ومحو ما يمت الى الجنسية العربية الاسلامية بصلة او مساس. فكانت الامكنة الحربية كثيرة، ونتائجها كبيرة.

وكشفنا في هذا المبحث عن الامكنة الدينية ودلالاتها،وهي من جانب تمثل الترابط الروحي الذي يجمع الانسان الاندلسي بخالقه ومن جانب اخر تستنطق مشاعر المسلمين عند قراءة النصوص الشعرية التي سالت وهي تصف تلك الامكنة وتعبر عن غربتها وتبكي هجرها، واحتلال النصارى لها.

وكشفنا في هذا المبحث ايضا عن انواع الامكنة الحضرية، ومظاهرتلك الحضارة الزاهية المتالقة التي انشأها اولئك الاجداد عبر ثمانية قرون من الزمن . وهذا الفصل الحضري لتلك البلاد شهدت به اوربا التي كانت حينذاك تغيب في ظلام دامس، وجيل مطبق في جميع شؤون الحياة، ومختلف مجالات العيش.

اما عن الامكنة الآنية فجاءت في المبحث الثاني وفيه كشف المبحث عن دلالة الامكنة الانية المستوحاة من المكان التاريخي (المشرقي ، الاندلسي) ، وهذا الامر متعلق بنفسية الشاعر وازماته الداخلية التي نتجت انيا عن رؤيته لمكان ما اثار حفيضته. وراى فيه مأساته فراح يعبر عنها بابياته.

---

[1] ينظر : كتابة المكان بعيدا عنه: خليل النعيمي، مجلة الاقلام، ع ٢، ١٩٩٨. ص ٤٠.

وكشف المبحث عن سمات المكان الاندلسي عن طريق ادب الاستنجاد، ومفهومه وخصائصه في نصوص من الشعر الاندلسي اتسمت بحرارة العاطفة، ومرارة الموقف. وهي خصائص هذا الادب الذي يجب ان يكون مؤثرا تماما في الاخرين ومحركا الهمم، مستنفذا الطاقات في سبيل نصره الاسلام والمسلمين فلعل الشاعر الاندلسي يعرف هذه الخصائص جيدا فادارها بين معاني ابياته، وكان المكان عنصرا مهما من تلك الخصائص والمعاني.

المبحث الاول: المكان التأريخي.

المكان التاريخي. هو المكان الذي انفوح منه رائحة القرون والاجيال السالفة مشيرا بخصوصيته الى الجذور التاريخية العرقية التي تنتمي اليها[1] فهو استلهام واتعاظ لاحداث الماضين، واستذكار لوقائعهم وانتصاراتهم، وتكوين لمشاعرهم تجاه تلك الوقائع. وهذا هو هدف التاريخ اذ هو المصدر الذي نعود اليه في حياتنا وتجاربنا اليومية المختلفة. فكيف كان موروث الامكنة التاريخية في النص الشعري الاندلسي؟ ومادلالاتها؟ واثرها الفكري عند شاعر الاندلس؟؟ هذي اهم الاسئلة التي يطرحها البحث في هذا الفصل، وسيجيب عليها من خلال الامكنة الاتية:-

المكان الحربي.[2]

(اخذ شعر الحرب مساحته في القصيدة العربية، واتسعت مدلولاتها في اطاره الشعري، واغنيت مفرداتها من خلال استخدام الشعراء للمفردة الشعرية التي كانت تتحرك في دائرة المعاني، وشحنت الفاظها بقدرات المقاتلين الاشداء الذين كانوا يغنون عطاءها بتضحيتهم، ويوقدون سعيرها باقتحامهم)[3]. والشعر المواكب للاحداث يسير جنبا الى جنب في الظفر بالصورة الموحية واللفظة المنتقاة للتعبير عن ما يدور في خلجات النفس من جزع ولاواء وشدة في ذلك الميدان الذي لا يدخله الامغاور. ولا يخوض نقعه الا فارس. ومن الشعراء من يخوضون ذلك الميدان،فـ(يسجلون لوحات المفاخر الخالدة، والمآثر التي يظل صداها يعيش في قلوب الرجال الذين يستذكرونها باعتزاز ويعيشونها باباء ويتمثلون بها كل مادعت الحاجة اليها)[4].

وفي الشعر الحربي في الاندلس، ما يعد بحق التمثل الحقيقي للممكان سواء اكان لدى الشعر المشارك ام من قبل معدوحه الامير او الحاكم او قائد الجند، وعل

---

[1] الفضاء الروائي عند جبرا ابراهيم جبرا: ص ٢٥٦ وينظر: حركية الابداع- دراسات في الادب العربي الحديث- د. خالدة سعيد، دار العودة- بيروت، ط٢، ١٩٨٢، ص ٣٠.

[2] لانريد ان نطلق مسميات اخرىٰ علىٰ هذا الشعر مثل: الشعر السياسي، او الشعر الحماسي، لان دراستنا قائمة علىٰ اثر المكان في النص الشعري.

[3] شعر الحرب في عصر الرسالة: د.نوري حمودي القيسي، الموسوعة الصغيرة، بغداد، ١٩٨٢،ص٣.

[4] المصدر نفسه.

الدراسات[1] الكثيرة، والقصائد المتراكمة في هذا المجال. ما يبوح عن كنه المشاعر الحقيقية التي تعتلي المرء في ميادين القتال، وما ترافقه من ازمة حادة وعويل مدو على طوال الكوارث التي حلت بالاندلس. ومن ثم سقوطها نهائيا والبكاء عليها.

وعلى الرغم من ان بحثنا هذا ليس معنيا بشرح الحوادث والنكبات والمعارك والفتن التي حدثت في الاندلس او الاطالة في شرح اسباب المعركة وبيان نتائجها تاريخيا، الا اننا سنعنى بدراسة المكان الحربي الاندلسي- ان جاز التعبير- من خلال تلك الحروب والمعارك التي قادها العرب في الاندلس ضد الاسبان وهذا ما يتطلب اضاءات تاريخية كثيرة يمكننا تبيان اهميتها والتعريف بها بحسب المعركة التي وقعت، وحسب نتائجها في تاريخنا العربي الاندلسي.

ان اولى المعارك* التي تطالعنا -مدة دراستنا- هي وقعة اقليش[2] التي حدثت سنة (٥٠١هـ)، وهي من اوائل انتصارات المرابطين ايذانا ببدء التاريخ السياسي لدولتهم. بعد ان كانت الزلاقة فاتحة لتعرف الناس على هذه الفئة من المسلمين، وتلقي الضوء على قتالهم وصبرهم، وانهم-أي المرابطين- الفئة التي سيؤول اليها امر الاندلس بعدما ال اليها الامر في المغرب.

---

[1] دراسة د. جمعة شيخة من اوفى الدراسات التي تناولت اثر الحروب والمعارك في الاندلس، ولكنها تعنى اكثر ما تعنى بجمع النصوص الشعرية بتوييها على العصور والاحداث، ولذا سنتناول هذه النصوص في تحليلنا من وجهة نظر اخرى تماما.

* لاشك في ان معركة الزلاقة (٤٧٩هـ) اهم معركة قادها المرابطون بل، واهم معركة حدثت في الاندلس ولكنها لاتدخل في صميم دراستنا الفعلية فاغلب شعرائها من عصر الطوائف ولذا اهملنا الحديث عنها.

[2] راجع عن المعركة: البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب، ٤/٤٩-٥٠. عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس: محمد عبد الله عنان، القاهرة ١٩٦٤، ص ٦١، التاريخ الاندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة: د. عبد الرحمن علي الحجي، دار القلم، دمشق- بيروت، ١٩٧٦،ص ٤٢. .واقليش (مدينة لها حصن في ثغر الاندلس وهي قاعدة كورشنترية وهي محدثة بناها الفتح بن موسى بن ذي النون...). الروض المعطار: ٥١،٥٢ . ويذهب الاستاذ عنان الى ان الفتح بن موسى لم ينشئ اقليش فقد كانت تورته في بداية عهد الناصر بعد سنة ٣٠٠هـ. ولذا فان انشاءها وقع في اواخر القرن الثالث. ينظر: عصر المرابطين والموحدين بالاندلس:٦١.

وعلى الرغم من اهمية هذه المعركة في ايقاف جيش النصارى في زحفه نحو الاندلس ومن نتائجها دخول اهل الاندلس في عهد دولة جديدة -تاريخا وسياسة- الا ان المصادر الادبية والتاريخية لاتشير الى هذه المعركة شعرا الا عرضا في ديوان الاعمى التطيلي، وحتى هذه الاشارة خصصت للمدح الشخصي للقائد الذي خاض غمارها اكثر من كونها اشارة لواقعة، او تسجيلا لمنازلة كانت بمثل هذه الاهمية. وعلى اية حال، فان سمات المكان الحربي تظهر جليا عندما يذكر المعركة باسمها-افليش- ومن ثم يصف جيش المسلمين وما فعله بالاشرار من الروم، بروح حماسية مجلجلة في النص الاول ، فيقول:-

وصبّحتَ أُقليشَ في جحفلٍ ... اغَصَّ الوهادَ وآدَ الرِّعانَا
بكُلِّ كميٍّ يروعُ الاسُودَ ... خماصاً، ويرعىٰ عليها بطانَا
فأبت وغادرتَ تلكَ الديارَ ... عِجافا تهادىٰ خُطُوباً سِمَانَا[1]

في النص الثاني يصور لنا شاعرنا التطيلي، عظمة جيش المسلمين في هذه المعركة، مستمدا من صفات القائد[2] ما عرف عنه المسلمون من بأس وقوة وبسالة لاتنأى عن كل من اراد الدفاع عن وطنه، ونصرة دينه، وطرد الغاصب المحتل، وبذا لابد انه يكون جيش النصارى كما يقول من انهم فرائس سهلة لاسود وخيول ما تنفك تطعنهم وتدوس وجوههم المنعمة:

سَلِ الرومَ في أُقليشَ يومَ تجايشوا ... ألمّ يعلموا أنَّ الفرائسَ للأُسْدِ
تَباروا إلىٰ تلكَ الحتوفِ فسلهُمُ ... أما كانَ عنها من مَحيصٍ ولا بُدِّ
عداةَ رماكم كلُّ طودٍ بمثلِهِ ... من القصبِ المنآدِ والحَلَقِ السردِ
أعزُّ من الهُضبِ التي قذفتَ بها ... فما بالُكُمْ كنتم أذلَّ منَ الوهدِ
ألم تزعموا أنَّ الصليبَ وأنَّه ... كانكُمُ لم تسمعوا بالقنَا المُلدِ

---

[1] ديوانه: ص ١٩٤.

[2] استنتج د. جمعة شيخة اسم القائد من الابيات وهو الوزير احمد بن ابي ربيع بنْ عبد الملك. ولم نعثر له على ترجمة. الفتن والحروب: ٢/٧٠.

رويدكم حتّـى تَـروا كيـفَ ترتمـي بأنفسـكمْ بيـنَ الإ جـازةِ والـردِ
وحتّىٰ تَـدوسَ الخيـلَ اوجـهَ فتيـةٍ كـرامٍ عليـها غـير شُـؤمٍ ولانكـدِ[1]

ان صورة المكان في هذين النصين لاتخلومن رهبة واشاعة خوف،لان الشـاعر قـد اغرم بأسباغ صفات القوة والمنعة على جيش المسلمين، في حين وصف جيش الاعـدو بالضعف والانكسار، ولاشك في ان صيغة الاستفهام بـ(الم) الشائعة في النص الثـاني جاءت لتقرير حقيقة هذا الامر امام النصارى.

ان اهم ما يميز الاماكن الحربية انها(ليست اشياء قائمـة بذاتـها، وانمـا تكتسـب شخصيتها من خلال الناس والاحداث)[2]ولما كانت أي واقعة او منازلـه تحـدث بيـن جبهتين تختلفان تأميناً وعقيدة وقوة، فاننا بالامكان ان نجد شخصية المكان الحربي الذي نرد انه نهتك اسراره ونخوض غماره داخل النص الشعري الأندلسي عن طريق هـذه الوقائع والمنازلات، وما قيل في ابطالها وقادتها

وفي عصر المرابطين يمكننا ان نلتمس اثار البطل القائد[3] عند الكثير من الشعراء، وحتما ان صفات البطل هذي ما كانت لتقال لولا خوضه المعارك، ونجدته فيـهابحيث ولد اثر عند الناس ومن ثم عند الشاعر الذي اراد ان يخلد سيرته ويكتب اثـاره عـن طريق النص الشعري، فالشعراء(كانوايقفون امام البطل مذهولين كانما يستر في طواياه قوى خفية، وهي قوة مكنت له في رايهم من الاتيان بـالخوارق فـي البسـالة وقتـال اعدائهم، وهي خوارق لاتقف عند نجاته من القتل بل: تمتد الى نجاتهم معه نجاة جعلتهم يشعرون بقوة انه هو الذي يهبهم الحياة)[4].

---

[1] ديوانه:ص ٣١.

[2] دلالة المكان في مخمسة مدن الملح:ص٢٨.

[3] كتبت رسالتان للماجستير في البطولة في الشعر الاندلسي الاولى كانت في عصري الطوائف والمرابطيـن للباحثة نادية فتحي هادي، في كلية الاداب في جامعة الموصل، ٢٠٠٠: والاخرا من عصر المرابطين حـتى سقوط غرناطة للباحثة لضال مهدي حميد، كلية الاداب جامعة بغداد، ٢٠٠١. وكتب د. رعد ناصر الوائلـي عن صورة البطولة عند شعراء بني الاحمر، فكان مؤلفه يحمل عنوان : (الشعر الاندلسي فـي عـهد بنـي الاحمر – صورة جهادية بطولية-). طبع في مركز عبادي للدراسات والنشر ، صنعاء ، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

[4] البطولة في الشعر العربي: د. شوقي ضيف، دار المعارف-مصر، ١٩٧٠، ص ٩.

الاعمى التطيلي الشاعر الكفيف الذي تقلبت به الظروف بين حزن وفرح، امان وخوف يرى في ممدوحه علي بن يوسف بن تاشفين، ما يراه في القائد الانموذج الذي يحتذى بكل سبيل، ويعاهد على كل امر، فيقول في قصيدة يبدأ مطلعها بايضاح طرق المهتدين والضلال:

بينَ سُمرِ القنا وبيضِ النصالِ طُرقُ المهتدينَ والضُّلالِ

ومن ثم يعرج على ذكر المقاتلين من ابناء جيشه، ونجد ان هذي الصفات (تجمع بين الشجاعة والامانة واقتحام غمرات الاوجال والاجال بين حنايا السيوف حيث يستقر بذلك نظام الملك..... انهم سيوف الابطال تنطق بما فعلت في الهامات والذوائب، فتصدأ صفحات السيوف من دم القتلى الكثيرين وهي مازالت في اول عهدها بالصقل والمسح)[1]:

فالىٰ الامنِ والامانةِ اوفي غمراتِ الاوجالِ والاجالِ

ومع السعدِ والسعادةِ اوبينَ حنايا السيوفِ والاغلالِ

اصبحَ الملكُ في ضمانٍ علىٍّ آمنَ السربِ، ضافي السربالِ
في ضلالِ القنا وقد زالتِ الهضـ ـبُ بما فوقها زوال الضلالِ
وسيوفُ الابطالِ ترعدُ مما فعلتْ في جماجمِ الابطالِ[2]

وهكذا يسترسل الشاعر في عرض هذه الصفات، ومنها ينتقل الى ممدوحيه فيزيده رفعة وجلالا، فهو من اولئك الاباء الذين عرفوا بمثل هذه الخصائص في قيادة الحروب وادارة المعارك.

ابن خفاجة الذي يجب ان نخفف من غلواء من قال عنه انه عاش (حياة فارغة لابد لصاحبهما ان يملأ باي عمل من شأنه ان يطرد السأم عنه وقد ملأها ابن خفاجة بالشعر. والفرق واضح بين من ينظم الشعر لطرد السأم وملء الفراغ وبين من ينظمه

---

[1] المرابطون بالاندلس من خلال ديوان الاعمى التطيلي: حسن الطريبق، مجلة المناهل_ المغرب، ع١١٤ ، ١٩٧٨ص ٣٧٤.
[2] ديوانه: ص٠٠.

طلبا للفن واستكمالا له).[1]في اماديحه الحربية لممدوحه الاثير الامير ابي اسحاق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين، لانجد ما يطرد به السأم، ويملأ الفراغ كما قال الباحث الكريم. وان مسألة اعتنائه برسم الصور الطبيعية والملحة في ايجاد اسباب الابتكار الفنية لايعني انه شاعر :ارغ، او ان حياته كانت لاهية فارغة والا لما كتب لشعره الخلود؟ وبقي اثرا منيرا في البنى الفنية- التركيبية الدلالية والصوتية- للشعراء الاندلسيين الذين جاءوا من بعده!

وعود الى بدء؛ ان ما يهمنا هنا كيف وصف ابن خفاجة- الوصاف المصور- المكان الحربي؟ وهل جاء وصفه لهذه الامكنة نسقا متصلا- براعة وابتكارا- على نحو ما راينا في وصفه للامكنة الطبيعية التي مرت بنا في الفصل السابق؟ في قصيدة يمدح بها الامير المذكور ويذكر محاصرته لحصن الموريلة[2] في طروقه للثغر لظهور العدو به، والقصيدة طويلة، وتضم صوراً مبتكرة اغلبها استغلالا لمظاهر الطبيعة، ولكن سنجتزئ منها قوله في وصف جيش العدو وكيف لاقاه الممدوح، فيقول

ويارُبَّ جيشٍ للعدو كأنَّهُ ... عبابٌ خضمٌّ قد طمى يتدفعُ
عرضتَ لهُ والليثُ دونكَ جرأةً ... فاجفلَ اجفالَ النعامةِ تجزعُ
ولقتهُ ريحٌ للمهابةِ بارحٌ ... فاقلعَ اقلاعَ الغمامةِ تقشعُ
وادبرَ لايُلوى على متعذرٍ ... حذارَ فتىً يسري اليهِ فيُسرعُ
بعيدٌ مجالِ الركضِ والليلُ حاسرٌ ... ولا شِعْبَ الا بالضريبِ مُبرقعُ
وقد جالَ دمعُ القطرِ في مقلةِ الدجى ... ولفّت نواصي الخيلِ نكباءُ زعزعُ
له من صدورِ الاعوجيةِ والقنى ... شفيعٌ الى نيلِ الاماني مشفعُ
وظفره في ملتقى الخيلِ ساعدٌ ... الفٌّ وقلبٌ بينَ جنبيهِ أصمعُ
وابيضَ يتلو سورةَ الفتحِ منتظمٍ ... ويستقبلُ القرآنَ الكريمَ فيركعُ
....
....
....[3]

---

[1] ابن خفاجة الاندلسي: ص ٩.

[2] الذي يبدو من كلام الاستاذ عنان انه من حصون بلنسية. ينظر ، عصر المرابطين والموحدين: ص ٣٩٧.

[3] ديوانه:ص٨٨.ولنظر الاتجاه الاسلامي في الشعر الاندلس: ص٢٧٨- ٢٧٩، وقال عنها د. منجد :(انها قصيدة عصماء في المدح).

لاشك في ان صور الطبيعة بكل مظاهرها، بقيت في ذهن الشاعر في رسم صورة الحربية، ولكن الصور الطبيعية -على كثرتها- في اللوحة السابقة كانت ملائمة تماما لما يعتلي وصف الحرب فيها، اذ جاءت تلك المظاهر بما كنذر من مخاوف وما تثيره من مزاوجة حقيقة بين الموت والحياة في ايشع الصور، وعل عبارات النص مثل: (عباب خضم، طمى يتدفع، ليل حابس، نواصي الخيل، نكباء زعزع)، قادرة على بيان الناحية الحركية ومن ثم الصوتية في المكان الحربي، فكل عبارة ادت مدلولاتها الصوتية العالية، وحركتها المضطربة بما يناسب واقع المكان الذي قيلت فيه.

كما ان وكد الشاعر الذهني، وشدة معاناته في رسم صوره في هذه اللوحة يدلان دلالة قاطعة انه -أي ابن خفاجة- لم يكن فارغا، او اراد طرد السأم والضجر من حياته اللاهية بهذا الوصف، وهذا الوكد وتلك المعاناة ليحسها القاصي والداني وهو يقرأ النص من كثرة الافعال التي شاعت، كالفعل ومصدره في قوله: (اجفل اجفال...، اقلع اقلاع). فضلا عن الافعال الاخرى لتي وردت كالمضارعة مثل: (يسري، يسرع، يستقبل). وكذلك الافعال المضعفة المكررة في النص مثل: (يتدفع، لفّته، لفّت، الفّ). فهذا الامر لا ينتج لولا حالة نفسية قلقه عاشها الشاعر، وعانى منها مكانا وزمانا، ناهيك عن انه القصيدة فعلت في الثغور، وهي اماكن (تأخذ في قصيدة الحرب بعدا محسوبا لاهميتها في الدفاع والمقاومة والحماية وابعاد شبح الدمار والهلاك وقد استأثر اصحاب الثغور باهتمام الشعراء لما يتحملونه من اعباء ويضطلعون به من مسؤوليات ويلتزمون به من يقظة وحذر ويتابعون واجبات تفرضها طبيعة الموقع الحربي)[1].

---

[1] شعر الحرب في العصر العباسي : دنوري حمودي القيسي، مجلة المجمع العلمي العراقي بغداد، مج ٣٥، ج ٤، ١٩٨٤، ص١٣٩.

ان المتابعة الدقيقة لنصوص ابن خفاجة المدحية في هذا الامير، لتؤكد تماما صحة ما ذهبنا اليه انفا، ولنقرأ قوله وهو يمدحه ويذكر ما كان من افتتاحه لقورية[1] ونكول ابن رذمير عن تداركها:

ألـم تـرَ مـا كـانَ مِـن بأسـهِ بقوريـةَ يـومَ خـامَ البطـلْ
وخـارَ الأبـيُّ وخـرَّ الكمـيُّ وجَـدَّ الجـلادُ وقَـلَّ الجـدلْ
ورامَ النصـارىٰ بـها نُصـرةً فلَـمْ يُنجـدِ الـرومَ رومٌ الحيـلْ
وصدَّ ابـن رُذمـيرَ عـن نصرِهـا تلظّـي حـرابٍ دُوامـي المقـلْ
فمـا التمسـوا الغـوثَ إلّا التـوىٰ ولا اسـتنجزوا الوعـدَ إلّا مطـلْ
ولا أُمَّ يُقبـلُ حتـىٰ انثنـىٰ حِـذاراً ولا غـامَ حتّـىٰ أضمحـلْ[2]

لم يقتصر الشد الدهني في رسم الصورة الحربية لهذ الفتح علىّ الافعال المضعفة وان كثرت مثل: (خرّ، جدّ، قلّ، صدّ، امّ، اضمحلّ). وهي تدل على التكثير من الامر وشدته[3] بل واشتركت معها البنى الصوتية للنص فالمتقارب بحر (اصلح للتعبير عن العاطفة الجياشة)[4] كما ان القافية المقيدة التي نظمت عليه القصيدة قافية صعبة، فلذا هي قليلة الشيوع في الشعر العربي[5] فاراد ابن خفاجة ان يعوض صعوبة هذه القافية باستخدامه حرف اللام رويا، وهو حرف شائع في نظم الشعر[6] ان هذا التعب في استنزاف التشكيل الموسيقي (البحر، القافية، الروي،) وبنائه على هذه الشاكلة ما كان ليتم لولا حالة متأزمة رأت في ممدوحها سمات الموت، الذي ان حدث له، ضاعت امال ابن خفاجة وتركته وحيدا كسيرا.

---

(١) قورية: مدينة قرب ساردة لها سور منيع، ينظر: الروض المعطار، ص١٦٤. . وعن تفاصيل المعركة ينظر: عصر المرابطين والموحدين: ص ١٠٣، الفتن والحروب واثرها في الشعر الاندلسي: ٢/٩٤-٩٥.

(٢) ديوانه: ص١٠٣.

(٣) ينظر: شذا العرف في فن الصرف: الشيخ الحملاوي (ت١٣٥١هـ)، مكتبة النهضة العربية- بغداد (د.ت) ص ٤١.

(٤) شرح تحفة الخليل: عبد الحميد الراضي، مؤسسة الرسالة، بغداد، ط٢، ١٩٧٥، ص ٢٩٣.

(٥) ينظر: موسيقى الشعر: د. ابراهيم انيس، مكتبة الانجلو المصرية-القاهرة، ط٤، ١٩٧٢، ص ٢٦٠.

(٦) ينظر: م. ن: ص ٢٤٨.

اذا بقينا في عصر المرابطين، لنستقصي بقية اماديحه الحربية، وجدنا شاعرا اخر هو ابو عبد الله بن ابي الخصال (المقتول سنة ٥٤٠هـ)[١]، يمدح الامير تاشفين بن علي في موقعة كركي[٢] التي وقعت سنة ٥٣١هـ، وهذا المديح يقوم اساسا على اثر المكان الذي وقعت فيه المعركة اكثر من أي تاثير اخر في (يبدو ان بعد الممدوح عن بعض مناطق الثغر اغرى النصارى بمهاجمتها لا طمئنانهم على عدم قدرة المسلمين رد الفعل مباشرة. فلما فاجأهم الممدوح في عقر دارهم، ساء تقديرهم، فكان ظنهم وهما، فكانت خسارتهم فادحة)[٣]، يقول:

قَد كانَ بعدُكَ للاعداءِ مملكةٌ ... حتىً استدّرت عليهم كورةُ الفلكِ
سارتْ بكَ الجردا وطارَ القضا بها ... والحينُ قد قَيّدَ الاعداءُ في شركِ
فما تركتَ كميّاً غيرَ مُنعفرٍ ... ولاتركتَ نجيعاً غيرَ منسفكِ
ناموا وما نامَ موتورٌ على حنقٍ ... اسدىً اذا لَهُ فرصة من السلكِ
فصبّحتُهم جنودُ اللهِ باطشةً ... والصبحُ من عبراتِ الفجرِ في مُسُكِ

وقد ذكر الشاعر كثيرا من الامكنة الاخرى التي غزاها الممدوح، فضلا عن كركي مكان الحرب الاول، وهذا ما يتداعى في النص من خلال اوصاف الممدوح، اذ تتطلب هذه الاوصاف سرداً للحروب التي خاضها، وذكر اماكنها بوصفها وثيقة تاريخية. الى جانب كون النص وثيقة ادبية اخلاقية تدل على الشجاعة والبسالة وما الى ذلك فيقول في تشكيل ايقاعي رتيب:

)

(١) محمد بن مسعود بن خالصة بن فرج بن مجاهد بن ابي الخصال الغافقي، يكنى ابا عبد الله، اصله من فرغليط من شقورة، من كورة جيان سكن قرطبة وغرناطة ذو الوزارتين الشاعر الكاتب. له قصائد كثيرة اهمها مخمسته التي قالها يتشوق الى قرطبة. واوردها ابن الخصيب كاملة. قُتل بداخل مدينة قرطبة، يوم دخلها النصارى سنة(٥٤٠هـ): ينظر: الذخيرة :٣/٢/٧٨٤-٧٨٦. الخريدة: ٢/٤٦٥. الاحاطة: ٢/٣٨٨-٤١٧. وكُتب فيه رسالة ماجستير تحت عنوان: ابو عبد الله بن ابي الخصال الكاتب . للباحث: ستار جبار ارويج ، كلية الاداب في جامعة بغداد، ١٩٩٢.

(٢) كركي: بلدة قرب قرية رياح جنوبي نهر يانه، ينظر الاحاطة: ٢/٣٩٣-٣٩٤، وعن المعركة: عصر المرابطين والموحدين: ص ١٤٢.

* كان الممدوح يقيم في غرناطة.

(٣) الفتن والحروب واثرها في الشعر الاندلسي: ٢/٧٨-٧٩، وينظر : الاتجاه الاسلامي في الشعر الاندلسي: ص ٢٧٧-٢٧٨.

وكم مضىٰ لكَ مـن يـوم بنـتَ لَـهُ ... فـي مـاقطٍ برمـاحِ الخـطِّ مُشـتبكِ
بـالنقعِ مرتكـمٌ بـالموتِ ملتنـمٌ ... بـالبيضِ مشـتملٌ بـالسُّمرِ مُحتبـكِ
فحصُ القبابِ الىٰ فحصِ الصعابِ إلـىٰ ... اريولـةٍ مـن مداسـاتٍ إلـىٰ السـككِ
وكم علـىٰ حـبرِ محمـودٍ وجارتـهِ ... للـرومِ مُرتكـلٍ مِـن غـيرِ مُـتَّرَكِ[1]

وبلا ريب فان الحدث هنا هو الذي يحرك مشاعر الشاعر فقد جاءت هذه الانتصـارات وقد تكالبت الظروف على دولة المرابطين، في المغرب من قبل الموحدين وفي الاندلس من قبل النصارى الاسبان، ولذا فان الاستطراد بذكر حروب الممدوح ونصـره فيـها، وايداع تلك الانتصارات في مثل هذه الاشعار قادرة على تحريك الهمة، وايجاد الامـل ولو كان ضعيفا بعيدا.

في عصر الدولة الموحدية التي قامت علـى زوال دولـة المرابطيـن، كـانت الحروب سجالا مدة حكمها للمغرب والاندلس، وقد سال شعر كثير من تلك المعارك التي قادها الموحدون-هزيمة وانتصارا- ودونت لنا المصادر الادبية والتاريخية والجغرافيـة كثيرا من تلك الوقائع والغزوات. على ان المكان الحربي في هذا العصر -مـن حيـث الشعر- لم يخرج عن عموم خصائص المكان الحربي بالنسبة للاندلـس منـذ عصـر الطوائف، ذلك العصر الذي شهد بداية الفتن والحروب التي اودت بحكامه ومدنـهم اولا ثم عم الدمار ليشمل الجميع في كل مكان من الاندلس. واهم خصائص الامكنة الحربيـة التي استطعنا ان نلمحها من خلال الشعر في هذه العصور هي:

أ- تصوير عظمة الجيش الاسلامي وبيان عدته وكثرة جنوده واهمية هـذه الكثرة في مقاومة الاعداء. اذ اصبح جانب الكثرة معهودا عليه في الانتصـارات ، بسبب ما يؤديه المكان المفتوح للجزيرة الاندلسية من سهولة الوقوع فـي سـاحات قتال الاعداء، الذين يتميزون بكثرتهم المفرطة، فلابد من الاقامة في جميـع المـدن الاسلامية هناك وهي مدن واسعة تفصلها مساحات شاسعة بعضها عن بعض. وبـذا يتطلب ان يكون هناك جيش في كل مدينة اندلسية.

ب- التركيز على جانب القيادة العسكرية المحكمة للجيش الاسلامي، ومـدح القادة والامراء في خوضهم المعارك ورثاء من سقط منهم شهيدا. وابراز الطاعـة

(١) الاحاطة: ٢/٣٩٤.

والولاء للقائد العام في كل الظروف واصعب المواقف والضرب على يد الخارجين، واصحاب الفتن الداخلية الذين ظهروا في وقت كانت فيه الدولة مشغولة بحروبها الخارجية.

ج_ شدة العناية بمكان الحرب، ومن ثم الانطلاق في الحديث لبيان ما وقع في هذا المكان سواء اكان اثناء المعركة ام بعدها لاسيما في المعارك التي هزم فيها المسلمون وما اعقب هذا الانهزام من سقوط المدن الاندلسية الواحدة تلو الاخرى نتيجةحرب غير متكافئة، او فتنة ظالمة او غدر او استبداد برأي خلف جرحا كبيرا لم يندمل حتى يومنا هذا.

ان البحث هنا بقصد انتخاب انموذجات شعرية ادت اثرا في تجسيد المكان الحربي في الشعر الاندلسي، وهو-أي البحث- ليس من وكده ولا من شأنه ان يدور حول كثرة الحروب والانتصارات، او الهدن والمعاهدات التي عقدت بين ابناء الاسلام وابناء النصارى لانها كثيرة ومعروفة من قبل كثير من الباحثين- مؤرخين وادباء- ، ولذا؛ ربما سنرى الملل الحقيقي اذا ما حاولنا اعادة ما كتب واثارة اشياء ربما لاتمس البحث بطيب قربت ام بعدت.

اذا ما اردنا ان نلج صفات المكان الحربي في الشعر الاندلسي على عهد الموحدين باطمئنان، يمكننا القول ان وقعة فحص بلّقون[1]التي حدثت سنة (٥٥٦هـ)هي اوائل الوقائع التي جسدت بعض سمات المكان الحربي وهي وان اقتصرت على المديح لعبد المؤمن بن علي ووردت عند شاعر واحد هو ابو العباس الجراوي (ت٦٠٩هـ)[2]. وقد راى في هذه المعركة (عزا للاسلام بعد ذل، وامنا للبلاد بعد خطر)[3] بعد ان الحق

(١) رجح د. جمعة شيخة ان هذا الحصن يقع قرب جيان، الفتن والحروب: ١٤٧/٢. واستدل على ذلك من كلام ابن صاحب الصلاة في : تأريخ المن بالامامة: ص ١٦٩.

(٢) ابو العباس احمد بن حسين بن سيد الجراوي المالقي، احد الادباء الذين عاشوا في البلاط الموحدي. كان شاعرا وكاتبا بليغا تحول من مالقة الى قرطبة ثم صار الى مراكش فأدّب بني عبد المؤمن، وبها توفي سنة (٦٠٩هـ) . ينظر الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة : ابن سعيد المغربي،تحقيق: ابراهيم الابياري، دار المعارف- مصر، ١٩٤٥، الترجمة الثامنة ص ٩٨. الوافي بالادب المربى المغرب الاقصى: ١٢١/١-١٢٦، ديوانه: تحقيق: د. علي ابراهيم كردي، دار سعد الدين للنشر- دمشق، ط١: ١٩٩٤، مقدمة المحقق ص ٩-١٢.

(٣) الفتن والحروب واثرها في الشعر الاندلسي: ١٤٧/٢.

الموحدون هزيمة نكراء بتلك السرية النصرانية التي جاءت تتعقب اثارهم وتسمع اخبارهم فيقول مخاطبا الممدوح:

اعليتَ دينَ الواحدِ القهّارِ ... بالمشرفيةِ والقنا الخطّارِ
ورأىٰ بكَ الاسلامُ قرةَ عينه ... وغدتْ بكَ الغراءُ دارَ قرارِ
وسلكتَ من طرقِ الهدايةِ لاحباً ... طوبىٰ لمن يمشي علىٰ الاثارِ
وقفتَ على ماقد اردتَ سعادةً ... وقفت عليها خدمة الاقدارِ[1]

ومن ثم ينتقل نحو تصوير المكان الامن اثناء الحروب لان (المكان الامن يستحضر ذهنيا من ابدا المكان غير الامن، وفعل الاستحضار بيان واضح الدلالة تعلنه الشخصية لرفض الواقع القائم والبحث عن بديل، يتناقض ودلالة المكان الاول)[2]، في قوله:

وافيتَ اندلساً فآمنَ خائفٌ ... وسعىٰ لأخذِ الثأرِ ربُّ الثارِ
وحللتَم جبلَ الهُدىٰ فُحللتم ... منه عُقودُ عزائمِ الكفّارِ
جَبلَ الهدىٰ والفتحِ والنصرِ الذي ... سبقتْ بشائرهُ إلىٰ الامصارِ
....
....[3]

ان جبل طارق المعروف بجبل الفتح[4]هو البؤرة المكانية المهمة في النص حولها دار الحديث من مدح اوصف للمعركة ثم انتقل بعده ليصف خيل الممدوح في الحرب، وانه –الممدوح– اتم ما ابتدأ به طارق وموسى من فتح الاندلس، وهذه امور معروفة في سبيل كشف الصفات المدحية، وما تعليها من شجاعة ومنعة تقتضيها طبيعة الظرف الاني الذي قيلت فيه القصيدة، ولذا ربما لاتتفق على نحو كبير مع من تحدث عن الابيات السابقة من ان الشاعر في مدحه كان (مبرزا رؤية هؤلاء الى التطلع نحو التوسع الامبراطوري وامتلاك الاراضي لان الموحدين تميزوا طيلة تاريخهم الحربي

(١) ديوانه: ص ٨٦.

(٢) بناء المكان ودلالاته في رواية الحرب: عبد الله ابراهيم، مجلة افاق عربية– بغداد، ع١٢، ١٩٨٧، ص٥٥.

(٣) ديوانه: ص ٨٧-٨٨.

(٤) ينظر: تأريخ المن بالامانة على المستضعفين، ص ١٣٠، كتاب معيار الاختيار في ذكر المعاقد والديار: لسان الدين الخطيب، تحقيق: د. محمد كمال شبانه، مطبعة فضالة– المحمدية، الامارات– المغرب، ١٩٧٦، ص ٨٢-٨٣. وذكر ابن بطوطة (٧٧٩هـ) انه اول ماشاهد في بلاد الاندلس: ينظر رحلة ابن بطوطة، تحقيق: د. عبد الهادي التازي، اكاديمية المملكة المغربية– الرباط ط١ ١٩٩٧، ٤/٢١١.

بتوجيه الصراع لصالحهم من خلال اصرارهم على تحقيق النصر ومقاومة كل من خالفهم في افكارهم او عارض دولتهم)[1]

بعد احداث معركة فحص بلقون الماضية ، وقعت حادثة بطليوس سنة (٥٦٤هـ) والتي تحالف فيها فرناندو الثاني ملك ليون[2] مع الموحدين ضد البرتغال وفيها انتصر الحليفان الغرب والقشتاليون وتم انقاذ بطليوس من السقوط وقيلت اماديح هنا وهناك لاتخلو من ذكر العزة لامير المسلمين ولجيشه[3] ولكن هذا الامر -امر التحالف- لم يدم طويلا فسرعان ما انقلب فرناندو الثاني على الموحدين، وبدأ بغزو اراضي الاندلس ، وعاث فيها الدمار والخراب مما استاء الامير الموحدي -ابو يعقوب-له، فجهز حملة لمحاصرة مدينة المبطاط- مقر العدو- الذي اضطر للدفاع عنها بكل قوته ومنع جيش الموحدين من فتحها[4]

وعلى الرغم من ان هذه الحملة فشلت -تأريخيا- الا انها دونت انتصارات في مظانها الادبية، اذ يورد لنا صاحب زاد المسافر ابياتا لابي علي بن عمر الاشيري (ت ٥٤٠هـ) يذكر انتصار المسلمين واهانة الشرك واهله، مستشهدا بقصة قديمة جرت للنعمان بن المنذر من قتلة ملك الحيرة في ساباط المدائن بأمر من كسرى[5] مضيئا النص بهذا الرمز التاريخي الذي قد يتكرر من عدو الف المداهنة والمزاوجة في رأيه، والخديعة والمكر في تصرفاته فيقول:

دارتْ رحى الهلكاتِ بالسبطاطِ ... وسَطا بها ريبُ الزمانِ الساطي

وأهينَ فيها الشركُ أيَّ اهانةٍ ... شفعت كريهَ هياطها بمياطِ

ان لم تقمْ فيها قيامةُ مُلكهمْ ... فلقَدْ رأوا جُملاً من الاشراطِ

واصارَهَا وطءُ الجيادِ هشيمةً ... سوداءَ مُعتبراً لعينِ الواطي

لولا خروجُ الفصلِ عَنْ مُعتادِهِ ... لم يمهلوا مقدارَ سمِّ خياطِ

ولعاينوا من اخذهم بذنوبهمْ ... ما عاينَ النعمانُ من ساباطِ[6]

---

(١) ادب البطولة في شعر ابي العباس الجراوي : محمد القاضي، مجلة المورد، مج ٢٦ع١٤، ١٩٩٨، ص٢٤.

(٢) ينظر: عصر المرابطين والموحدين: ص ٣٨.

(٣) ينظر: تاريخ المن بالامامة: ص ٤٠٧-٤١٢.

(٤) السبطاط مدينة بناها فرناندو الثاني في مملكته البرتغال، وجعلها قاعدة للاغارة على اعدائه. ينظر: عصر المرابطين والموحدين، ص٣١، والفتن والحروب واثرها في الشعر الاندلسي: ٢/١٥١.

(٥) ينظر: الكامل في التأريخ: ابن الاثير (ت٦٣٠هـ)، دار صادر- بيروت ١٩٦٥: ١/٤٨٢.

(٦) زاد المسافر : ص١٠٢، وينظر : ديوان الجراوي :ص٣٣.

ان هذا النص اقرب الى فن النظم فهو وثيقة تاريخية لم نر فيه خيالا او ابتكارا او صورا فنية ،بل هو يقرب الى النثرية التي تسرد واقعة حدثت في زمن انقضى، ومكان اندرس.

ان مثل هذه النصوص[1] قد تدفعنا الى الاستطراد المزكم، ومن ثم الى حرمان سمات البحث في واد اخر بعيدا عن مجراه الذي سار عليه في ما مضى من عنوانات تهتم بدراسة المكان ووصفه والبحث عن سماته ودلالاته داخل النص الشعري الاندلسي، ولذا سنركز الحديث من هنا على واقعتين اثنتين كان لهما الاثر الكبير في التاريخ الموحدي ومن ثم الاندلسي، وشكلتا مادة دسمه النصوص التاريخية التي تحدثت عند دولة الموحدين في المغرب والاندلس وهاتان الواقعتان هما: وقعة الارك (سنة ٥٩١هـ) ووقعة العقاب (سنة ٦٠٩هـ).

الاولى[2] ومن حيث الاهمية والنتائج التي تركت اليها تعد بحق المعركة الثانية الكبرى في الاندلس بعد موقعة الزلاقة الشهيرة، وحدثت هذه المعركة في عهد المنصور الموحدي (ت ٥٩٥هـ)[3] في سهل واسع يقع قرب قلعة رباح الشهيرة[4]، ضد جيش النصارى الذي كان يقوده الفونسو الثامن ملك قشتالة.

وكان السبب الاول لاشتعال فتيل الحرب هو هجوم الملك النصراني على المدن الاسلامية بعد خرقه للهدنة التي عقدها مع المنصور منذ سنة ٥٨٦هـ. فسار المنصور ضد القوات النصرانية بجيش نظامي يتمثل في الموحدين والحشود العربية والبربرية من الاندلس، وانتهت المعركة بهزيمة الفونسو فدخل حصن الارك فاحاطت به القوات

(١) ينظر في بقية حروب الموحدين: تأريخ المن بالامانة: ص ٢٤٥-٢٥١، الروض المعطار : ص ١٠٦-١٠٧، عصر المرابطين والموحدين: ص ٩٩-١٨٨. الفتن والحروب واثرها في الشعر الاندلسي:٢/١٥٣-١٥٨.

(٢) راجع عن اخبار هذه المعركة : عصر المرابطين والموحدين : ص١٩٦-٢١٣، التأريخ الاندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة : ص٤٦٤، معارك العرب في الاندلس : بطرس البستاني. منشورات دار المكشوف ، بيروت ، ط١، ١٩٥٠، ص٦٣-٨٠، الفتن والحروب واثر هاتي الشعر الاندلسي : ٢/١٥٩-١٦٨، معركة الارك – ذروة جهاد المرابطين في الاندلس-:د. مزاحم علاوي الشاهري، مجلة المورد، بغداد، مج٢٥، ع٣-٤،١٩٩٧ص٤٦-٤٧.

(٣) المنصور هو ابو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، احد خلفاء الموحدين، تولى الخلافة سنة ٥٨٠، وهو المع خلفاء الموحدين سياسيا وادرايا وعسكريا. ينظر: المعجب في اخبار المغرب: ص ٣٣٦-٣٧٠، اعمال الاعلام: ص ٢٦٩-٢٧٠.

(٤) ينظر: الروض المعطار: ص ٢٧.

الموحدية ثم خرج من الحصن فاضرمت القوات الموحدية النار بالحصن... ثم زحفت القوات الموحدية وهي تطارد فلول الفونسو المندحرة حتى وصلت الى جبل سليمان ثم رجعت الى اشبيلية حيث امر المنصور ببناء جامعها الكبير تخليدا لانتصاره.[1]

لقد تردد صدى المعركة في المصادر التاريخية كثيرا حتى حددت بيومها وشهرها في ٩/شعبان من سنة ٥٩١هـ[2]،وهذا ما يدل على اهمية هذه المعركة، وسعة الفرحة بانتصار المسلمين ضد اعدائهم، ف(قد اهتزت الاندلس من ادناها الى اقصاها لهذا الانتصار العظيم)[3].

اما على مستوى المادة الشعرية فمع ان من المتوقع ان يقال فيها شعر كثير كما حدث في ادب الزلاقة الا ان ما وصل إلينا منها ربما لايمثل جميع ما قيل، وانشد امام المنصور، ويسوق لنا المقري تعليلا لهذه القلة من المادة الشعرية مفاده ان المنصور لم يستمع في الاغلب لانشاد الشعراء والمهنئين، ولم يصل احدا منهم بشيء الا نادرا[4]، فربما احجم الكثير من الشعراء عن انشاده والسعي اليه لمدحه وتدوين هذه المعركة الكبيرة وتسجيل انتصارها الباهر.

لكن ابا العباس الجراوي الذي (عاش احداث تلك الواقعة العظيمة فسجل ايامها ومواقعها ، فنطق لسانه بايات من النصر وعبر عن بسالة البطل والمقاتلين في اداء حسي معبر ودقيق)[5] يبدأ قصيدته واسماً تلك الواقعة بالفتح، الذي اعيا ان يوصف نظما وشعرا ومن ثم دخول المسلمين في بشرى وسعادة، وكيف تهللت الدنيا عموما لهذه الفرحة، وكيف تفرقت الاخبار تنشر اصداء الواقعة وما حدث فيها من نصر مبين ، فيقول:

---

(١) ينظر: المعجب في اخبار المغرب، ص ٣٧٠، عصر المرابطين والموحدين: ص ٢٣٠، وفيه ان المنصور اتم منارة الجامع الاعظم باشبيلية.

(٢) ينظر: عصر المرابطين والموحدين بالاندلس: ص ١٩٦، التاريخ الاندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة: ص٤٦٤، معارك العرب في الاندلس: ص٧٩.

(٣) الفتن والحروب واثرها في الشعر الاندلسي: ٢/١٦٠.

(٤) ينظر: نفح الطيب: ٤/١٧٢.

(٥) ادب البطولة في شعر ابي العباس الجراوي: ص ٢٥.

هو الفتحُ اعيا وصفُهُ النظمَ والنثرا وعمّت جميعَ المسلمينَ بهِ البشرى
وانجدَ في الدنيا وغارَ حديثُهُ فراقتْ بهِ حُسناً وطابتْ بهِ نشرا
تميّز الاحجالِ والغررِ التي اقلّ سناها يبهرُ الشمسَ والبدرا
وصيرت المرقىٰ اليهِ صوارم كثيرٌ بها القتلى قليلٌ بها الاسرى[1]

ومثلما نلحظ ان اهمية الحدث عند الشاعر جعلته يلج الموضوع مباشرة ولاشك ان الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستقرار في بداية الابيات (هو الفتح)، كانت حرية بالاستعمال في مثل هذا الحدث بالنسبة للمتكلم وفي مثل هذا الموقع بالنسبة للنص، ولذا جاءت الابيات بعدها لتكشف لنا عن سر هذا التيقن العالي وكبره عند المتلقي بعد ان بان ووضح في نفسه ملقيه.

ومن خلال الاضاءة التاريخية للاحداث الاسلامية ، يرمي الجراوي الانفوش باسباب الهزيمة وانه كان كابليس عندما اغرى قريشا بالحرب على جماعة المسلمين، وان ما حدث لهم كان مثل ما حدث لتلك القبيلة واعوانها في معركة بدر الكبرى. هاك قوله:

لقد اوردَ الانفونشُ شيعتَهُ الردىٰ وساقهم جهلاً الى البطشةِ الكبرىٰ
حكى فعلُ ابليسَ باصحابهِ الألىٰ تبرأُ منهم حينَ اوردهم بدرا[2]

وبلا ريب ان يعمد الشاعر الى الصورة المفزعة واللفظة الشديدة وهو يصف حركة الحرب ، وساحات الوغى بعد ان ذكر اهمية الحدث، والمواقف البطولية التي قام بها الجيش الاسلامي وقائده، يقول واصفا الحرب ومكانها:

ودارتْ رحىٰ الهيجاءِ عليهم فاصبحوا هشيماً طحيناً في مهبِّ الصبا يذرى
يطيرُ باشلاءٍ لهم كلُّ قشعمٍ فما شنتَ من نسري غُدا بطنهُ قبرا
فكيفَ رأى المغترّ عقبى اغتراره وكيفَ رأى الغدارُ في غيهِ الغدرا[3]

(١) ديوانه :ص٩٠-٩١.
(٢) م.ن.: ص ٩١.
(٣) م.ن.: ص ٩٢.

وينتهي الشاعر الى البطل المسلم قائد المعركة (وكانت صور البطل المقدس والمعركة والاستبسال من اجل الاستشهاد والصمود والانتصارات من اهم ما برع في رسمه. واضفى عليه كثيرا من سمات الفخامة والزخرف البياني فجاء شعره الحربي مليئا بالصور الحية من ساحات الوغى بالصوف الدقيق لحركاتها)[1] اذن هناك قوله في المنصور الموحدي بطل هذه المعركة:

مُعزّ الهُدىٰ معليه حامي ذماره ... يجيرُ علىٰ اعدائه البرّ والبحرا
مُعانٍ بأمدادِ الملائكِ مَنزلٌ ... من المعقلِ الاسمى مناوئه قَسرَا
رأىٰ السبلَ شتّىٰ فاتّقاها تورعاً ... وسارَ علىٰ المُثلىٰ فيسّر لليسرىٰ
اغاثَ بهِ اللهُ البلادَ واهلها ... وصيّرَ غاياتِ الفتوحِ له ذُخرا
ينصرُ فيهِ كلَ مُثنٍ وإنّ غَلا ... واجرىٰ إلىٰ اقصىٰ نهايتهِ الفكرا
فلازالَ بالنصرِ الالهيّ يقتضىٰ ... بشائر يُحصىٰ قبلَ احصائها القِطرا[2]

ان صفات البطل هنا هي صفات البطولة العربية التي عرفها العرب قبل الاسلام، وزادت وتألقت في عصر صدر الاسلام والعصور الاخرى بما تمليه الاخلاق الاسلامية الحميدة على قائد المعركة، انها (البطولة الواقعية، بطولة يرتفع فيها صاحبها عن الاشخاص العاديين من حوله بقوته وبسالته واقدامه وجرأته وتغلبه على اقرانه وهو منهم، من ذات انفسهم لا من سلالة الالهة وانصاف الالهة)[3].

ولابي حفص عمر بن عبد الله السلمي القرطبي (ت٦٠٣هـ)[4] في هذه المعركة ما اورده ابن سعيد في الغصون اليانعة، وهي لاتخرج عما قدمنا من ذكر يوم المعركة ووسمه بالفتح ومن ثم مدح المنصور وتهنئته بالنصر[5].

---

(١)ادب البطولة في شعر ابي العباس الجراوي: ص ٢٥.

(٢)ديوانه: ص ٩٤-٩٥، وينظر: م.ن: ص ١٣٢-١٣٥.

(٣) البطولة في الشعر العربي: ص ١٣.

(٤) ابو حفص عمر بن عبدالله بن محمد عمر السلمي، القاضي الاديب. كان فقيها علامة وفي النظم والادب اندر علامة. ولاه المنصور الموحدي قضاء اشبيلية. فشكرت فيها سيرته وحمدت سريرته وسات وهو بها قاض سنة(٦٠٣هـ) ينظر الغصون اليانعة: الترجمة السابعة، ص ٩١-٩٧، نفح الطيب: ٢٠٩/٢ هامش(١).

(٥) الغصون اليانعة: ص ٩٦-٩٧.

اما علي بن حزمون المرسي (كان حيا سنة ٦١٤هـ)[1]، فتناول هذه الحادثة بقصيدة طويلة تكونت من اربعين بيتا، وضمت لوحات عدة، ولا شك في ان الخبب الذي اختاره الشاعر ومن ثم حرف السين كقافية- ذلك الحرف الصفيري، جعل القصيدة كانشودة تنشد بنشوة راقص، او بصوت شادن فانت تتنقل مع الابيات بفرح وطرب بما تبثه الامور الصوتية التي ذكرناها، هاك بعضها:-

حيّتكَ معطّرةُ النفسِ ... نفحاتُ الفتحِ بأندلسِ
فذرِ الكفّارَ وما تمّهمْ ... إنَّ الاسلامَ لفي عُرسِ
أ إمامُ الحقّ وناصره ... طهّرتَ الارضَ من الدنسِ
وملأتَ قلوبَ الناسِ هُدىً ... فدنا التوفيقُ لملتمسِ
وصدعتَ رداءَ الكفرِ كما ... صدعَ الدّيجورَ سَنا قَبسِ
لاقيتَ جموعَ عهمو فغدوا ... فُرصاً في قبضةِ مُفترسِ[2]

ولاغرو اننا سنبقى نُنشد حتى نهاية النص، بما تمرننه علينا الانغام الموسيقية الرتيبة التي يتشكل منها. ولكن، لابأس ان نقتطع جزءا اخر من القصيدة، وفيه يصور الشاعر سبايا العدو اللواتي سقطن اسيرات في حضرة المنصور، الذي رسمه بالضراغم الشرس امام تلك الظباء، في صورة حية... فيقول:

وبكاءُ عقائلَ هاتفةٍ ... كالوَرْقِ ينحنَ مع النفسِ
برزتْ وكأنَّ ذوائبها ... اذنابُ روامحةٍ شُمسِ
ترنو كظباءِ الرملِ علىً ... وجلٍ لضراغمةٍ شُرُسِ
قد كنَّ مها أُنسٍ فغدتْ ... تحتَ الرّاياتِ بلا أُنسِ

وعلّنا بعدنا قليلا عن صلب موضوعنا المكان بمثل هذه الابيات التي لاتخلو من رصد لمظاهر الامكنة التي تنوعت داخل النص، بنية ودلالة، فنعود لنذكر ان خاتمة النص كانت مكانية بحتة عندما ذكرها الشاعر الاندلسي واراد منها الاعتصام بهذا الخليفة و التزام

(١)علي بن حزمون من اهل مرسية كان صديقا للمراكشي صاحب المعجب. قال فيه: (قدم في الادب و اتساع في انواع الشعر اشتهر بمعارضته لكبار الموشحين وله في الهجاء بدلا نطاول على طريق الحطيئة. حتى انه نال عدد من قضاة المغرب وعماله وولاته جاها وثروة). المعجب في تلخيص اخبار المغرب: ص٢٧٠.
(٢) م.ن:ص٣٧٠-٣٧١.

اوامره بعدما حكمت اسيافه الامصار، ومضت معاركه امثالا تحتذى من قبل الروم وغيرهم، فيقول:

أ جزيرةَ اندلسٍ أعتصمي بإمامِ الأُمةِ وآحترسي
آرعاكِ حراستَهُ ملكٌ جبريلُ لَهُ احدُ الحرسِ

لقد استحقت وقعة الارك خلودا ادبيا، فذكرها حازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ) في مقصورته الشهيرة، فقال في جيشها:

قادوا إلىٰ اندلس كتائباً امامها النصرُ العزيزُ قَد قَدىٰ
وجلّلوا شَطَّ المجاز سُبّقاً تعدو الى غزوِ الاعادي الجمزىٰ
وصبّحوا الأركَ بجيشٍ غَطَّ في اذيّه افنَشَ لمّا ان غَطا
وخَلفوا بالبيضِ قُرصَ الشمسِ في أرهاجِهِ حتّىٰ رأود قَد صَنا
فو قبَ الغاسقَ عن يومٍ بهِ كيومِ ذي قارٍ، ويومِ الوقبىٰ[1]

اما لسان الدين بن الخطيب مؤرخ الدول، ومدون احداثها في الاندلس والمشرق فقال: في الارك:

وقامَ بالامرِ ابنُهُ يُعقوبُ وعصرهُ المنتظَرُ المرقوبُ
اوقعَ بالاعداءِ يومَ الأركِ ولم يمللْ من بعدها لتركِ
فلقي الرومَ بهِ شداداً وعاثَ فيها صَتّادِراً وواردا[2]

انها موقعة جهاد، ومكان ابتلاء صبر فيه المسلمون دفاعاً عن كرامتهم ودينهم وارضهم فرحم الله يوسف بن تاشفين قائد الزلاقة، ورحم الله يعقوب الموحدين قائد الارك، انهم رجال باعوا انفسهم لله سبحانه فاستحقوا خلودا على مر الازمان- تاريخا وادبا وصبرا- وبقيت اماكنهم شاهدا على اثارهم وافعالهم في سبيل الاخرة ... فنعم عقبى الدار.

---

(١) قصائد ومقطعات صنعة القرطاجني، تحقيق:د. محمد الحبيب ابن الخوجة-تونس،١٩٧٢. : ص ٦٦. يوم الوقبى: يوم لبني العنبر وبني يربوع وبني مازن بن مالك على بكر بن وائل في الاسلام. ينظر معجم البلدان: ٣٨/٥.

(٢) شرح رقم الحلل في نظم الدول، ابن الخطيب، تحقيق: د. عدنان درويش ، دمشق ١٩٩٠، ص١٩١.

ان الحدث جسيم، وما حصل في هذه المعركة بقي حاضرا ازاء الشعراء، ولذا صب في بوتقة الابداع الفني للشاعر الاندلسي، الذي مافتأ مدونا امينا لما حدث في بلاده ولاسيما وقد تأخر النصر قليلا، وعصفت بالامة رياح الشر من كل حدب وصوب . لقد ارتبط ذكر هذه المعركة بذكر الاندلس ككل، وهذا الترابط الروحي بين المكان- الاندلس- وبين الشاعر - الانسان المبدع- ومن ثم في نتاجه من سمات المكان الاساسية التي يتركها في نفس ساكنيه فهو- أي المكان- (جزء من تكوين الانسان لذلك يبقى لصيقاً بالتاريخ بالحضارة شاهداً حياً على التطور والتغير سجلاً امينا لافعالنا وافعال من سبقونا)[1].

لئن كانت وقعة الارك قد حققت مثل هذا التفاؤل ، ومصدر ذلك النجاح والفتح فقد نسخت هذه الصورة تماماً من ذهن الاندلسيين والموحدين -خصوصاً- الى الابد عندما حدثت وقعة العقاب[2]، اذ بدأ بعدها مصير الاندلس يهتز بيد القدر، وعلها كانت الضربة الاولى والحاسمة لانهيار دولة الموحدين ثم انهيار الأندلس ككل.

دارت رحى المعركة بين الجيوش الإسلامية بقيادة الناصر الموحدي[3] والجيوش النصرانية وعلى رأسها الفونسو الثامن ملك قشتالة، في يوم الاثنين ١٥ صفر ٦٠٩هـ. وانتهت بسحق جيوش المغرب والأندلس سحقا منكرا.

وقد اهتمت المصادر التاريخية بهذه المعركة كاهتمامها بسوابقها من المعارك كالزلاقة والأراك، وحللت اسباب الانتكاس فيها، ووصفت خطواتها وصفاً دقيقاً، وبينت نتائجها، ولسنا بحاجة الى تكرار ماقيل ولكن من المهم جداً ان نقول ان اهم نتائج المعركة (انها قضت على سمعة الموحدين العسكرية نهائياً في الاندلس، كذلك كانت ضربة قاصمة للجيوش الموحدية في المغرب. واستولى الفونسو الثامن ملك قشتالة على كثير من المدن الاندلسية التي كانت بحوزة الموحدين)[4].

---

(١) اشكالية المكان في النص الادبي: ص ١٥٩.

(٢) عن المعركة راجع: المعجب في اخبار المغرب: ص ٤٠١، اعمال الاعلام: ص٢٧٠، عصر المرابطين والموحدين: ص ٢٨٣-٣١٧، التاريخ الاندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة: ص ٤٩٠، معارك المسلمين في الاندلس: ص٨١-٩٥، تأريخ الاندلس السياسي- دراسة شاملة- : محمود مكي، بحث في كتاب "الحضارة العربية الاسلامية في الاندلس" تحرير: د. سلمى الجيوسي- بيروت، ١٩٩٨، ١/١٢٥.

(٣) توفي الخليفة الناصر (٦١٠هـ) كمداً على هذه المعركة. ينظر: المعجب في تلخيص اخبار المغرب: ص٤٠٣،اعمال الاعلام: ص٢٧٠.

(٤) عصر المرابطين والموحدين بالمغرب والاندلس: ص ٣٢٠.

اما عن المادة الشعرية التي قيلت في العقاب، فاننا لم نعثر على قصائد فيها وفي نتائجها ، او لشعراء خاضوا غمارها مع الناصر، وان ما نقله د. جمعة شيخة في كتابه الموسوعي لايمت بصلة إلىٰ المعركة او احداثها او تفاصيلها لامن قريب ولا من بعيد[1] لان صاحب كتاب المن بالامامة علىٰ المستضعفين الذي دون اغلب اخبار الدولة الموحدية، ومعاركها وخلد قادتها كان قد توفي سنة (٥٩٧هـ) وبذا يكون بعيداً عن العقاب التي وقعت بعد وفاته باثنتي عشرة سنة، فما نقله د. شيخة من اشعار لايخص هذه المعركة وما حدث فيها.

الا اننا قد نضع اليد علىٰ اسباب هذه المعركة في مقطوعة وردت في شعر ابي اسحاق ابراهيم بن الدباغ الاشبيلي (ق٧هـ) ، اتكأت هذه المقطوعة على الحوار بين الشاعر وبين رمز المرأة السائلة فتبادل معها الحديث مما دار في فكره من امور حول هذه المعركة، وما آلت اليه من نتائج ، وقد قدم المقري- الاديب الناقد- هذه الابيات بقوله: (وما احسن قول ابي اسحاق... في هزيمة العقاب باشبيلية):[2]

وقائلةٍ: اراكَ تطيلُ فكراً كأنّك قد وقفتَ لدىٰ الحسابِ
فقلتُ لها: افكّرُ في عقابٍ غَدا سبباً لمعركةِ العقابِ
فما في ارضِ اندلسٍ مُقامٌ وقد دخلَ البلا من كلّ بابِ[3]

وربما تكون الاسباب التي اختفت وراءها ظهور الشعر الحربي لهذه المعركة، ما يعود الىٰ الحالة النفسية التي رافقت الشعراء وهم يرون انسحاق جيشهم وهزيمته، ومن ثم سقوط مدنهم، وتحويلها الى ركام ورماد وخراب وعلى اية حال، بقيت اصداء هذه المعركة الى ما بعد عصر الموحدين، فنرى ابن الخطيب يزج باحداثها في تاريخه للدول، فتكلم عنها في ارجوزته، مبينا عظمتها وبعض نتائجها:

(١) ينظر: الفتن والحروب واثرها في الشعر الاندلسي: ٢/١٧٤-١٨١.
(٢) نفح الطيب: ٤/٤٦٤.
(٣)نفح الطيب: ٤/٤٦٤.

محمّدٌ وهُو الامامُ الناصرُ قد كَلَّ عَن فضلِ حواهُ الحاصِرُ
حتّى إذا استقلَّ بالأمورِ وبادرَ اللُّجّةَ بالعُبورِ
جَرَّ وشيكاً غيمةَ الصدورِ هذا بحكمِ القدرِ المقدورِ
كانتْ عليهِ وقعةُ العقابِ حكّمَ فيها السيفَ في الرقابِ
وعَظُمتْ من اجلها المعرّهْ ولَم يكنْ من بعدها كرّهْ
ثم اتاهُ الحينُ في الآثارِ وكانَ يسعىٰ في طلابِ الثارِ
ومماتَ إثرَها وقد كان استعدّ ولم يقُمْ من بعدها حتّىٰ اقتعدْ[1]

اذا ما لُذنا الى الاغراض الشعرية التقليدية كالمدح والرثاء والتهنئة، ووقفنا علىٰ قصائدها وجدنا بعض سمات الامكنة الحربية للمواقع والمنازلات التي خاضها المسلمون في الاندلس، لان هذه الاغراض لم تقف عند حدود المعاني التقليدية بل: اتسعت لتشمل مناحي اخرى تكمن في تخليد البطل الفارس المنتصر ورثاء شهداء الحرب، وابراز الاطار العام لحركة التاريخ الحربي والجهادي للامة.[2] ومثلما وقفنا على اساديح المرابطين في قاداتهم حري بنا ان نكمل حديثنا عن المكان الحربي في عصر الموحدين عن اماديحه او الاغراض الاخرى التي عثرنا عليها، في طور اخضاعها لسمات هذا المكان وخصائصه في هذا العصر.

الرصافي البلنسي يمدح عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين، عند نزوله بحصب الفتح عند اجازاته الى الاندلس وقيل ان الرصافي حين انشد الممدوح هذه القصيدة لم يكمل عشرين سنة من عمره[3]فيقول مبتدئاً مطلعها ومقطعها الاول باضاءة دينية رمزت لقصة سيدنا موسى عليه السلام مع جبل الطور:

لو جئتَ نارَ الهدىٰ من جانبِ الطورِ قبستَ ماشئتَ من علمٍ ومن نورِ
من كُلّ زهراءَ لم ترُفعْ ذؤابتها ليلاً لسارٍ ولم تشببْ لمقرورِ
فيضيّة القدحِ من نُورِ النبوةِ أو نورِ الهدايةِ تجلو ظلمةَ الزّورِ[4]

(١) رقم الحلل: ص ١٩٢.
(٢) ينظر: شعر الحرب في العصر العباسي: ص١٤٧.
(٣) ينظر: المُعجب في تلخيص اخبار المغرب: ص٢٩٠.
(٤) ديوانه: ص ٨٧، وتنظر الاية (١٠) من سورة طه.

والقصيدة طويلة، وتضم لوحات هيكلية تصب في خدمة المديح، وسنركز جهدنا على اهمية المكان -موضوعنا الاول- وترابط الممدوح مع جبل الفتح -جبل طارق- الذي من اجله انشأ النص وقيلت الابيات. يقول عن هذا الجبل، مازجا الصفات الحربية باخرى طبيعية بثالثة تشوبها الحكمة، وتسيل منها الموعظة:

لله ما جبلُ الفتحين من جبلٍ ... مُعظَّم القدرِ في الاجيالِ مذكورِ
من شامخ الأنفِ في سحنائهِ طلسٌ ... له من الغيم جِيَبٌ غيرُ مزرورِ
مُعبِّراً بذراهُ عن ذرىً مَلِكٍ ... مستمطرِ الكفِّ والاكنافِ ممطورِ
تُمسي النجومُ على اكليلِ مفرقهِ ... في الجوِّ حائمةً مثلَ الدنانيرِ
وربما مسحتْهُ من ذوائبها ... بكلِّ فضلٍ عَلىٰ فوديهِ مجرورِ[1]

هل تلحظ كيف اسبغ عليه اسباب التفاؤل والعظمة ؟ ثم اراد له وصفا طبيعياً مغايراً لما عرف عن الاجيال الاخرى عندما جعل النجوم تمسي على ساحاته المزهرة، وارضه الموردة!! وفي اطار فلسفي يضفي عليه صفات الرزانة والحنكة من تقلب الايام وتصرف الدهور، التي مالبثت تغير الخلق من حال والى حال، ومن شعور الى شعور، وهو – الجبل- طويل الصمت، مغرق في التفكير بسكينة ووقار...

وادردٍ من ثنايادُ بما أخذتْ ... منهُ معاجمُ أعوادِ الدهاريرِ
محنَّكٌ حلبَ الأيامُ أشطرَها ... وساقَها سوقَ حادي العيرِ للعيرِ
مُقيَّدُ الخطوِ جوّالُ الخواطرِ في ... عجيبِ أمريهِ من ماضٍ ومنظورِ
قَد واصلَ الصمتَ والإطراقَ مُفتكراً ... بادي السكينةِ مُغفرِّ الاساريرِ
كأنَّهُ ملمٌ مما تعبَّدَهُ ... خَوفُ الوعيدينِ مِن دكٍّ وتسييرِ

اما عن مكانة هذا الجبل ، وفضله على سائر الامكنة الاخرى فلأن الممدوح وطأه واقام فيه وبذا يتميز المكان بمن حل فيه وسكنه لاسيما خليفة الموحدين وباني مجدهم الاول هاك يمدحه ويبين فضل المكان -الجبل- بهذا المدح:

(١)ديوانه: ص ٩٢، وذكره بصيغة المثنىٰ من باب التفاؤل .

كفـاهُ فضـلاً أن انتـابتْ مواطنَـهُ نعـلا مليـكٍ كريـمِ السـعي مشـكورِ
مُستنشئاً بهما ريحَ الشـفاعةِ مـن ثـرىً إمـامٍ بـأقصى الغـربِ مقبـورِ
ما انفكَّ آمل امرٍ منـه بيـن يـدي يـومِ القيامـةِ محتـومٍ ومقـدورِ
حتّىً تصدَّىً من الدنيا علـىً رَمـقٍ يستنجزُ الوعـدَ قبـلَ النفـخِ الصورِ

كل هذه الصفات المدحية ولدها المكان الذي وقف عليه الممدوح وهو جبل طارق فهو كمكان طبيعي يرمز الى الشموخ والعظمة والكبرياء وهو كدلالة تأريخية اول ما وقف عليه العرب عند فتح الاندلس واما عن دلالته الواقعية فتتمثل في عبور الممدوح الى الاندلس وان هذا العبور قد يكون فاتحة خير لانتصارات قد تاتي بعده ولذا لاريب من ان مانرى الحرب هنا وهناك ، فعن سيف الممدوح قال:

لبـارقٍ مـن حُسـامٍ سـلَّهُ قـدرٌ بالغربِ مـن أفـقِ البيـضِ المشـاهيرِ
إذا تـألّقَ قيسـياً اهـابَ بـهِ إلىً شـفا مـن مضـاع الديـنِ موتـورِ
مَلكٌ أتىً عِظماً فـوقَ الزمـانِ فمـا يمـرُّ فيـهِ بشـيءٍ غـيرِ محقـورِ

اما عن جيشه، فهو مميز من حيث قوته، ملتف المواكب، كثير الطعن والضرب بلا هوادة او تقصير:

مُمـيّزِ الجيـشِ مُلتفـاً مواكبُـهُ من كُلّ متّلـولِ عـرشِ المُلـكِ مقـهورِ
مِن الألىً خضعوا قَسْراً لَـهُ وعنـوا لأمـرهِ بيـنَ منـهيٍّ ومـأمورِ
من بعدِ ماعـاندوا أمـراً فَمـاتركوا إذْ امكـنَ العفـوُ ميسـوراً لمعسـورِ
بقيّـةُ الحـربِ فانوهـا ومـا بـهم في الضربِ والطعـنِ سيماءُ لتقصـيرِ
لا ينكـرُ القـومُ ممـا فـي أكفّـهم بيـضٍ مفـاليلَ أو سُـمرٍ مكاسـيرِ

وتاتي خاتمة النص، لتزيد النص تماسكا وتتركه كوحدة موضوعية متكاملة على طول ابياته، وتعدد لوحاته :

وإنما هو سيفُ الله قلّدَهُ أقوى الهُداةِ يداً في دفعِ محذورِ
فإنْ يكنْ بيدِ المهديّ قائمُهُ فموضعُ الحدِّ منهُ جدُّ مشهورِ
والشمسُ إنْ ذكرت مُوسىٰ فما نَميتْ فَتَاهُ يوشَعَ قمّاعَ الجبابيرِ[1]

فموضوعياً انتهى الشاعر الى المعاني الدينية لهذا الممدوح، بجعله سيف الله بما عرف عن الموحدين عموما من انهم اصحاب دعوة دينية جهادية قبل كل شيء.
وموضوعياً ايضاً، جعل من صفات الممدوح المهمة الوفاء، للمهدي شيخ عبد المؤمن ومن جعله بهذه المكانة من الرفعة والمجد وهو في هذا الوفاء يعود لقصة سيدنا موسى وفتاه يوشع الذي تولى امر القيادة من بعده وقمع جبابير الارض في عصره. ويوفق الرصافي فنياً؛ عندما عمد الى البناء الدائري، فختم النص بمثل مابتدأ به، فقد اضاءت قصة سيدنا موسى- عليه السلام- عناصر الوفاء السابقة، فزادت في حيوية النص الفنية وابقت عليه صنعة وتركيبا وتميزا.

ومدح ابو العباس الجراوي(اديب المغرب على الاطلاق في زمانه)[2]. المنصور الموحدي بقصيدة صور فيها جبن العدو، وخوفه، بل، ان الموت ارحم عليه من عيش يصاحبه الهم، ويرافقه النكد يقول:

عدوّكم بخطوبِ الدهرِ مقصودُ وأمركم باتصالِ النصرِ موعودُ
ومُلككم مستمرٌ مالَهُ أمَدٌ موقّتٌ دونَ يومِ الحشرِ محدودُ
ألقىٰ علىٰ كلِّ جبارٍ كلاكلَه كأنّهُ وهو في الاحياءِ مفقودُ
وهبْهُ عاشَ أليسَ الموتُ أرحمُ من عيشٍ يُخالطُهُ همٌّ وتنكيدُ؟![3]

ومثل هذه الاوصاف لامادیح قادة الموحدين وامرائهم اعتصم بها بعض الشعراء في امادیحهم في هذا العصر في المغرب والاندلس[4].

---

(١) ديوانه: ص ٨٧-٩٧.

(٢) الغصون اليانعة:ص٩٩.

(٣) ديوانه: ص٦٣-٦٤.

(٤) ينظر: ديوان الموحدي: ص ٢١، ٨١، شعر ابن مرج الكحل (العذري): ص ٥١، ديوان ابن سهل: ص ١٥٨-١٦٠، ص ٣٤٢-٣٤٣، ديوان ابن الابار، ص ٢١٩.

لم يكن غرض المديح هو الغرض التقليدي الوحيد الذي رافق ذكره وصفا للامكنة الحربية ، بل: وغرض التهنئة الذي ارتبط بمعان سياسية عرج على ذكر المكان الحربي او السياسي الذي فتحه الامير، او أعاده الى حظيرة الاندلس بعد سقوط واحتلال، فحازم القرطاجني يهنئ ابا زكرياء الحفصي صاحب تونس ، بفتح حمص- اشبيلية، واسما ذلك الفتح بالبشرى، وان فتح اشبيلية مقدم على سائر بلاد الاندلس، فيقول:

ولفتحِ حمصٍ في الفتوحِ مزيّةٌ فيحقُّ فيها أن يسمّىٰ الاكبرا
مدّت اليكَ يد المطيعِ وبايعتْ منكَ الأمام المُرتضىٰ المتخيّرا
وهي العقيلةُ حسنُها مستأهلٌ أنْ يُصدقَ الصنعَ الجميلَ ويُمهرا
فقبلتها لا لازديادِ ضخامةٍ بل رغبةٌ في ان تثابَ وتُوجرا[1]

وفي الرثاء ايضا يتجسد المكان الحربي فالشاعر يرثي الشهداء والضحايا الذين سقطوا في المعارك التي خاضوها ويمكننا ان نعد قصيدة ابن الابار في رثاء شيخه ابي الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكومي الذي استشهد في موقعة انيشة، من القصائد الرائعة التي قيلت في تصوير المعركة ورثاء ابطالها.

وقعت معركة انيشة يوم الخميس ٢٠/ذو الحجة/٦٣٤هـ بين جيش بلنسية يقوده الامير زيان بن مردنيش[2]، وجيش ارجواني في محاول من المسلمين الاستيلاء على حصن انيشة[3] -قاعدة النصارى الحربية- وانتهت المعركة بهزيمة المسلمين هزيمة فادحة.

يبدأ ابن الابار مرثيته ببيان فضل الشهادة في سبيل الله ، ومن ثم تحدث عن شهداء المسلمين الذين تقربوا الى الله- عز وجل- بارواحهم مجاهدين في سبيله وحماية دينه، ولاسيما الجمع الكبير من العلماء الذي استشهدوا في تلك المعركة:

---

(١) ديوانه: تحقيق: عثمان الكعاك، دار الثقافة- بيروت، ١٩٦٤، ص ٥١-٥٣، وتنظر: قصائد ومقطعات صنعة القرطاجني، ص ١٣١-١٣٣.

(٢)اخباره واخبار المعركة في : الحلة: ١٠٢/٢، اعمال الاعلام : ص ٢٧٢-٢٧٤، معرع غرناطة: شوقي ابو خليل، دار الفكر-دمشق، ١٩٧٩،ص١٦.

(٣) انيشة: على مقربة من بلنسية... ينظر : الروض المعطار : ص ٤١. وعن المعركة راجع: عصر المرابطين والموحدين: ص ٤٤٢، وسماها (نكبة انيشة).

همّ القومُ راحـــوا للشـــهادةِ فـــاغتَدوا ... ومـــا لـــهم فـــي فَوزهـــم مِـــن مُقـــاوم
تَساقوا كؤوسَ الموتِ في حومةِ الوغىٰ ... فمـــالتْ بـــهم ميـــلَ الغصـــونِ النواعـــمِ
مضوا فـــي ســـبيلِ الله قدمـــا كأنّـــها ... يطـــيرونَ فـــــي اقدامـــــهم بِقـــــوادمِ
يـــرونَ جـــوارَ اللهِ اكـــــرمَ مَغنـــــمٍ ... كـــذاكَ جـــوار الله اســـنىٰ المغـــانمِ[1]

ويمضي ابن الابار في هذه الصرخة الباكية في الابيات الاخرى مشبعا حوا من الحزن والجزع، وهذا ما ترمي اليه قصائد الرثاء عامة، ليصل الى المعركة التي حدث فيها هذا الفزع العظيم، فترك تلك الاجساد اشلاء تعط، وانفاسا تطيب، وهو يربط بين الدمار والمكان لهذه الواقعة المشؤومة، فيقول:

اضاعـــهم يـــومَ الخميـــسِ حفاظُـــهم ... وكرّهُـــمُ فـــــي المـــــأزقِ المتلاحـــــمِ
ســـقىٰ اللهُ اشـــلاءً بســـفحِ انيشـــةٍ ... ســـوافحَ تُزجيـــــها تقـــالُ الغمـــائمِ
وصلّىٰ عليها انفســـاً طـــابَ ذِكرُهـــا ... فطيّـــبَ انفـــاسَ الريـــاحِ النواســـمِ
لقد صبروا فيـــها كراماً وصـــابروا ... فلاغـــروَ أنْ فـــازوا بصفـــو المكـــارمِ[2]

انها عاديات الزمن ، وفجائع الدهر التي لاينجو من صرفها احد، انـــه ســـوء الحـــال وشكوى الايام التي لاتسمع ولاترحم:

ومـــا هـــي الا غاديـــاتُ فجـــائعٍ ... تعـــبّرُ عنـــها رائحـــاتُ مـــآتمِ
جلالدُ دقّ الصـــبرُ فيـــها فلـــم نُطِـــقْ ... ســـوىٰ غَـــضِّ اجفـــانٍ وعَـــضِّ أنـــاملِ
أبيـــتُ لـــها تحـــتَ الظـــلامِ كـــأنني ... رمـــيٌّ نصـــالٍ أو لديـــغٌ اراقـــمِ
أغازلُ من برحِ الأســـىٰ غـــيرَ بـــارحٍ ... وأصحبُ من سامي البُكـــا غـــيرَ ســـائمِ
واعقـــدُ بـــالنجمِ المشـــرقي نـــاظري ... فيغـــربَ عنّـــي ســـاهراً غـــيرَ نـــائمِ
واشكو إلـــىٰ الايـــامِ ســـوءَ صنيعـــها ... ولكنـــها شـــكوىٰ إلـــىٰ غـــيرِ راحـــمِ[3]

انها شكوى دائمة باقية، انه بكاء متحسر متألم في دوام واستمرار، وما لعبتـــه الافعـــال المضارعة (أُبيتُ، أغازلُ، أعقدُ، أشكو) من دور لايمكن تجاهله من اجل هذا الـــدوام والبقاء في هذه العواطف المشجية التي خلفتها تلك المعركة واثارها دلك المكان.

(١) ديوانه: ص ٢٧٦.
(٢) م.ن.: ص ٢٧٧.
(٣) م.ن: ص٢٧٨.

اذا ما وقفنا على المكان الحربي وانماطه في شعر بني الاحمر او عصر مملكة غرناطة وجدنا سمات هذا المكان قد ارتبطت بالنكبات فالمكان عموما هو هوية الانسان ووجوده[1] وعصر مملكة غرناطة اخر العصور التي اقام فيها المسلمون في الاندلس ، فبعد سقوطها بكاها العرب وحزنوا عليها ، كما بكوا من قبلها: طليطلة، قرطبة واشبيلية... وغيرها من المدن اللواتي تملكها الاعداء المحتلون، واعلنوا فيها شريعتهم ودستورهم .

بدءاً؛ ان (الشعر في كل امة خاضع لتطور حياتها في النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فهي التي تحدد مجراه ومساربه واتجاهاته، وهي التي تفرض عليه ماشاءت من التغيرات)[2]، وان نظرة الى هذي النواحي مجتمعة في عصر بني الاحمر لتكفينا همنا اذا ما بحثنا عن اسباب سقوط المدن التي كانوا يمتلكونها او اسباب سقوطهم سياسيا وعسكريا.

لقد قامت دولة بني الاحمر على انقاض الدول الكبرى في الاندلس، وبهذا فهي تقصر كثيرا عن غيرها من الدول في الحياة الاقتصادية، التي كانت تعرف قبل هذا العهد بالترف والبذخ والاسراف ، هذا من جهة ومن جهة اخرى المستوى المعيشي الضيق التي مرت به الاندلس، غرناطة-خصوصا- عقب المعارك التي خاضها المرابطون والموحدون، وتملك النصارى قواعدهم ومدنهم، وعاثوا فيها خرابا ودمارا، وهي مأساة اخرى تضاف الى النواحي الاقتصادية.

ومن الناحية الاجتماعية ، فما عادت تلك الافراح تخص العوام قبل السادة والمحكومين قبل الحكام، كما عهدنا من قبل عصر بني الاحمر ، بل، ارتبطت الافراح والاعياد بمراسيم المملكة، وبحياة الملك او الامير، اما باقي الشعب فهو مكبل بين صرخات الحروب وشظف العيش الذي اضطر الى نسيان امور اللهو وترك المظاهر الترفيهية ، والوقوف على اهبة الاستعداد اذا ما نادى منادي الجهاد.

---

[1] ينظر: دلالة المكان في مخمسة مدن الملح: ص١١.

[2] اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، د. مصطفى محمد هدارة، دار المعارف-مصر ، ط٢: ١٩٦٩، ص٢٣.

اما الناحية السياسية، فقد كانت تعاني الامرين سواء على صعيد الاوضاع الداخلية ام الخارجية فلقد كثرت الفتن[1] والانشقاقات السياسية واتى على غرناطة من الحكام والامراء من لايعرف كيف يدير البلاد ويراعي ذمم الناس، ويوفي حقوقهم فـ(كانت النتيجة بالنسبة الى المجتمع الاندلسي، من الناحية النفسية انه اصبح يعيش خلال اغلب فترات تاريخه جو الرعب والفزع بين خطرين، التطاحن من الداخل، والعدو من الخارج)[2]. وسنعرج هنا على اهم المعارك التي وقعت في هذا العصر بما حملت من نتائج وبينت من احداث كاشفين عن اهمية المكان الحربي، وسماته داخل شعر العصر الغرناطي ، تاركين اسباب الفتن الداخلية واحداثها المأسوية- الداخلية والخارجية- للدكتور جمعة شيخة، الذي وقف عليها بموضوعية وانصاف،[3] وهي وقفة جديرة بان تراجع وكفيلة بان يحتذى حذوها الدارسون في كتاباتهم وابحاثهم.

من المعارك التي حدثت في زمن بنى الاحمر، معركة المرج (٧١٨هـ)؛ وقد وقعت هذه المعركة في هضبة البيرة الكائنة بظاهر غرناطة في مكان يعرف بالمرج[4].وانتهت المعركة بانتصار المسلمين على ممالك قشتاله بقيادة شيخ الغزاة ابي سعيد عثمان بن ابي العلاء (ت٧٣٠هـ)[5].

ابن الصائغ (ت٧٢٥هـ) يوثق هذه المعركة شعرا، في قصيدة ابتدأها بتهنئة الامير بفتحه، عندما قدم مع الوفود من اهل بلده. يقول في تهنئته ومدحه..:

---

[1] لم يقف مصطلح الفتنة على الامور السياسية فقط بل، شمل المناحي الثقافية والادبية . وكفى بفتنة الخطيب ومقتله شاهدا على ذلك .

[2] الفتن والحروب واثرها في الشعر الاندلسي: ٢/٢٤٣-٢٤٤.

[3] ينظر: م. ن: ١/٢٥١-٢٧٧، ٢/٢٤٢-٢٥٩.

[4] المرج: مكان بظاهر غرناطة. ينظر: الاحاطة: ٢/٤٣٧. وفي احداث المعركة راجع: نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين: ص١٠٨، الفتن والحروب واثرها في الشعر الاندلسي: ٢/٢٩١-٢٩٣.

[5] راجع: اللمحة: ص٨٠، اعمال الاعلام: ص٢٩٥، روضة النسرين ،ص ١٩، وفيه وفاته(٧٣١) (ومنصب مشيخة الغزاة منصب عسكري تشكيلاته من المغرب -جنداً وقادة- المرابطين في ثغور غرناطة الشرقية والغربية)،مشيخة الغزاة ودورها في بلاد الاندلس : د. مزاحم الشاهري، المورد، مج٢٩، ع٤، ٢٠٠١،ص٦٧.

أمليكٌ أم بدرُ الدجى الوضّاحُ ... وحسامهُ أم بارقٌ لمّاحُ
أ على المسالكِ مابنتهُ يدُ التقى ... وعمادها الاعلامُ والارماحُ
واحقٌّ من يُدعى خليفةَ ربّه ... ملكٌ خلافتُهُ هُدىً ونجاحُ
كأميرِ أندلسٍ وناصرِها الذي ... افنى العداةَ حُسامُهُ السّفاحُ

ونلحظ ان المعاني الاسلامية في النص واضحة المعالم ، بينه المقاصد : (يد التقى ، الخلافة الاسلامية) ،ولذا لاينسى التذكير بمكر العدو ، وتحريض رجال الدين المسيحي لغزو الاراضي الاسلامية فيقول معرضا بهذا النوع من الاقوال والافعال :

ألقسٌّ غرّكم ليُهلكَ نسلكُمْ ... بسيوفنا إنّ افكهُ لصراحُ
كم ذا يسخّركُم ويسخرُ منكُم ... غدراً ومكراً إنّهُ لوقاحُ

وهذا التحريض البياني الشعر الذي من شانه رفع معنويات القائد وجنده كان من الاهمية العظمى بحيث جاء بعد ان طمع النصارى في ارض المسلمين ، ووصلت اطماعهم لغرناطة عاصمة الدولة الاسلامية ولكن هيهات هيهات ان تحقق اطماع الاعداء او ان ترفع راية الشر:

طمعُ الشقيّ أضلّهُ وأذلّهُ ... كلُّ المطامعِ للغبيّ فصاحُ
فبادهُم ومنوكهُم فتحٌ بدا ... وبسعدِ جدّكَ ربّنا فتّاحُ
ياامةَ الكفرانِ تغنيداً وهل ... لجفونِ أعمىً ينجلي مصباحُ؟[1]

وتردد صدى هذه المعركة عند شعراء اخرين لم يخرجوا عن الاطار المدحي، والتذكير بانتصارت المسلمين في المعارك التي قادوها في الاندلس[2] ووصل صدى المعركة الى ابن الخطيب الذي لم يكن مجرد موثق تاريخي لدول الاندلس هذه المرة بل، كان محرضا ممدوحه ابا الحجاج يوسف الاول على الاقتداء بابي سعيد في شن الحرب على اعدائه وضربهم في عقر دارهم يقول:

---

[1] الاحاطة: ٢/ ٤٣٩.

[2] ينظر: الكتيبة الكامنة: ص١٧٦، درة الحجال: ٢/٧٠-٧١.

للهِ يومُ المرجِ لابَعُدتْ بهِ أيدي الزمانِ وشفعتهُ بثانِ
صدمتهُ أحزابُ الضلالِ كأنَّما هولُ الجبالِ تَخُبُّ في ارسانِ
هَابُوا الشرى فتخاذلتْ عزماتُهم جهلُ الرعاةِ قَضَى بهلكِ الضانِ
فكأنَّهم والمشرفيةُ فوقَهُمْ نارُ القبولِ أتتْ عَلَى قربانِ[1]

اما ترى كيف وقف الشعر -محرضا ومشجعا- على انتهاك محارم الاعداء، ودك حصونهم؟ اما ترى كيف يستذكر الشاعر انتصارات امته في زمن قد تغيب فيه مثل هذه الانتصارات وتتوالى النكسات فالنكسات؟ الم يكن المكان يوما ما شاهد عيان، وواعضاً ناطقاً على هزائم الاعداء، وظفر المسلمين بهم في يوم ما ؟؟

ومن المعارك والفتوحات التي تركت صدى طيبا في شعر هذا العصر فتح ابي الوليد السلطان اسماعيل بن فرج لحصن اشكر في سنة (٧٢٤هـ)[2] ومن الشعراء الذين ادلوا بدلوهم في هذه المناسبة البهيجة، ابن الجياب قال: مهنئاً ومادحاً، ذاكراً لذلك المكان الذي اصبح مأوى الكفر والشرك:

جاهدتَ بالنفسِ النفيسةِ سابقاً مأوى المعالي في الرَّعيلِ الأسبقِ
وقصدتَ أرضَ الشركِ منهُ بعزمةٍ صبّتْ عليهم كُلَّ بأسٍ مُطبقِ
وقصدتَ أشكرَ مربضَ الكفرِ الذي قَد ضاقَ صدرُ الدينِ منه بما نقي
اثرمْ بها من غزوةٍ منصورةٍ طلعتْ على الدنيا بوجهٍ مشرقِ[3]

واستخدم ابن الاحمر ميكانيكية سلاح جديدة في هذه المعركة ، لمنع حصن اشكر الذي حاصره هو وجيشه وهذه الميكانيكية بدت حين (رمى بالالة العظمة المتخذة بالنفط كرة

---

[1] ديوانه: ص٥٩١.

[2] اشكر: حصن تابع لبسطة. ينظر اللمحة البدرية: ص٨٥، مشاهدات لسان الدين الخطيب: تحقيق: د. احمد مختار العبادي. مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية. ١٩٧٣، ص٨٧، وعن المعركة راجع نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتصرين: ص ١٠٨، تاريخ الاندلس السياسي: ص ١٣٠.

[3] استشهد ابن الخطيب ببعض الابيات . ينظر : اللمحة البدرية: ص ٨٦. ونقلنا الابيات التي استشهدنا بها هنا من الفتن والحروب واثرها في الشعر الاندلسي: ٢/٢٩٥. ونقلها د. جمعة شيخة من الاكليل للبناهي.

محماة طاقة البرج المنيع من معقله فعاثت عياث الصواعق السماوية فنزل اهلها قسرا على حكمه)[1] يقول ابن هذيل[2] في هذا كله:

وظنّوا بأنّ الرعدَ والصعقَ في السما ... فحاقَ بهم من دونها الصعقُ والرعدُ
غرائبُ أشكالٍ سَمَاهرمسٌ بِها ... مهندسَةٌ تَأتي الجبالَ فتنهدُ
ألا انها الدنيا تُريكَ عجائباً ... وما في القوىٰ منها فلابُدَّ أن يبدو[3]

ولايمكن ان تمضي هذه الاحداث دون استلهام التاريخ الاسلامي ، والتذكير باصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وجهادهم، فيقول ابن الجياب مازجا بين هذه الواقعة ووقعة الخندق التي حدثت سنة(٥هـ)[4]:

للهِ منكَ مشاهِدٌ مشكورةٌ ... عندَ الاله بمثلها لَم تُسبقِ
مِثلُ الحفيرِ بِها الذي باشرتَهُ ... فعلَ الرَّسولِ وصحبهِ في الخندقِ[5]

---

[1] اللمحة البدرية: ص ٨٥، الفتن والحروب واثرها في الشعر الاندلسي:٣/١٨٨-١٩٢.

[2] تتردد هذه القصيدة بين ابن دحيل، وابن شقر اللخمي(ت٧٣٠هـ) في اللمحة البدرية: ص٨٥، الكتيبة الكامنة: ص ٧٣، الفتن والحروب: ٢/٢٩٦، وتجدر الاشارة الى د. شيخة قد نسب القصيدة لابن دحيل ايضا ينظر:الفتن والحروب واثرها في الاشعر الاندلسي: ٣/١٩١، فناقض نفسه بنفسه. وارى انها لابن هذيل واسوق الادلة الاتية على هذا الرأى:

١- ابن هذيل اشتهر بقول الشعر والنظم فيه اكثر من اللخمي الذي عرف عنه انه نحوي عالم بالقراءات واللغة (انظر الكتيبة الكامنة: ص ٧٣).

٢-كان ابن هذيل معاصرا لاحداث هذه الواقعة، كما رافق بقية الوقائع. في حين ان اللخمي كان معتقلا في افريقية اغلب هذه الاحداث وانه مات في الطريق ببونة، ولم يعرف شيئا عن اشكر او معركته.

٣- ان المصادر الادبية قد ذكرت القصائد التي استشهد بها ابن الخطيب للخمي لابن هذيل ومن تلك القصائد قصيدته التي مطلعها:

نامَ الطفلُ النبتُ في حجرِ النعامىٰ ... لاهتزازِ الظلّ في مهدِ الخزامىٰ

إذ وردت لابن هذيل -ومن ديوانه-" السليمانيات والعزفيات" في تثير فرائد الجمان، ص ٣٢٢، ونفح الطيب: ٥/٤٩٠، فليس من المعقول ان تنسب هذه المصادر - ولاسيما ابن الاحمر الذي قال انه ادرك ابن هذيل وعاصره- قصيدته الى غيره (وفوقَ كلِّ ذي علمٍ عليم).

[3] اللمحة البدرية: ص ٨٥.

[4] تأريخ الرسل والملوك: محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ): تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف، ط٥، (د. ت): ٢/٥٦٤

[5] اللمحة البدرية: ص ٨٦.

بعد هذه الوقعة حدثت معارك عدة لم تحل من تحرير لحصـــون ومـدن احـرى اسهمت في تشجيع المسلمين في زحفهم نحو العدو، او الاحتفاظ بمدنهم التـي احتلوهـا نتيجة هذا الزحف[1].

ومن الحملات الحربية التي وجد صداها في الشعر الاندلسي على هذا العصـر ، فشل الحملة المرينية بقيادة السلطان أبي الحسن(ت ٧٥٩هـ)[2] عندما حاول اسـترجاع طريف* من بين يدي النصارى فالتحق معه جيش غرناطة ولكن، الامر ال الـى مـا لاتشتهي الانفس عندما هزم هذا الجيش، والحقت الهزيمة الشنيعة بالمسلمين ،ووقع منهم شهداء كثير كان من بينهم والد لسان الدين الخطيب، واخوه الاكبر، وحدثت تلك الحملـة في ٧/جمادى الاولى/٧٤١هـ[3]

ومن الشعراء الذين كتبوا لابن الخطيب معزيا ، متأسفا على فقده في المعركة ابـو محمد عبد الله بن ابراهيم الازدي(ت٧٥٠هـ) [4] الشاعر الغرناطي، فقال في التعزية:

خَطْبٌ الـمَّ فـاذهبَ الأخَ والأبَـا رغمـاً لأنـفِ شـآء ذلـكَ أو أبَـى

ثم قال يصف هذه الحملة الفاشلة، ويومها الكئيب الذي خلف هذا الجـرح علـى ابـن الخطيب وغيره:

---

[1] ينظر: ديوان ابن الخطيب: ص ٢٤٤-٢٤٥، ص ٥٨٥-٥٨٧، الكتيبة الكامنة: ص ١٩٨-١٩٩، اللمحة البدرية: ص ١٠٨-١٠٩، الاحاطة: ٣/٤٤٣-٤٤٧.

ديوان ابن زمرك: ص ١٥٢، اعلام المغرب والاندلس في القرن الثامن الهجري. وهو (كتاب نثير الجمان في من نظمني واياه الزمان): ابو الوليد اسماعيل بن يوسف بن الاحمر الغرناطي (ت٨٠٧هـ) حققه وقدم له: د. محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة- بيروت، ١٩٧٦، ص ١٦٥-١٦٨.

[2] اخباره ومعاركه في : اللمحة البدرية: ص ١٠٥-١٠٦، اعمال الاعلام: ص ٣٠٤-٣٠٥، روضة النسرين:ص ٢٣، مصرع غرناطة: ص ١٧-٢٠.

* طريف: من المواقع الستراتيجية في اول بحر المحار المسمى بالزقاق، وهي تحتل موقعاً عسكرياً واقتصادياً مهماً.ينظر : الروض المعطار :ص٣٩٢

[3] ينظر: نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين: ص ١١٧، مصرع غرناطة: ص ٦٠ قال عنها: (انهـا كربت مأساة العقاب)، تأريخ الاندلس السياسي: ص١٣١، يوسف الاول ابن الاحمر سـلطان غرناطـة: د. محمد كمال شبانة، لجنة البيان العربي- القاهرة، ١٩٦٩، ص ١٣٤، الشعر الاندلسي في عهد بني الاحمـر – صور جهاديه بطولية: ص ٢٥-٢٦.

[4] ابو محمد عبد الله بن ابراهيم بن عبد الله الازدي الغرناطي المعروف بابن المرابع من بلش مالقة، تـوفـي بالطاعون الجارف اواخر سنة (٧٥٠هـ). ينظر: درة الحجال: ٢/١١٩، نفح الطيب: ٥/١٢.

لاكانَ يومُها الكريهُ فكمْ وكمْ فيهِ المجلّي والمُصلّى قَد كبا
يومٌ لَوى ليّانَهُ لم يبقَ للـ اسلام حَدَّ مهندٍ إلّا ثبا
وتجمّعتْ فيهِ الضلالُ فقابلتْ فيهِ الهُدىٰ فتفرّقت أيدي سبا
آهاً لعِزِّ المحتدين صرامةً لاذَلّ عزّ المهتدينَ واذهبا
دهمَ المصابُ فعمَّ إلّا أنَّهُ فيما يخصُّكَ ما أمرَّ وأصعبا[1]

اما ابن الخطيب فقد شارك الازدي في نفث سمومه، وتشاؤمه ودعاه على يوم طريف لما وقع فيه من خطب عظيم تركه في حسرة والم بعد ان فقد اسرته في هذا اليوم، فيقول فيه.

لا كانَ يومُكَ ياطريفُ فطالمَا أطلعتَ للآمالِ برقاً خُلّبَا
ورميتَ دينَ الله منكَ بفادحٍ عمَّ البسيطةَ مشرقاً أو مغربا
وخصصتني بالرُّزءِ والثكلِ الذي أوهىٰ القوي منّي وهَدَّ المنكبا
لولا التعللُ بالرحيلِ وأنّنا نُنضيي من الاعمارِ فيها مركبا
لجريتُ طوعَ الحزنِ دونَ نهايةٍ وذهبتُ من خلعِ التصبرِ مَذهبا[2]

ونرى ابن هذيل فقد تقبل هذه الفاجعة بروح ايمانية، وتسلح بالصبر على فقد الاهل والاحبة مادامو هناك في جنة الخلد كما صورها قوله:

تجلّتْ عروساً جنةُ الخلدِ في الوغىٰ تقولُ لأهلِ الفوزِ: لا يُغلِكُمْ مَهري
فكانَ من القومِ الذينَ تبادروا الى العالمِ الأعلىٰ مع الرفقةِ الغُرِّ[3]

وعلى الرغم من ان ابن الخطيب خاطب ابن الاحمر بعين الرضا، ومدحه واثنىٰ على موقفه[4] في هذا اليوم المبكي الوجع، وانه –ابن خطيب– قد نعم بقرب ووصل بعد جفوة[5]، الا انه مافتأ يدون هذه المعركة بجزع وبكاء، واسما ذلك المكان بانه شر

---

(1) نفح الطيب: ٥/١٣.
(2) ديوانه: ص٢٥١.
(3) نفح الطيب: ٥/١٨.
(4) ينظر، ديوانه: ص٤١٠.
(5) ينظر: م. ن : ص ٥٧٠.

بقعة واسوء موقع لما حدث فيه ، وهو امر طبيعي لان(المكان معرض لشتى المؤثرات المميتة التي تفرض هيمنتها على الشخصية)[1]يقول ابن الخطيب في ارجوزته:

ونـزلَ المولـى علـى طريـفٍ في خـبرٍ يُغنـي عَـن التعريـف
وقُضيـتْ عليـهِ فيـها الوقعـةْ ياشـرَّ ماجنَتـه تلـكَ البقعـةْ[2]

واذا ما انتقلنا الى القرن التاسع الهجري لاستكناه انماط المكان الحربي ودلالاته الموضوعية والفكرية فستتلقانا ثلاثة دواوين شعرية، ظهرت في هذا العصر، وهذه الدواوين تعود الى:

١- ديوان يوسف الثالث (ت ٨١٩هـ): وهو شاعر ملك، حكى لنا اوصاف معاركه واحداث غزواته.

٢- ديوان ابن فركون (ولد حوالي ٧٨١هـ): واغلب اماديحه في السلطان يوسف الثالث[3]، وكمية الشعر الحربي وفيرة في شعره.

٣- ديوان عبد الكريم القيسي الاندلسي(ق٩هـ) : وهو الوثيقة التاريخية العظمى في سقوط المدن والحصون والقلاع في اخر قرن عاشت فيه الاندلس عربية مسلمة.

ديوان يوسف الثالث لايخلو من وقائع ملموسة قادها الامير الشاعر بنفسه ابان جبل الفتح الذي قيلت فيه معظم القصائد التي ستكون محور حديثنا عن شعر يوسف الثالث، ومادحه ابن فركون. اما شعر الاول منهما فغالبا ياتي ممتزجا مع الفخر، فلنظر قصيدته التي قال عنها: (من منظومنا على اثر استفتاحنا جبل الفتح في اول شهر جمادى الثانية عام سبعة عشر وثمانمائة):

---

[1] بناء المكان ودلالته في رواية الحرب: ص ٥٣.

[2] رقم الحلل في نظم الدول: ص ٣٠٩.

[3] ينظر: المقدمة الضافية التي وضعها د. محمد بن شريفة لديوان ابن فركون: ص ١٢-٩٢.

في الملحدينَ عداتنا لنجازِ حيثُ الحقيقةُ لم تدنْ بمجازِ
عنا الكتائبُ دائماً انجادُها متظافرُ الا غراءِ بالايعازِ
ولنا المنابرُ أصدرت دعواتها بعؤارفِ الاعلاءِ والاعزازِ
خطباؤها اهلاً بهم قد أعلنوا ببلاغةِ الاطنابِ والايجازِ
وطريقُنا إلّا هُدىً لحلّةِ طارقٍ لم يدرِ إلّا عزمةَ الاجهازِ[1]

وفي قصائده التي اتربت حروفها بمعاركه التي خاضها لم تخل من فخر وهمة عالية في سبيل ارتقاء المجد وطلب العلا ونيل الامال التي هو جدير بنيلها، وقادر على بلوغها كقوله

علىٰ حين لم تُغنِ الرياضُ بزخرفٍ ولا الدَّوحُ قَدُّ للغصونِ أنيقُ
ألفنا بها الرمضاءَ والشمسَ جهرةً لتُدرك آمالٌ لنا وحقوقُ
كبارُ نفوسٍ هَمُّها الهمةُ التي تحملها مالا تكادُ تطيقُ
أيا راكبَ الوجناءِ في طلبِ العُلىٰ سيكفيكَ عزمٌ في العلاءِ عريقُ[2]

ونجد مثل هذه الروح الكبيرة، والنفس البطلة حتى في قصائده التي قيلت في رثائه للمدن وللحصون التي سقطت على عهده بالملك، فعندما سقطت (لتقيرة سنة (٨١٣هـ)[3]. لم تثنه عزيمته، عن التقديم لمخمسته التي قيلت في هذه المدينة بقوله: (فسار يشرح هذه الحال مسوغا ضعف سلطته في اغلب الاحيان)[4]، وفيها يعترف اعتراف البطل الجريح بالهزيمة. وهذا الاعتراف ليس من باب التفجع، وانما هو من باب التأسي، وفيه اقرار بان الحرب سجال: يوم لك ويوم عليك، وفيه ايمان ايجابي بمفهوم القضاء والقدر...)[5] لنسمعه ينشد في ذلك:

---

[1] ديوانه: ص ١٠٩.

[2] م. ن: ص ١٨٤، وانظر: ص ١٢١-١٢٢، ص ١٣٢-١٣٣، ص ١٣٤-١٣٦، ص ١٥٦-١٥٧.

[3] (لتقيرة): إحدىٰ مدن الاندلس القديمة تبعد عن مالقة حوالى ٦٠ كلم (هامش ٢٢٣) ينظر: معيار الاختيار: ص١٢٧. راجع عن اخبار هذا (البحر) تاريخ الاندلس السياسي: ص ١٣٢-١٣٣. وخلا ديوان ابن فركون من ذكر لهذه المعركة.

[4] ديوانه: ص ١٨٩.

[5] الفتن والحروب واثرها في الشعر الاندلسي: ٢/٣٢.

خليليَّ مَـــهلاً فالزمـــانُ كمـــا تَـــدري ولابُـــدَّ مـــن يُســـرٍ علـــىٰ أثَـــرِ العُســـرِ
فمهما دَهَىٰ صحوٌ فلابُـــدَّ مـــن قطـــرِ ومهما دجـــا خطـــبٌ فلابُـــدَّ مِـــن فجـــرِ

ولُطفُ صُنعِ اللهِ رائعةُ البشرِ

هو الدهرُ ذو الوجهين فعـــلُ منـــافقٍ واحكامُـــهُ تجـــري بكـــــرهِ الخلائـــــقِ
فصبراً وتسليماً لمـــا شـــآءَ خـــالقي فلابُـــدَّ مـــن ظفـــرٍ ونصـــــرٍ موافـــــقِ

علىٰ رغمِ من يأبىٰ الظهور علىٰ الكفرِ

علىٰ العدلِ يجري حكمُـــهُ وقضـــاءُهُ ومنّـــا لـــه التســـليمُ فـــي مـــا يشـــاؤُهُ
ومن كانَ بـــالحقِّ اليقيـــنِ اهتـــداؤه رأىٰ النصـــرَ خفّاقـــاً عليـــــهِ لـــواؤهُ

وسُحقاً لباغٍ حادَ عن علمِ النصرِ[1]

لقد خلق الشاعر من نفسه ذاتاً اخرىٰ، واخذ يبادلها الحديث عما جرىٰ، بانه قضاء الله سبحانه- فوق كل قضاء ، وقدره اجدر ان يحل في نفس راضية مطمئنة بانه مـــا حدث لها هو الخير مهما كلف الامر، ولابد ان يجعل الله بعد عسر ميسرة، فـــهذا هـــو حال الدهر، يوم يسؤونا ويوم يسرنا.

اما ابن فركون فقد خصص جل شعره الحربي في اماديح هذا الامـــير-يوســـف الثالث- وغالبية المكان الذي تحدث عنه في شعره هو جبل الفتح -جبل طارق- الـــذي رابط امامه الممدوح ردحا من الزمن، وعلّ المسرد التالي يبين لنا كمية الشعر الحربـــي ونسبته الى بقية اشعاره:

عدد ابيات الديوان	الشعر الحربي	النسبة المئوية
٤٥٢٣	١٦٥٠	٪٣٦,٤٨

يتمتع شعر ابن فركون بلغة جزلة ، والفاظ منتقاة لتدل على المعاني بصورة دقيقة، وخيال جذاب مبتكر وعناية موسيقية صوتية بالايقاعين الثابت والمتحرك فهو شعر يـدل

[1] ديوانه :ص٧٣.

على ثقافة صاحبة اللغوية، وسعة صوره، وحسن اهتمامه بالتشكيل الايقاعي لنصوصه الشعرية، وعل اطلالتنا هنا على شعره الحربي وهو كثير كافية لنبرهن على صحة قولنا.

قال ابن فركون في تقديم احدى قصائده المدحية (ولما دخل المسلمون من اهل رندة صخرة عناد اعادها الله واستأصلوا من وجدوا بها قتلا واسارا الا قليلا منهم، اعتصموا بقصبتها وورد البشير بذلك قلت اهنئ مقامه الكريم للعين وهي من المرتجلات في يوم الاربعاء الرابع من لذي الحجة عام اثنتي عشر وثماني مائة)[1]:

هو الفتحُ قد أجرىٰ لديكَ جيادَهُ ... هو الفتحُ قد القىٰ اليكَ قيادَهُ

أما هذه بكرُ الفتوحِ التي بها ... اتىٰ الدهرُ يدني العزّ منكَ بعادَهُ

أما هذه في الخلقِ ديمةُ رحمةٍ ... بها اللهُ قد حبا الوجودَ وجادَهُ

هي الصخرةُ الشماءُ قد حلّها الهُدىٰ ... فعمّ زُبىٰ معمورها ووهادَهُ

وطهّر معناها من الشركِ وانثنىٰ ... يكيدُ بها التوحيدُ من كانَ كادَهُ

وسيفُك سيفُ اللهِ اذ حلّ ربعها ... اباحَ بهِ جمعَ العِدىٰ وابادَهُ

وجندُكَ جندُ اللهِ قد جالَ جولةً ... يسلُّ ظباهُ أو يهزُّ صعادَهُ[2]

هل ترى كيف ان الابيات تسير بثقل مجلجل، ونفس حماسية الى القافية التي اختار لها حرفا شديدا مجهورا هو الدال ثم وصله بالماء المصمومة لتزيد الضمة من قوة الحرف الماضي وتعلي فخامته الموسيقية داخل النص عموما. علما ان القصيدة مرتجلة، وفيها لايتوقف الشاعر عن القول، بل ينهمر شعره انهمارا على الممدوح وتتدفق كلماته تدفقا مأنوساً[3]وهذا ما اراده ابن فركون حين اتى على خاتمة النص بتقديم العذر ليوسف الثالث اذ قصر عند الشعر، لاسيما وانها قصيدة ارتجلت في ظرف، مفرح، كما ان

---

[1] ديوانه: ص ١٥٦. وصخرة عناد: وقيل صخرة عباد من احواز رندة(هامش المحقق)،حصن الصخرة يقع قرب رندة على الحدود الغربية لمملكة غرناطة . ينظر :نهاية الاندلس :ص١٣٨،ولعلّه هو الحصن الذي يسميه ابن خلدون بصخرة عباد او عياد . ينظر : العبر وديوان المبتدا والخبر : عبدالرحمن بن خلدون (ت٨٠٨هـ) ، دار الكتاب اللبناني -بيروت ، ١٩٦٨، ٤٢٤/٧. وفيه التقىٰ ابو يوسف المريني بالفونسو العاشر ملك قشتالة وقد جاء يستصرخه لخروج ابنه (شانجة) عليه . الاستقصا لاخبار المغرب الاقصىٰ:٥٥/٣.

[2] ديوانه: ص ١٥٦-١٥٧.

[3] ينظر: العمدة: ١٨٧/١.

اوصاف الممدوح مما اعيت ابن فركون وغيره، لعظيم شمائله وجميل اخلاقه ، وكبير افعاله ، فيقول:

وخذها علىٰ أنّ البديهةِ لَم تزلْ تردُّ البليغَ اللفظ عما ارادَهُ
واوصافُ مولاتا الخليفةِ يوسفٍ تبكّتُ قسّاً حيثُ لاقىٰ إيادَهُ
فلا زالَ يامولاي عهدُكَ سافِراً يجودُ فتستجدي العفاة عِهادَهُ[1]

ان قراءتنا لنصوص ابن فركون الحربية واماديحه لتخبرنا بالمزيد من هذا الاحكام اللغوي والصوتي ، وشدة الاعتناء بمفاصل القصيدة، فغالبا ما تكون قصائده لوحة واحدة فهي بدون مقدمات، كما انها تركز على الحدث وتبنى عليه، فمطالعه-مثلا- جميعها مصرعة، وفيها ما يهتم الشاعر به من تقديم المسرة والفرحة الى صاحب النصر الذي من اجله انشأ وفي مدحه انشد والمطلع كما نعلم هو (اول ما يقرع اذن السامع فيشرح له صدره، وتهتز نفسه، ويشعر باريحية وبهجة فيتشوق لما ياتي بعده)[2]وكذلك كانت مطالع ابن فركون، في مثل قوله:

هُنّئتَ يامولى الورىٰ مقدما اطلعتَ للسعدِ بهِ أنجُما[3]

وقوله:

أناصرَ دينِ اللهِ هنّئته صُنعا بشائرَهَ تُهديكَ مايملأُ السمعا[4]

ومثلما استخدم القافية المطلقة ، استخدام القافية المقيده وزاد الجناس في بعض منها التصريع قوة كقوله مادحا:

سَلْ ركابَ الحمىٰ غداةَ استقلتْ من حَوتْ في رحالِها واقلّتْ[5]

---

[1] ديوانه: ص ١٥٨.
[2] العمدة: ٢١٨/١.
[3] ديوانه: ص ١٦٥
[4] م.ن،: ص ١٦٢.
[5] م.ن:ص ١٦٤.

ومثلهما استخدم القافية الموصولة بالهاء في مطالع قصائده الحربية كقوله مهنئا بالفتح ومادحا:

ناصرَ الدين خُذْ اليكَ بشارَهْ قد كستها الفتوحُ أبدعَ شارَهْ[1]

واذا تركنا المطالع لندخل جسد القصيدة، فنراودها عن نفسها بغية الكشف عن المزيد من الصفات الاسلوبية المتقنة في شعر ابن فركون وجدناها لاتقل اهمية عن العناية الموسيقية، او العناية بمطلع القصيدة، فهو – بالنفي والاستثناء –يقرر لنا طائفة من خصائص ممدوحه، واوصافه:

وما راقَ نظمُ الشعرِ إلّا لانّ غَدتْ لناصرِ دينِ اللهِ فيهِ المدائحُ
وما اشرقَ الا صباحٌ إلّا لانْ بدتْ عَلىٰ الشمسِ من وجهِ ابن نصرٍ ملامحُ
وما راعَ نسرَ الشهبِ الا جمالُهُ فَحُثَّ جناحٌ منهُ للغربِ جانحُ
وما ارتاعتِ الشهبانُ إلّا لانّهُ تعالىٰ لَهُ قدرٌ علىٰ الشهبِ طامحُ
وما رعشتْ إلّا لتأخذَ حذرَها وقَد راقَ صُبحٌ من مُحيّاهُ لائحُ
وما اعتزّ دينَ اللهِ إلّا لانّهُ يدافعُ احزابَ العِدَىٰ ويكافحُ
وما سيفهُ إلّا دمُ الكفرِ سافحُ وما حملَهُ إلّا عن الذنبِ صافحُ[2]

والذي يبدو ان النفي والاستثناء لم يؤديا حقا من حقوق الممدوح، فاتبع ابن فركون جملة اخرى من المدائح والشمائل التي تخص افعاله الحربية عن طريق المناحي الاسلوبية، والوسائل اللغوية في نصه الشعري، فحرف الواو العاطفة التي هي ام باب العطف، واولاها اهمية في الاستخدام[3] يودعها ابن فركون ابياتا تعقب المطلع لتميز طائفة من سمات ممدوحه من عزم، وجود،.... هاك قوله:

---

[1] ديوانه: ص ١٦٦.

[2] م.ن: ص١١٠-١١١

[3] ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني: حسن ابن ام القاسم المرادي (ت٧٤٩هـ)، تحقيق: طه محسن ، الموصل –١٩٧٦، ص ١٨٨.

هُدىً تجلّـى مـن سـناهُ المشـارقُ كمـا لاحَ صُبـحٌ أو تطلّـعَ شـارقُ
وعزمٌ كـأنَّ الـروعَ سُـلّتْ سـيوفُهُ ونـابتْ عـن الاغمـادِ فيـهِ المفـارقُ
وجـودٌ كـأنَّ البحـرَ لـذّ مذاقَـهُ أو السـحبُ يـهمي جودُهَـا المتدافـقُ
وذكرٌ كـأنَّ الـروضَ هَـبَّ بعرفـهِ نسـيمُ الصبـا فارتـاحَ للطيـبِ ناشـقُ
وغُرٌّ جيادٍ في مدىً النصـرِ ترتمـي إلـىٰ مثلـها يُعـزىٰ الوجيـهُ ولاحـقُ
وبيضٌ ظبـىً مـهما اثـارَ جلادهَـا سـحابَ قتـامٍ فـهي فيـهِ بـوارقُ
وسُمر قَنـاً لـولا الأَسـنةِ لاختفـتْ بليـلِ عجـاجٍ هُـنَّ فيـهِ شـوارقُ[1]

ومثل هذا الربط بين المطلع وباقي الابيات يتجلى بشكل اكبر وانسج عنـد اسـتخدامه الجملة الاسمية، في قصيدة: قالها فيه- الممدوح- وهو قريب عهد بالاياب من فتح جبل الفتح، فيقول:

هـذي الخلافـةُ قـد ملكـتْ قيادَهُـا واجلـتَ فـي طلـقِ السـعودِ جيادَهـا
هـذي ملائكـةُ السـماءِ تـنزّلتْ بـالنصرِ تنجدُ فـي الوغـىٰ أجنادَهـا
هذي البشـائرُ قـد رفعـتَ لواءهَـا واقمـتَ بـالصنعِ الجميـلِ عمادَهـا
هـذي العزائـمُ كلمـا اعملتَـهَا أبعـدتَ فـي شـأوِ العُنـىٰ آمادَهـا
هـذي الكواكـبُ تسـتقلُّ سـعودُهَا لـكَ حيـثُ تطلـعُ للعِـدىٰ اضدادَهـا
هذي الكتائبُ كلَّمـا احتـدمَ الوغـىٰ أرسـلتَ مـن غـابَ القنـا آسـادَها
هذي الجنودُ أطلّت في سحبِ النـدىٰ إنهاكـها والـىٰ العِـدَىٰ إنـهادَها
هذي العِدىٰ أمّت نواكَ علىٰ النـوىٰ لمّـا نويـتَ جلاءَهـا وجلادَهـا
هذي الخلائفُ منـكَ تبغـي نصرَهـا فـي المعضـلاتِ وترتجـي إنجادَهـا[2]

وإذا ما اردنا ان نجمل القول في هذه البنىٰ التركيبية للنص، وجدنـا ان بعضـها يقوم علىٰ اسس من التلاعب اللفظي، والتزويق في الجمع بين الافعال لاسيما وقد انتهت القافية بمثل هذه الافعال[3]، وبعضها قام على استيعاب حروف المعجم فـي النظـم[4]،

---

[1] ديوانه: ص ٣٠٧.
[2] م.ن: ص ٣٠٧.
[3] ينظر: م.ن: ص ٣٢٩.
[4] ينظر: م. ن: ٢٣٣-٢٣٥.

وجاءت في هذه الاماديح الحربية المقطعات[1]، كما جاءت المخمسات [2]، كل ذلك بدل دلالة قاطعة، على ما قدمناه من قول من ان ابن فركون يحسن نظم الشعر ويبرع فيه القول لاسيما في اماديحه التي تدخل في الشعر الحربي الذي صرف لاجله غالب شعره، وصفوة قوله . اما عن الصورة الفنية فهي لاتبعد عما اطنبنا فيه القول، فهو اذا ما وصف ملتقى الحرب، ومكان الوغى احاط بالصورة من كل جانب، عن طريق تكرار الاداة، وما يفتحه هذا التكرار من الاتيان بمشبهات جديدية ومبتكرة في سبيل خدمة المشبه به الاول. يقول مصورا عظمة هذه الحرب، وعظمة فارسها- الممدوح- فنيا :

فترتاحُ خيلُ الله للملتقى الذي ... يجيبُ بهِ داعي الهُدى ويجيلُها
كأنّ بالجيادِ الغُرّ ما اصمتَ العِدى ... ولاجاوبَ التكبيرَ إلّا صهيلُها
كأنّ بالظُّبا ما انطقَ الهامَ في الوغى ... ولاأخرسَ الناقوسَ إلّا صليلُها
كأنّ بالقنا الخطي ما قصرَ العدى ... ولاقصّرَ الأعمارَ الا طويلُها
كأنّ بالبنودِ الحُمرِ تقترعُ الربى ... كما قَد جَلا حُمر السحابِ اصيلُها
كأنّ ببلادِ الشركِ يحتلُّ أرضَها ... فيعتزُّ بالفتحِ المبينِ ذلولُها
بكُلّ كمّي العجاجةِ سيفُهُ ... يُجلّي دياجي أفقِهِ ويُحيلُها
خفيفٍ علىُ متنِ الجوادِ وعزمُهُ ... له وطأةٌ يكفي العدوَّ ثقيلُها[3]

اما عن جبل الفتح[4]فقد تناثر وروده بشكل ملفت للنظر حتى في القصائد التي لم تبرز الجانب الحربي، ولعل الناظر في ديوانه ليرى كيف تشكل المكان في النصوص من الشعرية الكثر، وكيف احسن ابن فركون استخدامه كما احسن في الامور الفنية الاخرى التي ذكرناها. والابيات التي سنذكرها الان وهي خاتمة نص نظمه بطلب من الامير يوسف الثالث عند نزوله بحصن المُنلين[5] فيها من الاحاطة بسمات هذا الحصن

---

(1) ينظر: ديوانه: ص ٢٣٩.

(2) ينظر: م.ن.. ص ٢٥٠.

(3) م. ن: ص ٢٢٢.

(4) انظر: م.ن: ص ١٦١، ص ١٦٥، ص ١٦٩، ص ١٨٠، ص ١٨٤-١٨٥، ص ٢٠٩،ص ٢٢٧. ٢٥٩.

(5) اشار د. ابن شريفة انه حصن المكّين وان ما ورد في الديوان، ص ١٣٩، وفي نفح الطيب ٥١٨/٤٠، تصحيف واضح.

المنيع الذي وسمه بانه جبل، وشمول للمكان بتلك الصيغ الادائيـــة، وهـــاتيك الوســائل الفنية، لنسمع الابيات، اخذين بالحسبان الجبل الحصين وكيف اراد له ان يكون:

لَدىٰ جبلٍ بالشّـــهبِ نيطـتْ هضابُـهُ ... فصـافحتِ الكـفُّ الخضيـبَ نجـــودُهُ
أشـمَّ بعيـدَ الصيـتِ بـادٍ وقـــارُهُ ... ومرتاحـــــةٌ اعلامُـــهُ وبنـــــودُهُ
تَمـرُّ بـهِ هـوجَ الرّيـاحِ فَتَنثنـــي ... وقـد سَـدَّ مسـراهَا الرفيـعُ صعـــودُهُ
تَـرومُ سـمُوّاً فوقَـهُ وهـي دونَـهُ ... فتقصـــرُ عمّـــا تشـــتهي وتُريـــدُهُ
دعوتَ لَـهُ أهـلَ الجـهادِ فـاسطعوا ... كمـا زارتِ البيـتَ العتيـــقَ وفـــودُهُ
ودارتْ حواليـهِ الجُنـــودُ كأنّـــها ... وشـاحٌ علـىٰ خصـرٍ يـروقُ فريـــدُهُ
تَحلُّ كأسـرابِ القطـا منـهِ مـوردٌ ... يطيـــبُ بجـــدوىٰ راحتيـــكَ ورودُهُ
بمشرعهِ أرتـاحتْ عواليـك شُـرّعاً ... تـــردُّ العَـــدوَّ المعتـــدي وتـــذودُهُ
فما هـــو معنـــيٌّ حَـلَّ مغنـاهُ أهلَـهُ ... ولكنّـــهُ غيـــلٌ حمتـــهُ أســـودُهُ[1]

ان الايحاء الذي جلبه حسن التعليل بقوله: (ولكنه غيل حمته اسوده)، كثف الصور السابقة، وادارها في مصب واحد هو حصانة هذا المكان، وانه ليس من السهولة ولوجه، والتمركز فيه الا عن طريق شجعان، مافتأوا يعرفون ويـــلات الحـــروب، ونتائجـــها، واساليبها وهم لايخرجون عن اوصاف الجنود والذين ذكرهم، وعرف بهم قبـــل هـــذا التحويل في خاتمة النص.

ولم تكن سمات الامكنة الحربية، كالمنعة، واقتحام الجيش، وسوح الوغى وديارات الهيجاء، هي التي وردت في نصوص ابن فركون الشعرية بل ذهب ليجلـــب التفـــاؤل، وليعمم ظاهرة نزول الغيث والامطار على المكان الذي زاره الممدوح او حل فيه فـــهذه مالقة(حرسها الله وقد تدارك الله الوجود برحمته واسترسلت الامطار بعد حلول ركابـــه العلي بها اثر قحط اصابها وجهد عظيم ترابها)[2]، يقول:

---

[1] ديوانه: ص١٤٢.

[2] م. ن: ص ٢١٠.

وحلّ مالقـــة والنـــاسُ قـد ينسـوا ... مـــن رحمـــةٍ عنـــهمُ ماضـاقَ واســـعُهَا
اضحتْ لديها نفوسُ الخلـــقِ خائفـــةً ... لا يـــهتدي لسـبيلِ الأمـــنِ جازعُـــهَا
قد او بقتهُمْ خطاياهُمْ وليـسَ سـوى ... جـهادهِ فـــي ســـبيلِ اللهِ شـــافِعُهَا
صنـائعُ اللهِ لمّـا حـــل ســـاحتَها ... فضـلاً بـها قـد حبـاه اللهُ صانعُـــهَا
فاشـرقتْ أوجـهُ البشـرىٰ بناشـئةٍ ... مـن الغمـامِ قـد انـــهلّتْ مدامعُـــهَا
حيّا الحَيـا وجفـونُ الزهـرِ نائمـةً ... والآن لايـــألفُ الإغفـــاءَ هاجعُـــهَا
لله نـــاضرةً منـــها ونـــــاظرَةً ... تنبّـهتْ بعدمـــا أغفـــتْ هواجعُـــهَا
هـذي بواسـمُها رقّـت نواسـمُهَا ... هـذي منازلُـــهَا رقّـــتْ منازعُـــهَا
خيـلُ النواسـمِ لاتثنـي اعنتَـــهَا ... عَن الروابـي التـي راقـتْ روائعُـهَا[1]

وبعد؛ ففي الديوان وثائق تاريخية، واماديح كثيرة، وامكنـــة مرصـــده، واخـرى مستوحاة من الفاظ البيت الشعري اومن صوره، او من موسيقاه. انها ثقافة عميقة لشاعر شهد مرحلة تاريخية حاسمة في الاندلس، ومن ثم فهو -الشاعر- جدير بان يوضع تحت عدسة النقد الادبي الحديث، تركيبا وصورة وصوتا.

واذا ما انتقلنا اخيرا الى ديوان القيسي اخر الشعراء اصحاب الدواوين الذين عاشوا عصر غرناطة، وشهدوا سقوطها سقوط الاندلس جميعا، وجدنا ان الامكنـــة الحربيـة توزعت في قصائده على جذمين اثنين:

الجذم الاول؛ يشمل المعارك التي شهدها، ودونها شعرا، مثـــل معركـــة حصـــن اللقون، ومعركة لورقة وهما مما سنحدث عنهما الان.

الجذم الاخر؛ يمثل سقوط العديد من المدن الاندلسية، وهو مما سنترك الحديث عنه الى الفصل الثالث.

وقعت معركة حصن اللّقون سنة (٨٣٦هـ)[2] وفيها سقط هذا الحصن الذي بعـــد من اهم حصون مدينة وادي اش[3] على يد القائد القشتالي جو مث دي ريبـــيرا،وفـــي

---

[1] ديوانه: ص٢١٢.

[2] ينظر،البسطي اخر شعراء الاندلس: ص١٦٧، الشعر الاندلسي في القرن التاسع الهجري: ص١٩٧. الفتن والحروب واثرها في الشعر الاندلسي ٣٢٢/٢.

[3] ينظر: الفتن والحروب واثرها في الشعر الاندلسي: ٣٢٢/٢، الشعر الاندلسي في القرن التاسع الهجري: ص١٩٧.

مقطوعة عبد الكريم القيسي التي قالها في سقوط هذا الحصن (يرى الحرص على المراكز الاسلامية في الاندلس من اوجب الواجبات ،بل هو حق من حقوق الله يجب صونه والدفاع عنه، ومن السفاهة ان تسقط هذه المراكز بيد النصارى)[1] يقول القيسي في سقوط هذا الحصن:

يَـاأهلَ وادي الآشـي لادرَّ درُّكُـمُ ولابرحتُـمْ لقـيٌّ للكـربِ والكمـدِ
ضيّعتُمُ سـفهاً حصـنَ اللّقـون ولـمْ تُراقبـوا فيـه حـقَّ الواحـدِ الصمـدِ
حتّىٰ حواهُ العِدىٰ غدراً وصـارَ لـهمُ لغزوكُـمٌ عُمـدةٌ مـن أفضـلِ العمـدِ
فاستشعروا إذ أضعتُـمٌ فيـهِ حزمكُـمَ والجِدَّ قربَ انقضـاءِ الوقـتِ والأمـدِ[2]

فالقيسي هنا يحمّل اهل وادي اش مسؤولية سقوط هذا الحصن ويرى ان استيلاء العدو عليه ما كان ليكون الا نتيجة التهاون والاهمال من قبل اهل المدينة. وتفوح من ابيات القيسي الماضية رائحة الشر التي تفيد القول بان الحدث المؤدي الى سقوط الاندلس بدأ يسير بسرعة، وان النهاية قد قربت، فلم تكن غرناطة وبقية المدن التي بحوزة المسلمين عن هذا التهاون والاهمال ببعيد.

اما موقعة لورقة فقد جرت احداثها سنة(٨٥٦هـ)[3] وفيها كسر جيش المسلمين واستشهد نخبة من قادتهم، وان سكتت المصادر التاريخية العربية عن تدوين هزيمة المسلمين فلون المادة الشعرية التي رددت صدى هذه الوقعة ايدت الرواية النصرانية ، ووافقتها فيما تعرضت له البلاد العربية من قسوة وويل وثبور ومخمسة القيسي الاتية لتكشف لنا عن عظيم هذه المأسي، وكبير وقعها في النفوس والبلاد. يقول:

لِمصـابِ أندلـسٍ تصـوبُ الأدمـعُ ولِمـا جَـرىٰ فيـها تـذوبُ الاضلـعُ
فلَـها مـعَ الاعـداءِ حـالٌ تفـزعُ تقضي بحسـرةِ مَـن يَـرىٰ أو يسـمعُ

وتكادُ مهجتُهُ لهُ تَتصدعُ

---

[1] الشعر الاندلسي في القرن التاسع الهجري: ص١٩٧.

[2] ديوانه: ص ١١٣، البسطي اخر الشعراء الاندلس: ص١٦٧-١٦٨.

[3] ينظر : البسطي اخر شعراء الاندلس : ١٧١-١٧٢ ، الشعراء الاندلسي في التاسع الهجري :ص١٩٦، الفتن والحروب واثرها في الشعر الاندلسي :٣٢٣/١.

جارَ الزمـــانُ علـــىٰ جميـــعِ جهاتِـــها فابـــاحَ حُرمـــةَ أهلِـــها لعُداتِـــها
اتـــرىٰ الا لَـــهُ يُقيلـــــها عثراتِـــها ويزيـــلُ مـــا هـــيَ فيـــه مـــن غمراتِـــها

بدنوِ نصرٍ بالفتوحِ مُشفَّعُ

فلقـــد أحـــالَ عدوّهـــــا احوالَـــــها ومـــن الخطـــوبِ أذاقـــــها اهوالَـــــها
وافـــاضَ فـــي إقطارِهـــا إذلالَـــــها لَمَّـــــا ابـــادَ بلورقـــــــة ابطالَـــــها

يومَ العروبةِ* كانَ فيهِ المصرعُ[1]

ولا يحمّل القيسي جيش المسلمين هذه الهزيمة، بل؛ بالعكس كان يرى من سقط منهم في ميدان المعركة او من اسر بيد العدو شهداء ابطالا جديرين بكل رثاء واطراء ماداموا قد اوجعوا العدو،واثخنوا فيه الجراح، يقول في هذا الجيش:

ذهبَ الجميعُ مجاهدين كمـــا ابتغـــوا وحووا هُناكَ مـــن الشـــهادةِ مـــا حَـــووا
مـــاذا نكَـــوا اعداءَهـــم مـــاذا نكَـــوا ولرُبّمـــا مُنـــهمْ أُســـارىٰ مـــا افتـــدوا

كَم أمرضوا مِن خاطرٍ كَم اوجعوا !!

ولا شك في ان هذا التخميس يذكرنا بتخميس يوسف الثالث الذي استشهدنا بأبياته سابقا، (وهو اطول من تخميس شاعرنا واجود نظما ولكنه دونه حماسته واقل منه اثرا، وتكمن قيمتهما معا في تسجيل حادثتين من حوادث تاريخ مملكة غرناطة الاخير الـذي فقـدت روايته العربية ولا يعرف منه اليوم الا ما يوجد في المصادر المسيحية)[2].

في كل ما قدمنا من قول ووصف للمكان الحربي وسماته وانماطه، نامل ان قـد برزنا اثر البيئة على هذا الشعر، واثر اماكن الحروب والمعارك على احاسيس الشـاعر وعواطفه ومن ثم في نتاجه الادبي ، واظن ان الامر كان واضحا لاسيما عندما وقفنـا عند مدح الابطال، ورثاء الشهداء، وهو مما استنزف صور الشاعر الاندلسي وخياله في رسم الواقعة ومالت اليه من نتائج مهما كانت، وما تركت مـن اثـار انتـهت بنهايـة المسلمين، واحتلال ديارهم، وخسران مجدهم الى الابد.

* يوم العروبة هو يوم الجمعة وفيه حدثت المعركة .

[1] ديوانه: ص٦٨، البسطي اخر شعراء الاندلس: ص١٧٢.

[2] البسطي اخر شعراء الاندلس، ص١٧٣.

ان قصيدة الحرب في الشعر الذي كان مضمار دراستنا في الاندلس. انطوت على سمات تجلت في اهمية وصف المكان اولا، ثم زمان المعركة او الوقعة ونتائجها ثانيا. ووصف ابطالها ثالثا. ولم تخل تلك القصيدة من التعريج على ادوات الحرب، لاسيما الاساطيل الحربية[1] التي كان لها دور مهم في وقائع المسلمين البحرية. وارى من الضروري ان نتعرف على بعض خصائص هذه الاساطيل. بعد ان وقفنا على اماكن المعارك وابطالها.

اذا ما عاودنا ادراجنا الى قصيدة الرصافي البلسني -مارّة الذكر- لنقف على لوحة الاسطول والسفن البحرية التي قادها وجدناها لوحة قد رست رسما بارعا، وانها - اللوحة- تمازجت مع صفات الممدوح الاخرى التي كونت القصيدة على نحو ما ذكرنا من صنعة وتميز، يقول في لوحة مصورا تلك السفن.

تسنّمَ الفُلكَ من شطّ المجازِ وقد ... نُوديـنَ ياخيرَ أفلاكِ العُلا سيري
فسرنَ يحملنَ أمرَ اللهِ من ملكٍ ... باللهِ مُستنصرٍ في اللهِ منصورِ
يُومي له بسجودٍ كلّ محركةٍ ... منها ويوليه حمداً كلّ تصديرِ
لما تسابقنَ في بحرِ الزقاقِ به ... تركنَ شطّيهِ في شكٍّ وتعبيرِ
أهزّ من موجهِ أثناءَ مسرورٍ ... أم خاضَ من لجّةٍ احشاءَ مذعورِ؟[2]

انها صورة حركية طبيعية مباشرة لحركة هذه السفن وهي متلهفة للنزال ،او على الاقل الوصول الى جبل الفتح، وهو مكان الحرب، او قل المكان الذي نزله الممدوح. ولم يكتف الرصافي بهذا الوصف انما اضافت اليه ثقافته الدينية. بالاقتباس من القران الكريم، ثم استقصاه لمظاهر الطبيعة من حوله الصامتة بالورود، والحية بالطيور

---

[1] تعدّ مدينة المريّة قاعدة اسطول الاندلس، ينظر: تأريخ مدينة المريّة الاسلامية قاعدة اسطول الاندلس: . د.عبدالعزيز السيد سالم. مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٨٤،ص٣٣-٥٦، وللمزيد عن البحرية في الاندلس:تأريخ البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس :د. عبدالعزيز السيد سالم ، د. احمد مختار العبادي ، دار النهضة -بيروت ، ١٩٦٩. الادب الاندلسي -موضوعاته وفنونه-:٢٧٣-٥٦٣، الشعر الاندلسي في عهد بني الاحمر -صورة جهادية بطولية-،ص١٣٤-١٣٥،ص١٤٤-١٤٧.

[2] ديوانه: ص٨٩-٩٠، والانتقال بين الواو والياء في القافية العردفة جميل وممتحسن للتقارب الصوتي بين الحرفين. ينظر:الاصوات اللغوية : د.ابراهيم انيس، دار النهضة العربية، القاهرة، ط٣، ١٩٦١، ص٤٣.

استكمالا من الوصف الرائع الذي بدأ به، واحكاما لنسيج القصيدة كلها، فيقول عن تلك السفن:

ذو المنشآتِ الجواري فـــي أجرّتِـها ... شـكلُ الغدائـرِ فـي سَـدلٍ وتَضفـيرِ
أغرىٰ المياهَ وأنفـاسَ الريـاحِ بـها ... مـا فـي سـجاياه مـن لينٍ وتعطـيرِ
من كلِّ عذراءَ حُبلـىٰ فـي ترائبِـها ... ردعـانِ مـن عنـبرٍ وردٍ وكـافورِ
تخالُـها بيـنَ أيـدٍ مـن مجاذفِـها ... يغرقنَ في مثلِ مـاءِ الـوردِ مـن جـورِ
وربمـا خـاضتِ التيـارَ طـائرةً ... بمثـلِ أجنحـةِ الفتـخِ الكواسـيرِ
كأنمـا عَـبرتْ تَختـالُ عائمـةً ... في زاخرٍ مـن نَـدىٰ يمنـاهُ معصـورِ
حتّىٰ رَمتْ جبلَ الفتحيـنِ مِـن كثـبٍ ... بسـاطعٍ مـن سـناهُ غـيرَ مبـهورِ[1]

وفي الوقيعة البحرية التي احدثها الاسطول المريني بالاسطول القشتالي، وفيها انتصر الاسطول الاول وهزم القشتاليون سنة(٧٤٠هـ)[2] كان لابد ان نجد صداها في المادة الشعرية لهذا العصر فانبرى ابن الخطيب يدون احداث هذه المعركة، ويسوق النصر كله لابن الاحمر -يوسف الاول- ذاكر تلك السفن وهي تنقض على الاعداء بسرعة وتفتك بهم قادرة على الظفر بالنصر وتخطي المصاعب والاهوال ولاسيما اهوال البحر ومصاعبه التي بقي العرب حتى في المشرق يخافون سطوتها ويهابون عنفوانها[3] يقول في تلك المعركة:

ولكَ الجـواري المنشـآتُ سَـوابحاً ... فـي اليـمِّ أمثـالَ الصقـورِ الحُـوّمِ
فتـحُ القـوادمِ للفنـا قـد أبرمـتْ ... أمـراً بِـها كـفُّ القضـاءِ المـبرمِ
مـن كُـلِّ مضـاعٍ كـأنّ شـراعَهُ ... قطعُ السحاب سـرتْ بنـوءِ المـرزمِ[4]

---

[1] ديوانه: ص ٩١-٩٢. الآية القرانية: (ولَهُ الجوارِ المنشآتُ في البحرِ كالاعلام). الرحمن: الاية ٢٤، تـأريخ البحرية: ص ٣٠٢-٣٧٠.

[2] انظر في هذه المعركة: الفتن والحروب واثرها في الشعر الاندلسـي: ٢/٣٠٠-٣٠٢، تـاريخ البحريـة: ص٣٥٩.

[3] ينظر: شعر الحرب في عصر الرسالة: ص ١٥٤.

[4] ديوانه: ص ٥٨٥. انصاع: رجع ممسرعا، المرزم: الريح اوريح الشمال الباردة. والمرزمان: نجمان مـن نجوم المطر.

وقد تجاوزت ابيات النص على الستين بيتاً وهو يركز على الروح المعنوية العالية التي ظهر بها الجيش الاسلامي، وفي مقدمته تلك السفن التي تحمل القوات والعدة، وهي متسلحة بروح العزيمة والايمان لملاقاة الاعداء.

وعلىٰ الرغم من هذه الصفات الطيبة التي ادار فيها ابن الخطيب معاني ابياته الا انه وقع في بعض الاخطاء الاسلوبية التي أسأت الى النص من حيث الوجهة الفنية ، واهم هذه الاخطاء هو انه قد كرر بعض الصور التي اسهب فيها الوصف في اول الابيات ، كتكرار الاقتباس النصي من القران الكريم في مضمون الاية السابقة . يقول :

تلكَ الجواري المنشآتُ صداقُها مهجُ العِدا ، وخلوفهنَّ من الدَّمِ
وحجالُهنَّ من البنودِ فلا تَرَمْ وصلاً بدينارٍ لهنَّ ودرهمِ
نصرتَ عبادَ الله -جلّ جلالُهُ- وسَطتَ بعبّادِ المسيحِ ومريمِ[1]

فالابيات وان زينها التشخيص وخرجها عن المألوف بوصف سفن المسلمين كالعرائس وصداقها مهج الاعداء ودمائهم ، الا ان التكرار الذي ولده الاقتباس جعلها باردة مألوفة غير ذات خيال أوجدة .

انّ المكان الحربي حمل صفات الاندلسيين وسجل مفاخرهم وهزائمهم . انه تجربة معاشة – وان كانت مريرة – الا انها صادقة راينا فيها اثر البيئة على الانسان ومشاعره بلا تكلف او تصنع -انه – المكان الحربي- صورة ناطقة لتجارب مختلفة في احوال عدة .

المكان الديني.

مثلما شكلت الامكنة الطبيعية والامكنة الاجتماعية والامكنة الحربية ملمحاً من ملامح دراسة المكان (انماطه ودلالاته وخصائصه) عند الشاعر الاندلسي مثلما ابانت الامكنة الدينية عن مثل هذه الملامح. وشكلت صنو ذلك الاثر وتلك الدلالات. ولاسيما ان الاندلس كانت تشهد الصراعات المختلفة والتي لايختلف اثنان في كون اغلب هذه الصراعات[2] يمكن ردها لاسباب دينية تتعلق بالمسيحية والاسلام الشريعتين اللتين يتبع

---

[1] ديوانه :ص٥٨٦.

[2] يرى د. محمد مولود المشهداني ان الاندلس شهدت جواً من التسامح الديني منذ ان دخلها العرب المسلمون فاتحين محررين وتداخلت اجواء العبادة الاسلامية والنصرانية داخل البلاد، وامتزجت اصوات المؤذن مع اصوات الكنائس. ينظر: الشعر الاجتماعي في الاندلس: ص ١٢٨. وهذا الامر ان بدا صحيحاً فكان في بدء=

احكامها الناس في تلك البلاد . ونظرا لاهمية الدين في حياة الانسان- المسلم والنصراني – اذ هو الصلة بينه وبين خالقه، نجد اوصافا لاماكن العبادات والطقوس الدينية، وتنعكس اهمية هذه الاماكن في فكره وفلسفته اليومية وابداعاته المتنوعة، فلا مفر الا اللجوء الى الله -سبحانه- في كل صغيرة وكبيرة، شاردة وواردة تمر في حياة البشر، فهو-عز وجل- الملتجأ الوحيد والمنقذ المضمون ، لاسيما في امة تعالت عليها الخطوب، ودارت بها الدوائر كالامة المسلمة في الاندلس.

ومن خلال استقرائنا النصوص الشعرية الاندلسية، رأينا اننا نتلمس اثر المكان الديني واتجاهاته ودلالاته من خلال المحاول الاتية:

أ- الحجازيات (استحضار مدينة الرسول -صلى الله عليه وسلم- والحنين اليها وزيارتها).

ب- الاحتفالات بالموالد النبوية، ولاسيما في العصور الاخيرة من الاندلس.

ج-اغراض شعرية ذات معان دينية جسدت المكان الديني في نصوصها وهي:

١) المديح النبوي.

٢) الرثاء.

٣) الزهد والتصوف.

د- ذكر الاديرة والكنائس واماكن الديانا النصرانية.

هـ- دلالات المكان الديني.

الحجازيات

قصائد ومقطعات اتصلت بذكر اماكن الحجاز والمدينة المنورة والشوق الى قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وزيارته والسعي لرؤيته[1].وهي من اختراع وابتكار الشاعر العباسي الكبير الشريف الرضي(ت٤٠٦هـ) اذ وردت في شعره اول ما وردت ومن ثم اصبحت ميدانا من ميادين الشعر، واحتلت مكانة جيدة في بنية النص الشعري العربي، اينما كان وحيثما قيل.

-امر العرب والاسلام في الاندلس، ايام كان المسلمون اقوياء اشداء في حين انقلب هذا الوضع رأسا على عقب حينما تمكن النصارى من زمام الامور ، وتقلدوا مناصب الحكم. وما احداث حرق المدن وتدميرها، وقلب مساجدها كنائس ومحاولاتهم محو أي معلم اسلامي الا برهاناً ساطعاً ودليلاً قاطعاً على صحة ما نقول.

[1] ينظر: حجازيات الشريف الرضي: د. مصطفى كامل الشيبي بحث منشور في:(الشريف الرضي دراسات في ذكراه الالفية) بغداد،١٩٨٥، ص ٢٧.

(والمكان الحجازي يحمل دلالة مزدوجة تأريخية – دينية)[1] لان تلك المواضع لها خلود زمني ومكاني في نفس المسلم ومشاعره وعواطفه، فهي مكان رسوله الامين- صلى الله عليه وسلم – وهي مركز استقطاب المسلمين في كل انحاء العالم.

عند الشاعر الاندلسي جسدت الامكنة الحجازية مفارقات كثر في حياته وشعره فهو:

-يرددها بصدد الاشتياق لها، ويأمل زيارتها مهما كانت الظروف.

-يحن اليها في اوقات معينة، عند ما يبخل عليه مكانه الذي يحيا فيه بتوفير الراحة والامن والاستقرار.

-يذكرها هرباً لظروف نفسية، وخارجية احاطت به من كل جهة، وهذا الامر يزداد وحدة كلما اتجهنا صوب سقوط غرناطة اذ كانت الامكنة الحجازية، وشخصية الرسول -صلى الله عليه وسلم- المهرب الوحيد تأريخيا ودينيا.

-إن عدداً من الشعراء الاندلسيين زاروا المدينة المنورة وادوا مناسك الحج فعلا. فلا عجب ان يذكروها شعرا[2].

-إن شعراء استقلوا وعرفوا بغرض المديح النبوي[3] وهم في هذا المديح يصفون اماكن الممدوح وفضائله -صلى الله عليه وسلم-. ولذا ترددت هذه الاماكن بين مفاصل القصيدة المدحية كما ترددت اماكن الممدوحين من البشر في الحروب والمعارك، واعياده الاجتماعية وغيرها على نحو ما رأينا في الفقرات السابقة من البحث.

ابن السِّيد البطليوسي الذي ذكر مواضع من بلاد العرب في شعره لاسيما بلاد المشرق التي وردت في اشعار الجاهليين والاسلاميين[4] له قصيدة يخاطب بها مكة المكرمة[5] يلج المكان -مكة- من حيث اهميتها الدينية، وانها مفداة من نفوس المسلمين الكريمة الابيّة لما تخطاه من اهتمام وما تلقاه من عناية لنسمعه في مقدمته هذه:

---

[1] المكان في شعر الشريف الرضي- دراسة فنية: ص٢٥.

[2] منهم الشاعر الرحالة- ابن جبير – ينظر : مجموع شعره: ص٥٧-٦٠،ص٦٣،ص٦٥،ص٨٦،ص: ١٠٠.

[3] كابن الجنان الانصاري (ت٦٤٦هـ او ٦٤٨هـ) شاعر المديح النبوي بالاندلس في القرن السابع الهجري: تحقيق: د. منجد مصطفى بهجت – الموصل١٩٩٠.

[4] ينظر: مجموع شعره: مقدمة المحقق، ص ٩٥.

[5] تعد مكة رمزاً دينياً في الاغراض الشعرية كافة، كالمديح. انظر: ديوان ابن حمديس: ص ٦٣، ص ٥٠٠، والغزل. انظر: ديوان الاعمى التطيلي: ص٦٧.

أ مكـــةُ تفديـــكِ النفـــوسُ الكرائـــمُ ولابرحـــتْ تنـــهلُّ فيـــكِ الغمـــائمُ
وكُفّتْ أكفٌّ الســـوءِ عنـــكَ وبُلّغـــتْ مُناهـــا قلـــوبٌ كـــي تـــراكِ، حوائـــمُ
فـــأنّكِ بيـــتُ اللهِ والحـــرمُ الـــذي لعزّتـــهِ ذُلّ الملـــوكُ الاعـــاظِمُ
وقد رُفعـــتْ منـــكِ القواعـــدُ بـــالتقىٰ وشـــادتكِ أيـــدٍ بـــرّةٌ ومعـــاصِمُ
وساويتِ في الفضلِ المقـــامَ كلاكمـــا تنـــالُ بـــهِ الزّلفـــىٰ وتُمحـــىٰ المـــآثِمُ[1]

انه داعي الشوق الى ذلك المكان ولذا؛ يخاطبها بصيغة المنادى مستخدما (الهمزة) وهي عند النحويين تستخدم لنداء القريب[2] وعليه تكون مكة قريبة الروح والعقل والتفكير والمشاعر لكنها بعيدة المنأى والمكان واللقاء. انها هواجس دفينة تختفي خلف نفس عاشقة لمكان ما تثير دلالاته وتكشف حقائقه عملية الشوق والحنين الى شئ ربما يصعب الحصول عليه. ان صيغ الاستفهام الشائعة في المقطع الثاني للنص، بعد المقدمة التي ذكرناها ومدح الرسول -صلى الله عليه وسلم- وذكر سيدنا ابراهيم(عليه السلام) لتؤكد لنا بقاء هذا المكان خالدا عند الشاعر، فكم تمنى ان يطوف فيه، وان تمحى خطاياه بذلك الطوفان ولكم تمنى ان يهنأ بسقيا حجيجها، وان يروي ماء زمزم نفسه الهائمة، ولكم اراد ان يلبي نداء الزوار (لبيك اللهم لبيك... لبيك لاشريك لك لبيك..) انه يقول:

فياليتَ شعري هل أرىٰ فيـــكِ داعيـــاً إذا مـــادعتْ للهِ فيـــكِ الغمـــائمُ
وهل تمحونَ عنّي خطايـــا اقترفتُـــها خَطـــى فيـــكِ لـــي او يعمـــلات رواســـمُ
وهل لي من سُقيا حجيجـــكِ شـــربةٌ ومن زمزمٍ يروي بِها النفـــس حـــائمُ ؟!
وهل لي في اجـــرِ الملبيّـــنَ مقســـمٌ إذا بُذلـــت للنـــاسِ فيـــكِ المقاســـمُ؟؟
وكـــم زارَ مغنـــاكِ المعظّـــمَ مُجـــرمٌ فَحُطّـــت بـــه عنـــهُ الخطايـــا العظـــائمُ
ومن أينَ لايُضحـــي مُرجيّـــك آمنـــاً وقـــد امنـــت فيـــه المـــها والحمـــائمُ
لئن فـــاتني منـــكِ الـــذي أنـــا رائـــمٌ فـــان هـــوىٰ نفســـي عليـــكِ لدائـــمُ[3]

---

[1] مجموع شعره: ص ١٠٩-١١٠.

[2] ينظر: شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التربية للطباعة والنشر، بغداد، (د. ت): ٢/٢٥٥.

[3] مجموع شعره: ص ١١٠.

ثم يتجلى عامل البعد المكاني بوضوح تام عندما نورد خاتمة النص، ومنها يبعث ابن السيد سلامة الى الكعبة والى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويأمل ان تحمل الرياح سلامه واشواقه فهي اسرع في الوصول واكثر امنا وسلامة:

عليكِ سلامُ اللهِ ماطافَ طائفٌ ... بكعبتكِ العليا وما قامَ قائمُ
إذا نسم لم تُهدِ عنّي تحيةً ... إليكِ فمُهديها الرياحُ النواسمُ
اعوذُ بمن اسناكِ من شَرِّ خلقهِ ... ونفسي فما منها سوىٰ اللهِ عاصِمُ
واهدي صلاتي والسلامُ لأحمد ... لعلّي بهِ من كبّة النارِ سالِمُ[1]

عند ابن خفاجة تحتل الحجازيات جزءا كبيرا من قصائده. ويعود هذا الاحتلال الكبير الى انها ترد ضمن اغراض شعره المختلفة. وهي من حيث الورود تنقسم على قسمين:

الاول: الحجازيات التي ترد في مقدمات تلك القصائد. والاخر: القصائد التي تاتي اسماء الحجازيات ودلالاتها بين ثنايا هذه القصائد[2].

وهذه الكثرة في ذكر الاماكن الحجازية عند هذا الشاعر الكبير لم تمض دون عناية او اهتمام من لدن الباحثين الفضلاء الذين كان الادب الاندلسي شعرا ونثرا وتوشيحا- ميدان دراستهم وابحاثهم، فاعتنوا بهذه الاماكن واوسعوها دراسة وتحليلا. وخرجوا منها بنتائج موضوعية مطمئنة[3].

وتماشياً مع طبيعة المنهج العلمي الذ ي اعتمدناه في بحثنا هذا لابد من ان نذكر هذه الحجازيات، وما ادته من اثر في شعر ابن خفاجة، وما عبر عنه الشاعر من خلالها.

فبالنسبة للشاعر؛ فطالما رددنا انه مر بحالات انتكاسة في حياته الشخصية، فسقطت بلنسية، وقتل ممدوحه ابراهيم بن تاشفين- الذي لاجله عاد الىٰ الشعر بعد تركه-، ومن ثم ازمات نفسية تلابست مع هذه الوقائع لكفيلة بان يجد اسباب الهروب من هكذا واقع مرير، فربما نظر الى الطبيعة مرة والى شموخها وعنفوانها بالجبل مرة، وربما رأى متنفساً في حروب ممدوحه وانتصاراته مرات اخر وهنا لاذ الىٰ المكان

---

[1] مجموع شعره:ص١١١.

[2] ينظر ، حجازيات ابن خفاجة- دراسة فنية-: د. احمد حاجم ، المورد، مج، ٢٨، ع١، ٢٠٠٠، ص٢٦.

[3] ينظر: مقدمة القصيدة العربية في الشعر الاندلسي: ص١٨٤-١٨٦، حجازيات ابن خفاجة: ص ٣٣.

الديني، والى كعبة المسلمين، هروبا روحيا، ومشاركة وجدانية من ارهاصات حياته وانفعالاتها الدائمة.

وبالنسبة للمكان؛ فلاعذر لابن خفاجة وغيره من اهل الاندلس من المحاكاة والتقليد، لاسيما وان ديوان الشريف الرضي دخل الاندلس بعد وفاته بقليل[1]، وانه- ابن خفاجة- هو من جلب على نفسه الرزية عندما ذكر في مقدمة ديوانه انه قد اطلع على شعر الرضي وغيره من شعراء المشرق الكبار كمهيار الديلمي وعبد المحسن الصوري، وانه تأثر- فعلا- بجودة معانيهم، وحسن رسمهم لصورهم، ولطافة الفاظهم وشفافيتها[2].

ولاتخلو حجازيات ابن خفاجة من تداخل مع اغراضه الشعرية-المديح والغزل- ، ونجد ايضا عناصر المكان الطبيعي متناثرة هنا وهناك داخل هذه القصائد ، وهي -ومن المسلم به- تنفث اهات الشاعر وكوامنه واحاسيسه عند ذكرها، لاسيما بكثافة واضحة، وتردد ملحوظ في مثل قوله رائياً:

افيَّ ما تؤدي الريحُ عرفَ سلامٍ ... ومما يشبُّ البرقُ نارَ غرامِ
تحلّت بهِ مابينَ سلمىٰ ومنعجٍ ... سوالفُ ايام سلفنَ كرامِ
لقد هزّني في ريطةِ الشيبِ هزةً ... أرتني ورائي في الشبابِ أمامي
ورُبَّ ليالٍ بالغميمِ أرقتُها ... لمرضىٰ جفونٍ بالفراتِ نيامِ
ولم ادرِ ما أشجىٰ وما أدعىٰ إلىٰ الهوىٰ ... أخفقةُ برقٍ ام غناءُ حمامِ
فليتَ نسيمَ الريحِ رقرقَ أدمعي ... خلالَ ديارٍ باللوىٰ وخيامِ
وعاجَ علىٰ اجزاعِ وادٍ بذي الغضا ... فصافحَ عنّي فرع كلّ بشامِ
فياعرفَ ريحٍ عاجَ من بطنِ لعلعٍ ... يجرُّ علىٰ الانداءِ فضلَ زمامِ
بما بيننا بالحقفِ من رملِ عالجٍ ... وفي ملتقىٰ الأرطىٰ بسفحِ شمامِ
تلدد بدارِ القصفِ عنّي ساعةً ... وأبلغْ نداماها أعزَّ سلامِ[3]

---

[1] ينظر: مطمح الانفس..ص ٣٧.

[2] ينظر: ديوانه: ص ٦.

[3] م. ن: ٥٢-٥٣.(الابيات بتصرف).

ان هذه التراكمية في ذكر الامكنة الحجازية وهي: (سلمى ومنعرج والغميم والغرات واللوى ووادي الغضا ولعلع، وعالج) توحي بحالة نفسية متشنجة لم تر في كثافة المكان الا ترويحا عن مشاعرها وبعداً عن واقعها فالمكان هنا يعكس حالة ابن خفاجة المتأزمة ويتطابق معها.

ان ذكر هذه الامكنة المقدسة، وتلك البقاع الطيبة، ما كان الا من وحي خيال ابن خفاجة، وشديد تعلقها به فهو يقول عنها(جاءت على انها خيالات تنصب ومثالات تضرب ، تدل على ما يجري مجراها من غير ان يصرح بذكرها)[1] ومن هنا نلحظ انه ينادي من بعيد على تلك الاماكن، ويحمل اليها معاني الشوق، ويتمنى لو يحظى بالوصول اليها يوما، فيقول:

ويابانةَ الوادي بمنعرجِ اللوى ... أتُصغي علىَ شحطِ النوى فأقولُ
ويانفحاتِ الريحِ من بطنِ لعلعٍ ... الا جادَ من ذاكَ النسيم بخيلُ
فيا خيمَ نجدٍ دونَ نجدٍ تهامةً ... ونجدٌ ووخدٌ للسرى وذَميلُ
ويا ريمَ نجدٍ والعوادي كثيرةً ... بحكمِ الليالي والوفاءُ قَليلُ[2]

ولاشك في ان البيت الاخير اباح عن كنه مشاعر ابن خفاجة، وادار الابيات السابقة حول شكواه التي طالت وكثرت بسبب العاديات التي مر بها، ومن ثم قلة وفاء الدهر، والزمان، فلا مهرب الا لتلك الاراضي المحمدية التي فيها ما يساي النفس، ويطرد همومها ولو على سبيل التذكر او الخيال.

وفي عصر الموحدين نرى الحجازيات واماكن المدينة المنورة وما يتعلق بها بادية متغلغلة داخل القصيدة التي تقال في المديح النبوي* على الاغلب (فالشاعر يتحدث فيه عن شوقه وتلهفه الى زيارة قبر النبي او الى الاماكن التي شهدت يوما ما اشراقه الرسالة المحمدية، وعاشت لحظات الدعوة في محنتها وانتصارها، في شدتها ورخائها،

---

(١) ديوانه: ص ٢٠٤.

(٢) من: ص ٢٩٣-٢٩٤(الابيات بتصرف).

* كتبت رسالتان للماجستير في المديح النبوي الاولى: النبويات في الشعر الاندلسي من عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي: للباحث موفق مصطفى جاسم، كلية الاداب- فيجامعة بغداد، سنة ١٤١٨هـ-١٩٩٧م. والاخرى، قصيدة المديح النبوي في الشعر الاندلسي من بداية عصر الموحدين حتى سقوط غرناطة: للباحث صديق بتال حوران العامري، كلية التربية في جامعة الانبار، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

مكثرا من ترديد اسماء اماكن حجازية لاسيما (طيبة) التي تعني المدينة المنورة، ومواضع اخرى كمنى ويثرب وزمزم والبيت العتيق ونجد والخيف والحطيم واللوى والغور، الى ما هناك من اسماء موحية تحوي على شحنة تاريخية كبيرة، تعطي للقصيدة بعدا زمنيا وتثير حولها جوا روحانيا، وعبقا دينيا يزيدان من تاثيرها وقوتها)[1].

لقد اهتم د. السعيد بكثرة الامكنة الحجازية التي ترد في القصيدة الاندلسية. وكشف عن ابعاد ودلالات هذه الكثرة. وعلّ اهم دلالة واكبر بعد هو الجانب التاريخي الذي يترك اثرا ملموسا على المكان الديني، ويرسم انماطه واتجاهاته.

فقمين بنا ونحن ندور حول هذا المكان ان ننقب عن تلك الدلالات والانماط، ونبيّن اهميتها الموضوعية والفنية.

علي بن محمد بن حسن الانصاري الاشبيلي (ت ٦٣٣هـ)[2]، يتحدث في احدى قصائده التي قال عنها المراكشي: (وانشدت عليه لنفسه من قصائده الحجازيات)[3] عن رحلته الى المدينة المنورة وعن عيسه التي اضناها السرى واذابها النصب، وما زاد هاجر الهجير الا تعبا ورهقا، الا انها ابت الراحة والوقوف دون مقام الرسول -صلى الله عليه وسلم- فهي كصاحبها مشتاقة اليه، هائمة بحبه لنسمع لحديث رحلته هذه:-

ياحُداةَ العيسِ رفقاً إنّها	شكتِ الجهدَ وبُعدَ المرتمى
فهي تستنشقُ هباتِ الصبا	كلما وافتْ بنجدٍ عَلما
أنسوها بالتذاذٍ إنّها	نَعَمٌ تفهمُ تلكَ النَعَما
طاوياتٌ لم يدعْ منها السُّرى	ودخيلُ الشوقِ إلّا الاعظما
تقصدُ الحوّمَ من أعينها	نُطفاً ليست تُروّي مَن ظما
ويمدُّ السيرُ من أعناقها	خيزراناً حينَ تُبدي السأما [4]

(١) الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس :ص٢٧٤-٢٧٥.

(٢) ابو الحسن علي بن محمد بن حسن الانصاري الاشبيلي جياني الاصل، نزل بمراكش. كان اديب النفس كاتبا بليغا وشاعرا مجيدا. ينظر: الذيل والتكملة: ٥/١/٢٨٧.

(٣) م.ن: ٥/١/٢٩٣.

(٤) م.ن: ٥/١/٢٩٤.

وبمجاورة الاصحاب والخلان يكشف لنا النص مزيدا من صفات التعب والمشقة التي عانوا منها رفاق الطريق، واصحاب الدرب الطويل، ولكن؛ لاباس عند الوصول ان تمحى اثار العناء وان تكشف اعباء السفر بمجرد انتهائه، او حتى بمجرد الدخول في حدود هذه الاماكن الطيبة التي تفوح برائحة مسك وشذى، لما فيها من قداسة وما تحيطها من روحانية:-

ياخليليَّ رويداً أنّها	لتعاني الشوقَ مثلي فاعلما
أشقاها نفحةً نجديةٌ	راحةُ المشتاقِ أن يتبسما
وعداها بعداها ظفراً	وسروراً يوم تأتي الموسما
فيهِ تُمحقُ آثار السرى	وتبادُ البيدُ حتّى تُعدما
إنّها قد حملت شُعثاً اذا	مابكوا قلت غمامٌ سَجما[1]

انهم شعث بطول الرحلة، وهم كذلك لانها عانوا ماعانوا في سبيل الوصول الى ديار الحبيب (صلى الله عليه وسلم) والبكاء عنده. لان المكان بعبد ، والزيارة واجبة فضلا عن ظروف الزائرين الصعبة -وشظف عيشهم ومتاعبهم التي ما برحوا يتناسونها ليحاولوا الظفر بمكان جديد امن ، يبكون فيه زمانهم الغابر ومكانهم الاول .

وعند ابن الجنان الانصاري (ت٦٤٦او ٦٤٨هـ) ، وهو شاعر الوبيح النبوي في هذا العصر نقف الامكنة الحجازية موقفاً اخر، فالشاعر اختص بهذا الغرض فمن الطبيعي ان نجد اثار الامكنة التي تدل على الممدوح او الرحلة اليه، هنا وهنا بكثافة[2] باساليب بلاغية وبيانية متنوعة.

ففي مقدمة قصيدته في الحج، يذكر تلك الاماكن وكيف اضنت تلك الرحلة اصحابها، يدفعهم في ذلك شوق وتوق لرؤية رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وزيارته وطواف البيت العتيق امنية يتمناها كل مسلم وحلم يحلم بها المؤمن في حياته، يقول وقد استخدم حرف الجيم -قافية- وهو حرف مجهور شديد صعب في القافية[3] والحقه الف الاطلاق التي تزيد من ارتفاع الجرس الموسيقي للقافية[4]:

---

(١) الذيل والتكملة: ٥/١/٢٩٤.

(٢) ينظر: ديوانه: ارقام القصائد: (١٩،٢٢،٢٤،٢٩،٣٧،٣٨).

(٣) ينظر : موسيقى الشعر :ص٢٤٨.

(٤) ينظر: القافية في شعر المتنبي: د. هادي الحمداني، مجلة الضاد- بغداد، ع٤، ١٩٩٠: ص ١٣٠-١٣١.

تذكرانَ ذكـــرىٰ أو تـــهيجُ اللواعجـا فعـالجنَ اشـــجاناً يُكـــاثرنَ عالجـــا
ركاباً ســـرتْ بيـــنَ العذيـــبِ ويـــارقٍ نوابيـــج فـــي تلـــكَ الشـــعابِ نواعجـــا
تيممـــنَ مـــن وادي الاراكِ منـــازلاً فيطويـــنَ آلاً فـــي الاراكِ سجاســـجا
لهُنَّ من الاشواقِ حـــادٍ فـــان ونـــتْ حـــداة يرجعـــنَ الحنيـــنَ اهازجـــا
ألا بـــأبي تلـــكَ الركـــابُ إذا سَـــرتْ هـــواديَ يمـــلأنَ الفـــلاةَ هوادجـــا
تراهم سواماً من ســـراهم فـــاصبحوا رســـوماً علـــى تلـــكَ الرســـومِ عوالجـــا
لهم في مِعنىٰ أسنىٰ المَنىٰ ولدىٰ الصَّفا يرجونَ مـــن اهـــلِ الصفـــا المناهجـــا[1]

ومن ثم يقصِ علينا ابن الجنان كيف نعموا بهذه الزيارة، ومنها طافوا بـــالبيت واقبلـــوا يلثمون الجدار، وهذا مايبرز طاعة المسلم لربه، وصدق اتباعه لنبيه –عليـــه الصـــلاة والسلام– ما ان يصل الى تلك البقعة المباركة (مكة)ويؤدي مناسكها:

سَـما بِـــهم طـــوفُ بيـــتٍ مطـــامحٍ أراهـــم قبابـــاً للعُـــلا ومعارجـــا
فابدوا من الصدعاتِ ما كـــانَ كامنـــاً وأذروا دموعـــاً بَـل قلوبـــاً مناشـــجا
ولمـــا دنـــوا نـــودوا هنيـــاً وأقبلـــوا إلىٰ الركـــنِ مـــن كـــلِّ الفجـــاجِ أدراجـــا
وقضـــوا بتقبيـــلِ الجـــدارِ ولثمـــهِ حقوقـــاً تقضّـــىٰ للنفـــوسِ حوايجـــا
إذا اعتنقـــوا تلـــكَ المعـــالمَ خِلتَـــهم أســـاورَ فـــي ايمانـــها ودَ مالجـــا
فللّـــه ركـــبٌ يَممـــوا نحـــوَ مكـــةٍ لقد كرمـــوا قصـــداً وجلـــوا مناســـجا[2]

انها بشرى وكرامة، وهم يقيمون بارجاء ذلك المكان، وقد فتحت ابواب الرضا، واجيبت الدعوات:

فَبُشرىٰ لهم كم خُولـــوا مـــن كرامـــةٍ فكـــانتْ لمـــا قـــد قُدمـــوه نتائجـــا
يفتـــحُ بابـــاً للقبـــولِ وللرضـــا ووفدهـــم أضحـــىٰ علـــىٰ البـــابِ والجـــا

وفي قصيدة اخرى[3]يرسل سلاما الى قبر الرسول –صلى الله عليه وسلم– وهي قصيدة طويلة تكونت من مئة واربعين بيتا يبدأ كل بيت من ابياتها ب" ســـلام علـــى.." وهـــي

(١) ديوانه: ص ٧٤-٧٥.
(٢) م.ن: ص ٧٦.
(٣) ينظر: م. ن: ص ٨٠-٩٦.

لاتخلو من حوادث تاريخية وقعت للمصطفى -عليه الصلاة والسلام- في حياته، وحوادث وقعت للامة الاسلامية بعد وفاته وفي كل ابياتها او اغلبها نجد رموز المكان وايمائته ظاهرة واضحة في النص بشكل فعلي ومؤثر.

وعن باقي قصائد ابن الجنان فهي تصب في المديح النبوي؛ وبذا هي تكون سمة او اتجاه اخر من اتجاهات المكان الديني في الشعر الاندلسي سنتكلم عنه في فقرة لاحقة.

اما المراكشي- صاحب الذيل والتكملة- فقد اعجب بشعر شيخه الرعيني (ت٦٦٦هـ)[1] صاحب كتاب (برنامج شيوخ الرعيني)، فاراد ان يختتم جملة اشعار كانت بينه -الرعيني- وبين ابن الجنان وابن عميرة، بقصيدتين حجازيتين ربانيتين لشيخه على حد قول المراكشي يقول في اولهما، وقد هام قلبه بحب تلك الديار والحنين اليها:

حنيني إلىٰ البيتِ العتيقِ شديدُ وشوقي إلىٰ وادي العقيقِ يَزيدُ

ومن الطبيعي ان يترجم هذا الحنين الى امانٍ كثيرة وامال متوقعة تزيل لنا اسباب الهيام الابدي بين الشاعر وتلك الامكنة، وهذا ما اكدته الابيات الاخرىٰ ودلت عليه باساليب تقليدية ك (ليت شعري) التي يكثر منها الشاعر للتمني ونيل ما يصعب حصوله، ومن ثم حيرة الشاعر وقلقه عن طريق الاستفهام ، وما يخرج اليه من معان، ولاننسى ان الامكنة (زمزم، طيبة، ضريح محمد، -عليه الصلاة والسلام-) فعلت فعلها في تكرار هذه الاساليب وشد الابيات حولها. هاكه يحكي لنا شوقه وحنينه:

فياليتَ شعري هل يباحُ إليهما وصولٌ فيحظىٰ بالوصالِ عميدُ
ومَن لي ان ادّعىٰ إلىٰ حرمي هُدىً وهل لي علىٰ تلكَ البقاعِ وفودُ
وهَل نافعٌ لي ماءُ زمزمٍ غُلةً لها بينَ احناءِ الضلوعِ وقودُ
وهَل اثنني نحوَ الرسولِ لطيبةٍ فيدنو لقلبي من مُناهُ بعيدُ
وألصقَ خدي من ضريحِ مُحمدٍ بحيثُ تلاقت في ثراهُ خدودُ
فَما لي لا أُسعىٰ إليها مُبادراً بقيةَ عمرٍ تنقضي وتبيدُ[2]

(١) له ترجمة ضافية في مقدمة كتابه المذكور: مقدمة المحقق: ص ١-٧، الذيل والتكملة: ٥/١/٣٦٤.
(٢) الذيل والتكملة: ٥/١/٣٦٤.

اننا نجد الاثار السعادة والفرح والفوز بالحسنى عند الرعيني الذي حكى لنا مبلغ هذا الامل لزيارة النبي –عليه الصلاة والسلام– وهذا ما لمسناه في الابيات الاخرى. وهذا ما جعل النص يتسم باحكام الصنعة وغاية النسج، واما الخاتمة فلا تبعد عما ذكرناه من تهافت الشاعر نحو المكان الحجازي، وعلى صعيد الاحكام والنسج الفني، فاحسن غاية الاحسان عندما جعل خاتمته سلاما من محب، وجعل هذا السلام متجددا، متكررا كلما ذكرت هذه الارض المباركة، وانها هذا السلام يرتبط بدموع الرعيني ذلك الانسان المحب لذكر الرسول –صلى الله عليه وسلم– وذكر مكانه واهله:

سلامٌ علىٰ البيتِ الحرامِ وطيبةٍ يكرُّ علىٰ ربعيهما ويعودُ
سلامُ محبٍّ كلّما ذُكر أرضُها تبادرتِ الاجفانُ منهُ تجودُ[1]

وعند القرطاجني ؛ اتسعت اماكن الحجاز في نسق اخر من انساق البناء الموضوعي للنص الشعري فقصيدته التي ذكر فيها تلك الاماكن ضمنها[2] ابيات امرئ القيس في معلقته الشهيرة، ومن هنا يمكن ان يكشف النص عن دلالات هذه الاماكن واهميتها، مثلما كشفت من قبل دلالات الاماكن التي ذكرت في معلقة امرئ القيس اثرها الواضح في تشكيل هذه المعلقة وجعلها تردد على مر العصور عذوبة وحلاوة؛ هذا من جهة.ومن جهة اخرى ان هذه الاماكن الحجازية في قصيدة القرطاجني، وتلك الاماكن البدوية في معلقة امرئ القيس لعبت دورا تاريخيا واضحا، فالامكنة الحجازية –كما قلنا– حملت الدلالة التاريخية وستبقى كذلك الى ان يرث الارض ومن عليها، واما اماكن امرئ القيس فغايتها التاريخية اننا كلما ذكرنا (سقط اللوى، الدخول، توضح، جلجل..) كلما استشهدنا بابيات ذلك الشاعر الفارس، وبتلك المعلقة الشهيرة. واظن ان هذا التمازج الديني، التاريخي، المكاني في النصين لاتغيب عن مخيلة شاعر وبلسوف وناقد كالقرطاجني فزاوج بينهما ببراعة و إحكام.

ان ذكر (الديار الحجازية والتشبيه بها وذكر معالمها والحنين اليها والتشوق الى ساكنيها والبكاء على قاطنيها ووصف العيس، وحديث السرى ثم الدعاء هناك للنجاة من

(١)الذيل والتكملة: ٣٦٥/١/٥، انظر ص٣٦٥-٣٦٦.

(٢) التضمين: (هو استعارتك الانصاف والابيات من غيرك وادخالك اياها في اثناء ابيات قصيدتك).
كتاب الصناعتين في الكتابة والشعر :ابو الهلال العسكري (ت ٣٩٦هـ): تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد ابو الفضل ابراهيم، القاهرة،١٩٥٢ ص٣٦.

الذنوب والتشفع لمن بذل الجهد الجهيد للوصول الى حضرته صار واحداً من الموضوعات المهمة في القصيدة النبوية لهذا العصر التي رافقت الاقبال على الذهاب إلى الحجاز والمكوث إلى جوار قبر الرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم-)[1].

واذا ما ولينا قبلتنا نحو عصر بني الاحمر، لم نجد كبير فرق في استخدام الحجازيات، عند الشعراء المبرزين في هذا العصر وهو استخدام لم يخرج عن اطار الشوق الى تلك البقاع وتمني رؤيتها وزيارتها مهما بلغت الشدائد وعظمت الصعوبات[2].

هذا ابو جعفر الرعيني الارناطي (ت٧٧٩هـ) ؛ وهو قد رحل عن الاندلس، وزار مكة.. يخبرنا عن نفسه قبل الوصول الى ذلك المكان وما سيفعله اذ هو وطأه اول بارضه:

يا راحلاً يبغي زيارةَ طيبةٍ ... نلتَ المُنى: بزيارةِ الأخيارِ
حَيِّ العقيق اذ وصلت وصفْ لنا ... وادي منىً ياطيبَ الأخبارِ
وإذا وقفتَ لدى المعرَّفِ داعياً ... زالَ العَنا : وظفرتَ بالأمطارِ[3]

وربما في نهاية الحديث عن الحجازيات، يطيب لنا ان نختم هذا العنوان من البحث بقصيدة الفقيه فرج بن قاسم ابن لب التغلبي (٧٨٢هـ)[4] تبدأ قصيدته ببث لواعج الشوق والحنين بصورة تجذب القارئ وتشد المتلقي لكثافة المعاني، وغزارة الالفاظ التي تدل على هذه اللواعج المبرحة، والاشواق المجهدة:

إذا البرقُ ثارَ اثارا أذكارا ... لقلبي فأذكى عليه أُوارا
ترومُ جفوني لنارِ الهوىٰ ... خموداً فتُهمي دموعي غِزارا
فماءُ جفوني يسحُّ انهمالاً ... ونارُ فؤادي تهيجُ استعارا
اطيلَ العويلَ صباحَ مساءٍ ... كئيباً ولستُ أطيقُ اصطبارا[5]

---

(١) النبويات في الشعر الاندلسي من عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي: ص١٢٦.

(٢) ينظر: نفاضة الجراب: ص ٣٨٠-٣٨٤، ريحانة الكتاب: ١/٥٥، الكتيبة الكامنة: ص٨٩،ص٢٥٣.

(٣) نفح الطيب :١/٤٠.

(٤) الخطيب الاستاذ ابو سعيد فرج بن قاسم بن احمد بن لب التغلبي. له قصائد في المديح. ينظر: الكتيبة الكامنة: ص ٦٧-٧٠، الاحاطة في اخبار غرناطة : ٤/١٢٥٥ (هامش الصفحة)؛ الديباج المذهب: ٢/١٣٥.

(٥) اعلام المغرب والاندلس في القرن الثامن الهجري: ص ١٨٧-١٨٨.

ثم يستمر في التوظيف للمظاهر الكونية (كالريح –البرق)، لانها قادرة على تخطي المسافات، واختراق الزمن وتجاوز العقبات التي تحول بين اشواق التغلبي وبين المكان الذي اودعه حنينه وشوقه:

أجِنَّ اشتياقاً فالريح مرتْ وأُبدي هياماً لبرقٍ أنارا
حنيناً وشوقاً إلى معلمٍ حَوى شرفاً خالداً لايُجارىٰ
بهِ أسكنَ اللهُ أسمى الورىٰ نبيّاً كريماً وصحباً خيارا
هو المُصطفىٰ المُنتقىٰ المُجتبىٰ لُرىٰ معجزاتٍ وآياً كبارا

واذا ما وصل المرء الى مثل هذا المكان الذي يعاني فيه المسلم ما يعاني بغية وصوله ، فلا بد انه فوز كبير وحدث مهم في حياته مهما كانت المسافات، وبلغت المعاناة:

فيا فوزَ من فازَ في طيبةٍ بلثمِ المغاني جداراً جدارا
وألصقَ خداً علىٰ تُربها واكملَ حَجّاً بها واعتمارا
وأهدىٰ السلامَ لخيرِ الأنامِ عَلىٰ حينِ وافىٰ عليهِ فَزارا[1]

لقد اثارت الحجازيات والاماكن المقدسة في مكة مشاعر الاندلسي وحركت عواطفه لما لها من اهمية دينية تاريخية حفظت في الاذهان والعقول ومن ثم انعكست واقعا على حياة الاندلسي– الاديب خاصة– فرأيناها في شعره وقصدته بما حفظت وخلدت به من قداسة وعظمة...وتاريخ.

الموالد النبوية والاحتفال بها هي ظاهرة اخرى وعامل اخر من عوامل معرفة سمات المكان الديني في الشعر الاندلسي وعلى الرغم من ان هذه الظاهرة شاعت في العصور الاخيرة في الاندلس الا انها تعني صدق التزام الاندلسيين بمولد نبيهم وشدة احتفاهم بهذه المناسبة وعل وقوفنا على قصائد اديب عن غرناطة ومؤرخها ابن الخطيب في هذه المناسبة ما نرى فيه سمات المكان الديني، وارتباطها بالممدوح وما يولده هذا الارتباط من تسجيل وثائق تاريخية، فالمكان الديني والتاريخ روحان في جسد واحد لا ينفصلان عند كل الشعراء وفي مختلف الظروف.

(١) اعلام المغرب والاندلس في القرن الثامن الهجري: ص ١٨٨.

تشكل ظاهرة المولديات في شعر ابن الخطيب ملمحاً واسعاً قياساً الى شعره واغراضه، وقد اشار الى ذلك الباحثون والمحققون لشعر ابن الخطيب[1]فـ،(في الديوان نقع علـــى ثمان قصائدمولدية قالها ابن الخطيب في فترات من حياته تشتمل على ٤٦٥بيت)[2]وهي كمية جديرة بالدراسة والاهتمام اذا ما اردنا الوقوف على جانب اخر وتشـــكيل جديـــد للمكان الديني عند شعراء الاندلس.

(اما مظاهر هذه الاحتفالات وخلاصة وصفها فهي تسير على النحو الاتي:

١- قيام الحفلة في ليلة المولد الشريف.

٢- دعوة الناس خاصة وعامة.

٣- جلوس السلطان واعيان دولته بحسب مراتبهم.

٤- تطراف الخدم والغلمان بالبستهم الحريرية الزراعية على الضيـــوف بمرشـــات عطورهم ومباهرهم.

٥- المنقبة النبوية والمدائح الشريفة من قبل منشد بارع جميل الصوت...)[3]

في مدح السلطان ابي الحجاج النصري بمناسبة احتفال هذا السلطان بليلة الميلاد يـــورد ابن الخطيب لنا في مدحه ثلاث قصائد[4].ومن اماديحه قصيدته التي مطلعها:

أُثـــارَ سَـــناها والديـــارُ نـــوازِحٌ سنا بارقٍ مـــن مطلـــعِ الوحـــي لائـــحُ[5]

يتكلم ابن الخطيب- بقلم رشيق ولفظ عذب الوقع- عن صفات النبي (صلى الله عليـــه وسلم) وعن شمائله في هذه الليلة الكريمة ولايأبه ان يذكر لنا جملة من امور تأريخيـــة قام بها الرسول (صلى الله عليه وسلم) او حدثت في حياته.

---

(١) ينظر،ديوانه (مقدمة المحقق) ص١٦٨، القصيدة الاندلسية في القرن الثامن الهجري : د.عبد الحميد عبد الله الهرامة، كلية الدعوة الاسلامية، ليبيا ١٩٩٦، ١/٣٢٩-٤١٠؛شعر لسان الدين بن الخطيـــب وخصائصـــه الفنية،وهاب سعيد الامين، (رسالة ماجستير)، كلية الاداب في جامعة القاهرة-قسم اللغة العربية،١٤٠١هـــ-١٩٨٠، ص١٥٧-١٧١ ، النبويات في الشعر الاندلسي: ص١٤٣.

(٢) ديوانه: مقدمة المحقق: ص ١٦٨.

(٣) احتفالات الموالد النبوية في الاشعار الاندلسية والمغربية والمهجرية: د. محسن جمـــال الديـــن، مطبعـــة البصري- بغداد، ١٩٦٧، ص ٢٠.

(٤) ينظر : ديوانه: الارقام: ١٣٣، ٢٤٠، ٣٠٥.

(٥) م. ن: ص ٣٦٧.

فضياء قصور الشام، وهدم ايوان كسرى واخماد نيران فارس.. كلها وقعت ابان حياته -عليه الصلاة والسلام- وهي من معجزاته الخارقة التي الهمها الله -عز وجل- لانبيائه، دليل نبوتهم وتميزهم على غيرهم من بني ادم.

ان هذا التعليق على ابيات النص مهمته الاطناب في الحوادث التاريخية التي انارت القصيدة، وغايته توضيح فحوى العلاقة واسس التواشج بين المناسبة الدينية ومكانها وتلك الحوادث في سبيل ان نعطي المكان الديني اهميته التاريخية، وان لانبعد كثيرا عن عنوانات بحثنا وتفرعاته.

اما عن ليلة الميلاد النبوي ، تلك الليلة المنارة، وذلك المكان الذي ضم السعادة، وحوى الفرح فيقول عنها ابن الخطيب مادحا ابا الحجاج:

اقمتَ لميلادِ الرّسولِ شعائراً ... بها اللهُ عَن ذنبِ المسلمينَ صافِحُ
تباهتْ بأمداحِ الرسولِ مُحمدٍ ... فطابتْ بذكراها الرياحُ النوافِحُ
إذا نُشرت فيها صحائفُ مدحهِ ... وذاعتْ بنشرِ الحمدِ منها المماديحُ
تلقتكَ من أرضِ الهنودِ لطائمٌ ... ينمُّ بها من مسكِ دارين فائِحُ
هي الليلةُ الغرّاءُ حسبُكَ ليلةٌ ... بها نجمُ دينِ اللهِ أزهرُ لائِحُ[1]

وفي مدح ابي سالم المريني (٧٦٢هـ)[2] انشد ابن الخطيب قصيدة مولدية اخرى قال عنها انها مذهبه[3] وفيها يخاطب ابن الخطيب ذلك الركب الذي رحل الى الحجاز، وكيف وصلوا تلك المعاهد، ونعموا بقرب الرسول (صلى الله عليه وسلم) وزيارة روضته الشريفة، يقول:

الا ياحُداةَ الركبِ يبغونَ يثربا ... ويلقونَ في اللهِ السأمةَ والجهدا
بما بيننا من خُلةٍ طابَ ذكرُها ... اذا فرّغت عوجَ المِطيِّ بكم نجدا
وابصرتُمُ نورَ النبوةِ ساطعاً ... قد اكتنفَ الترابَ المُقدّسَ واللحدا
وناجيتُما من مطلعِ الوحي روضةً ... أعدّ لَها اللهُ السعادةَ والخُلدا
ولاقلبَ إلّا خافقٌ في شغافهِ ... ولاطرفَ إلّا من مهابتها ارتدّا
معاهدُ مَدَّ الغيثُ فضلَ رواقهِ ... بِها، وكساها من نَسيجته بُردا
وهّبَ العليلُ اللدنُ مُستشفياً بِها ... فكانَ الدواءَ البانَ والشيحَ والرندا[4]

---

(١)ديوانه: ص ٣٧٠.

(٢) (امير المسلمين المستعين بالله ابراهيم بن امير المسلمين ابي الحسن بن امير المسلمين أبي سعيد بن امير المؤمنين يعقوب بن عبد الحق، يكنّىٰ أبا سالم بويع عام ٧٦٠هـ، وقُتل وانا انظر اليه وأتوجع وابكي عام ٧٦٢هـ. وله ثمانون وعشرون سنة ودُفن بالقَلّة).روضة النسرين: ص٢٧.

(٣) ينظر: ديوانه: ص ٤٧٩.

(٤) م.ن : ص ٤٨٠-٤٨١.

وعن ليلة الميلاد فكانت من اكبر الايات التي مر بها الكون، فقد جعلها الله معجزة اذ بها انار الاسلام- الدين الحنيف- الاكوان، واخرج الناس من الظلمات الى النور، وفيها حدث ما حدث من اهوال ما كانت لتحدث لولا تدخل رباني حكيم:

وفي ليلةٍ أكبرُ آيةٍ تخرُّ الجبالَ الراسياتُ لَهُ هدّا
أشادتْ بها الكهانُ قبلَ طلوعِها ومن هولها إيوان كسرى قد آنهدّا
فياليلةً قد عظَّمَ اللهُ قدرها وانجزَ للنورِ المبينِ بها وعْدَا
وصيَّر اوثانَ الضلالةِ خُضّعاً إليها فلم يترُكْ سواعاً ولا ودّا
وعاجلَ بالأخمادِ نيرانَ فارسٍ فلَم تُرَ للنيرانِ من بعدها وقدَا[1]

ثم يسترسل في عرض صفات الممدوح، وانها لما اقام الاحتفال بمثل هذه الليلة فهو اقرب الى روح المسلمين واعيادهم وبذا استحق فخرا اخر، وصفه جديدة تضاف الى مفاخره واوصافه.

واذا انتقلنا الى ابن زمرك في مولدياته ربما لانرى تمايزا بين مولدياته ومولديات ابن الخطيب من ذكر معجزات النبي – مارة الذكر- وتكرارها في كل مولدية او مدحة[2]. ولكننا نلمح في قصيدة مدح بها سلطانه الغني بالله صفات الجهاد والحرب وعزم السلطان وجوده، وفتوحاته وغزواته وعظمة جيوشه وتحطيمها لجيوش اعدائه.[3] يقول بعد ان ختم الحديث عن ليلة الميلاد ومدح الرسول (صلى الله عليه وسلم):

يا ناصرَ الاسلامِ يامِلكَ العُلىٰ اللهُ يؤتيكَ الجزاءَ جزيلا
جهِّزْ جيوشَكَ للجهادِ موفقاً وكفىٰ بربِّكَ كافياً وكفيلا
ولتُبعدِ الغاراتِ في أرضِ العِدىٰ واللهُ حسبُكَ ناصراً ووكيلا
وإليكَ من سَمرِ الجهادِ غَريبةً جاءتكَ تقرضُكَ الثناءَ جَميلا
واطلّتْ لكني اطبتُ وعادتي ألفىٰ مُطيباً في المديحِ مطيلا
لازالَ نصرُكَ كلَّما استنجدتَه لمُهمِّ دينكَ عائداً مَوصُولا[4]

(١) ديوانه: ص ٤٨٣.
(٢) ينظر: ديوانه: ص٣٧٥، ص٤٧٧، ص ٤٩٥.
(٣) ينظر: ابن زمرك الغرناطي – حياته وادبه-: ص ١٣٨.
(٤) ديوانه: ص٤٨٠.

ان المناسبة-المولد النبوي الشريف- وذكر الاماكن الدينية هناك في مكة و المدينة وعظمة انتصارات الاسلام في المشرق والتغني بتلك الانتصارات، كانت مدعاة حقيقية لهذه اللوحة في وصف جيش الممدوح واستعداده للجهاد، لان تلك الاماكن تظل دحفز فينا مفاخر الصحابة- رضي الله عنهم- وتظل سجلا امينا لاولئك الرجال الخالدين في سفر الامة الاسلامية فلا ضير ان يكون ممدوح ابن زمرك واحدا من اولئك الذين خلدهم التاريخ، وحكى اثارهم المكان التاريخي الديني.

هناك اغراض شعرية حملت معاني المكان الديني والمحت الى سماته في الشعر الاندلسي، ومن خلال استقرائنا للنصوص الشعرية-مدة الدراسة- وجدنا المدائح النبوية من تلك الاغراض، وهذه المدائح تضم بين ثناياها سمات مكان رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، وقبره والهجرة اليه وزيارته[1].

ومن الشعراء من تكون لهم الامكنة الدينية اثناء مدح النبي-صلى الله عليه وسلم- ملمحا مهما، وخاصية من خصائص المدح. يقول ابن زمرك في مدحه مستعرضا جملة من الامكنة التي نستدل بها على ممدوحه:

حيثُ الربوعُ بنورِ الوحي آهلةٌ ... من حلّها احتسبَ الآمالَ مقترحا

حيثُ الرسالةُ تجلو من عجائبها ... مرأىً جمالٍ بنورِ اللهِ مُتّضحا

حيثُ النبوّةُ تتلو من غرائبها ... ذكراً يُغادرُ صدرَ الدينِ مُنشرحا

حيثُ الضريحُ بما قد ضمَّ من كرمٍ ... قد بَذّ في الفخرِ من يبأى ومَن نجحا

ياحبذا بلدةٌ كانَ النبيُّ بها ... يلقىٰ الملائكَ فيها آيةً سَرحا

يادارَ هجرتِهِ يا أُفقَ مطلعِهِ ... لي فيكَ بَدرٌ بغيرِ الفكرِ مالَمَحا[2]

(١) عن المديح النبوي: ينظر: ادباء مالقة: ص ١٤٨، ديوان ابن سهل: ص ٢٠٧-٢٠٩، ص ٢٣٠-٣٣٢، ديوان ابن الجنان، ص ١٤٦-١٥٤، الكتيبة الكامنة: ص ١٣٥، الاحاطة: ٢/٢٩٦-٢٩٧، ٤/٨٠-٨١، مسنودع العلامة: ص ١٩٦.

(٢) ديوانه: ص ٣٧٧، وينظر ص ٤٠٢.

ان كل بيت من الابيات الماضية مثل حقيقة تاريخية دينية لان هذه الامكنة ترمز للتاريخ الاسلامي* بنواحيه كافية، كما انها على واقعها المعاش لها القدح المعلى في جذب اهتمام المسلمين ونظرهم، فهناك عقائدهم وهناك مفاخرهم وهناك.....

وبغض النظر عن شيوع ظاهرة المديح النبوي في المشرق بعد سقوط بغداد (٦٥٦هـ) وان هناك شعراء اشتهروا بقول الشعر النبوي ومدح صاحب الرسالة-عليه الصلاة والسلام-[1]وان هذي المدة التي ظهر فيها هذا الشعر في المشرق تقارب على وجه التحديد المدة التي ظهر فيها المديح النبوي والشعر الديني في الاندلس منذ بدء القرن السابع الهجري ، الا اننا نعثر في كمية المديح النبوي التي قيلت في هذا المكان- الاندلس- على سمات انمازت بها عن المدائح النبوية في المشرق، وتعود جل تلك السمات الى عامل البيئة والمكان الذي عاشه الشاعر الاندلسي، لاسيما بعد عصر الموحدين، اذا اضطربت الامور وسقطت المدن ، وعانى المسلمون النكبات السياسية والعسكرية والاقتصادية، فكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الملجأ الوحيد والامان المرتجى في سبيل استرداد الامانات واعادة الاوطان... اقول: ان المكان وحده هو الدافع لهذا المديح وغيره من الاغراض التي اشتهرت بها الاندلس، كالطبيعة ورثاء المدن والممالك، ومن هنا أرى -بتواضع- ان نعرف اسباب الغرض الشعري ودوافعه عند الشاعر ومن ثم العوامل المحيطة به واهمها بيئته ومكانه الذي عاش فيه، ولامهرب من اسئلة تبادر النفس ونحن نبحث عن جديد الشاعر منها: هل غادر الشاعر مكانه؟

---

* اشار الدكتور محمد رضوان الداية، ان في هذا النوع من الشعر (تكثر الاشارات التاريخية، واسماء المواضع والمواقع ذات الصلة بالسيرة وبيئاتها). في الادب الاندلسي: دار الفكر- دمشق، ط١، ٢٠٠٠، ص١٠٩.

(١) ينظر: الادب العربي في العصر الوسيط: د. ناظم رشيد، مطبعة دار الكتب- الموصل/ ١٩٩٢، ص ٨٣-٨٨، المدائح النبوية في ادب القرنين السادس والسابع للهجرة: د. ناظم رشيد، دار الشؤون الثقافية- بغداد، ٢٠٠٢، ص ٧، يؤكد د. علي صافي حسين ان هذا الفن- المديح النبوي- استحدثه المصريون في القرن السابع الهجري. لاسيما على يد الشاعر المشهور البوصيري (ت٦٩٦هـ). انظر:الادب الصوفي في القرن السابع الهجري: دار المعارف- مصر، ١٩٦٤، ص٢١٦. اما د. عبد الكريم توفيق العبود فيرى ان هذا الفن هو ابن البيئة العراقية، فالبوصيري تأثر بالصرصري (ت٦٥٦هـ)، وهو شاعر عراقي. ينظر: الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد: دار الحرية- بغداد، ١٩٧٦، ص ٢٧١-٢٧٢. واقول : ان ابن الجنان شاعر المديح النبوي في الاندلس قد توفي سنة (٦٤٦او ٦٤٨) أي قبل عقد من اكتمال الفن في العراق. واربعة عقود من اكتماله في مصر فاين الدقة الموضوعية في البحث العلمي، ومن ينصف من؟!

وهل اضطرته الظروف للتخلي عن دياره واهله؟ وهل كان شاعر مادحاً ام راثياً؟ وهل كان شاعراً صاحب ثقافة.. ؟ وغيرها من الاسئلة التي تُوضع امام من اراد ان يحكم بانصاف وسداد على الشعر الاندلسي ومدىٰ تعلّقه باخيه المشرقي وتأثره به.

والرثاء من الاغراض التقليدية التي تولي المكان الديني اهمية خاصة في معانيها، اذ تتطلب صفات المرثي او المرثية الدينية ان يذكر معها اماكن العبادة والصلاة، تلك الاماكن التي كان يؤدي الفقيد فيها اوقات عبادته وتنسكه.

الاعمىٰ التطيلي عند ما رثىٰ امراة أسبغ عليها صفات التقوىٰ والورع، وفي كل هذه الصفات لم ينسَ ان يذكر المكان الذي كانت تتعبد فيه هذه المراة، وكم كان خالياً مقفراً عندما فقدها، وفقد تلاوتها:

وكم أصاخَ المُصلّىٰ لو شعرتِ بهِ ... إلىٰ تلاوتكِ الآياتِ والسورا

وكم اتاهُ العذارىٰ يلتقطنَ بهِ ... من دمعِ اجفاتكِ المرجانَ والدررا[1]

(ويعبر السكان الديني عن الصلة بين السماء والارض، ومدى وعي الانسان باهمية هذه الصلات وعلاقتها بوجوده)[2] وهذا ما ادّته معاني الابيات اللاحقة في قصيدة التطيلي نفسها، اذا كان من الطبيعي ان يتحول المكان الديني في الارض الى جنة وحور، ونعيم الثواب الالهي الذي هو غاية كل انسان على الارض ومبتغاه يقول:

قَد أزلفتْ جنةُ الفردوسِ واطّلعتْ ... جاراتُكِ الحورُ يستهدينكِ الأثرا

وبتنَ منتظراتٍ والمُدىٰ أُمَمٌ ... وقَلَّ مابـاتَ مَسروراً مَن انتظرا[3]

وهذه العلاقة بين الامكنة، وهذه الروابط والصلات بين الارض والسماء تتجلى بشكل اكثر وادق في ابيات ابن سهل، الذي خصص خاتمته في الرثاء، لمصير المرثي فاودعه الجنان ثم ذهب يحدثنا كيف نزل المرثي تلك الاماكن، وكيف استقبل بحفاوة ، وتكريم في جنة فيها ما لاعين رأت، ولا اذن سمعت ولاخطر على قلب بشر، هاكها في رثائه:

(١) ديوانه: ص ٤٥.

(٢) المكان في الشعر العراقي الحديث: ص ١٥٨.

(٣) ديوانه: ص ٤٦.

سِرٌ للجنانِ فأنّ من ولدانِها ... ماهذهِ الدنيا لمثلكَ دارُ
رضوانُ منتظرٌ قدومَك شيّقٌ ... ولحُورهِ بلقائكَ استبشارُ
فسقاكَ مثلُ مدامعي في فيضِها ... او مثلُ جودِكَ وابلٌ مدرارُ
ونزلتَ في الفردوس أكرمَ منزلٍ ... تحظىٰ بهِ بجوارِكِ الابرارُ
وسقاكَ كوثرَهُ الزّلالَ وذُلّلتْ ... لكَ من جناهُ في النعيمِ ثمارُ[1]

وعند ابي حيان، ربما تتمثل هذه الاماكن بشكل اكثر فاعليه، وتاثيراً من أي شاعر اخر، وعلّ سائلا-ومن حقه- ان يسأل لم تتشكل الاماكن الدينية في الرثاء عند ابي حيان بكل تلك الفاعلية؟ وقوة ذلك التاثير؟ والاجابة على السؤال تكشف لنا عن عمق المكان الديني عند ابي حيان وفي غرض الرثاء. لانه خصص جل مراثيه لابنته نضار. وهي العالمة الزاهدة المتمسكة بمادئ الاخلاق القابضة على تعاليم دينها وشعائرها . يقول ابو حيان في واحدة من مراثيه ويذكر ان ابنته قد زارت الكعبة، وطافت بها ، وقد كانت للمرثية مقامها الاخير، وان خاتمة حياتها كانت زيارة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فكانت احسن خاتمة واطيب نهاية:

وبالكعبةِ الغراءِ طُفتِ بمكّةٍ ... وللحجرِ المسوّدِ كانَ التثامكِ
وجاورتِ أياماً بها ولياليا ... وكانَ كثيراً بالمقامِ مَقامكِ
وزُرتِ رسولَ اللهِ افضلَ من مَشىٰ ... علىٰ الارضِ واحتلّت هناكَ خيامكِ
فكانَ بيتِ اللهِ بدؤكِ أوّلاً ... وزورةُ خيرِ الخلقِ كانَ اختتامكِ[2]

لقد اكثر ابو حيان من ذكر الامكنة التي زارتها المرثية في تلك البقاع الطيبة وهي، (الكعبة،مكة، الحجر الاسود ، المقام، بيت الله). وفي كل هذه الامكنة كان هناك بوح لمشاعر خلفتها ظروف الحياة العصيبة التي عاشها ابو حيان. ولذا كان الهروب عفويا بالنسبة له في ذكر هذه الامكنة لكأنه يتمنى ان تكون خاتمتها فيها او قريبة منها.

(١) ديوانه: ص ١٢٩.

(٢) ديوانه: ص ٣٧٨ وانظر: ص٢٢٨، ص ٣٧٦، ص٤٠٠، ص٤٠٨، ص٣٩٣، وكذلك : الذيل والتكملة: ٣٨/١/٥، الاحاطة: ٤٧٥/٢. نفاضة الجراب: ص٣٨٢-٣٨٥، ديوان ابن زمرك :ص٢٤٤.

الزهد والتصوف*. ان الاسباب التي ادت الى ظهور الحجازيات والمديح النبوي، هي الاسباب نفسها التي اسهمت في ظهور هذين الغرضين من الشعر في الاندلس. فالزهد ظهر فيها في عصر الامارة (١٣٨-٣٣٩)، كردّ على حياة اللهو والمجون، التي كانت تعيش فيهما الامة الاندلسية ابان تلك الحقب من السنين(١).

واما التصوف؛ فربما لجأ اليه الناس -ومنهم الشعراء- بعد تكالب الظروف، وسقوط الدول والامارات، ومن هنا عد عصر الموحدين العصر الذهبي لظهور التصوف غرضا قائما بذاته في الاندلس(٢).

ان (الزاهد ينصرف عن الملذات طمعا في الاخرة وجنات النعيم، اما الصوفي فان همه هو وقته الحاضر، وهدفه هو معرفة الله والاتصال الدائم به)(٣)، ان هذين الغرضين ظهرا في اوقات من حياة الامة اختل فيها التوازن السياسي والديني والاجتماعي، ففر كثير من الناس الى الله -سبحانه وتعالى- داعين ان يزيل عنهم الالام والاحزان، وانه يرد الامن والامان الى نفوسهم ونفوس ذويهم(٤).

ان دراستنا للمكان الديني، تتطلب منا ان نعالج هذين الغرضين بوصفهما غرضاً واحداً لان الغاية منهما هو التجافي عن الدنيا، عن الناس، وبالتالي عن سمات المكان المضطرب القلق الذي تعيشه تلك النفوس الحائرة في زمن ما او تمر به. وبعد هذا التجافي تتوجه تلك النفوس الى الله سبحانه - وتتوكل عليه، بنفس مطمئنة تائبة محتسبة، وهاتان الغايتان تتمثلان في الغرضين، وبالتالي في الاشعار التي تنضوي تحتهما، فلا حاجة بنا للفصل بينهما.

---

* للمزيد عن هذين الغرضين في المشرق . ينظر : التيار الاسلامي في شعر العصر العباسي الاول : ص١٦٩، الادب العربي في العصر العباسي ص٥٤، الادب العربي في العصر الوسيط ، ص٩٨- ١٠٦.

(١) ينظر : مدخل الى الادب الاندلسي: ص١٢٨.

(٢) ينظر: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس: ص٢٧٩.

(٣) مدخل الى الادب الاندلسي: ص١٢٨، وللدكتور حكمة الاوسي رأي يخالف هذا الرأي اذ عدّ شعر الزهد في هذا العصر قد اتُخذ (كأحبولة الصيد المراتب الاجتماعية، والتمتع تبعا لذلك بامتيازات اقتصادية مغرية). الادب الاندلسي في عهد الموحدين، ص ٢٠٥. وقد ردّ هذا الراي د.احمد حاجم حين قال: (ومن الملاحظ ان الدكتور الاوسي قد استند الى مواقف بعض شعراء الاندلس من الفقهاء الذي تمتعوا بامتيازات خاصة تحليم في اعلى المراتب الاجتماعيه في عصر المرابطين والموحدين، ولكن هذين العصرين د بخلوان من فقهاء زهّاد ابتعدوا عن مغريات الحياة ومراتبها الاجتماعية). القصص القرآني في الشعر الاندلسي : د. احمد حاجم، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ٢٠٠١، ص١٧.

(٤) ينظر: الادب العربي في العصر الوسيط: ص٩٨.

كما ان دراستنا للمكان عموما تتطلب منا ان نتجه نحو الشعراء الذي تشكل عند الظاهرة المكانية مركز ثقل في نصوصهم، ومدار اهتمامهم في رسم صورهم، والتعبير -من خلال المكان- عن مشاعرهم الحقيقية دون مبالغة او تهويل. ورأينا ان شعراء الطبيعة كابن خفاجة وغيره كانت لهم وقفات سياسية جريئة، وان شعراء الحرب كابن فركون كانت ملامح الامكنة الاجتماعية بادية واضحة في اشعارهم، وهنا نسير في دراستنا لمعرفة اثر غرض الزهد والتصوف على شعراء لم يعرفوا بهذه الاغراض، ولكنها شكلت اسلوبا مميزا لطرح افكارهم وعواطفهم، وبذا نحن ونبعد -كليا- عن مكاننا الديني والتاريخي الشعراء الذين استقلوا بغرض الزهد والتصوف، كابن عربي المتصوف وصاحب المدرسة الصوفية في الاندلس والششتري (٦٥٦هـ) [١]، لاننا لن نجد سمات حقيقية للمكان الديني في شعرهما، فاغلب هذا الشعر مختص بهذين الغرضين فهو يتحدث عن العشق الصوفي، وهجر الدنيا ولذاتها، وبذا قد يطول البحث ونحن نتحدث عن شعرهما وخصائصها بما لاطائل فيه. فضلا عن الاغراض التي طرقها المتصوفة في الاندلس، ولاسيما الشاعرين المذكورين، كالحب الالهي. او الزهد الجبري، والتصوف الروحي اغراض قديمة منزهة عن التقيد بزمان او بمكان، وان وجودها سابق على وجود النشأة الكونية[٢].

لقد ظهرت بعض معاني الزهد ، وسماته من ترك الدنيا ومجافاتها الى الاخرة فهي دار الاعمال الصالحة وفيها يلاقي المسلم ربه بما عمل فلابد من التوبة، والندم على مافات والاقبال على مصائب الدهر ومتاعبه بروح مؤمنة صابرة، عند شعراء عصر المرابطين. وهذه الاشعار وان أوردت المكان في قصائدها الا انه كان مكاناً رمزيا من خلال استخدام التضاد بالدنيا والاخرة، والانشغال بوصف كل واحدة منها على حدة[٣].

---

(١) للمزيد عن الموضوع ينظر: الادب الاندلس في عهد الموحدين: ص٢١٦-٢٢٤، الشعر في عهد المرابطين والموحدين: ص٢٨٤-٢٨٥، القصص القراني في الشعر الاندلسي: ص٨٧-٩٧، تاريخ الفكر الاندلسي: انخل بالنثيا، تعريب: د. حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥٥، ص٣٧١-٣٨٦.

(٢) ينظر: النزعة الفلسفية في الشعر الاندلسي: محمد عبد الجبار الخزرجي (رسالة ماجستير) كلية الاداب في الجامعة المستنصرية، ٢٠٠٢، ص١٢٨.

(٣) ينظر: ابن صارة -حياته وشعره-ص٨١، قلائد العقيان: ٤/٨٣٧-٨٣٨، ديوان ابن حمديس: ص٢٦٥-٢٦٦، ديوان ابن خفاجة: ص٤٤.

هذا الفقيه ابو بكر الطرطوشي (ت ٥٢٠هـ)[١] يرى في الدنيا انها ليست بدار قرار وان عباد الله الصالحين تجافوا عنها. وجعلوها موطنا لاعمالهم الصالحة. يقول:

إنّ لله عباداً فطنا طلّقوا الدنيا وخافوا الفتنا
فكّروا فيها فلمّا علِموا أنّها ليست لحيٍّ وطنا
جعلوها لُجّةً واتخذوا صالحَ الأعمالِ فيها سُفنا[٢]

واما ابو الربيع سليمان بن عبد الله الموحدي، فقد خصص في شعره بابا للزهد قال عنه: (وبه ختمت ليكون مكفرا لما ابتدأته، وشافعا فيما قدمته)[٣] وعلّ هذا الامر يعود الى انه كان والياً في بجاية ثم مرّاكش[٤]، وهذا الامر يجعله في غاية النعمة والترف متمكناً من اسباب العيش الرغيد الهانئ، فقد يرى في قبور الموتى واثارهم واعظاً مهماً لحياته المتنعمة المترفة. هذا من جهة ومن جهة اخرى؛ سعة ثقافته الادبية والدينية[٥] التي تساعده كثيرا لصياغة قصائد الزهد واثارة معاني الوعظ والتقشف من الحياة الدنيا فهي زائلة فانية، مهما طال نعيمها او دام ترفها، لنستمع لبعض زهدياته:

---

(١) ابو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن ايوب الفهري الطرطوشي. رحل الى المشرق ودخل بغداد والبصرة ثم سكن الشام مدة ودرس بها. مات في الاسكندرية سنة(٥٢٠هـ).
واثبت محققا الخريدة وهمَ العماد الاصفهاني الذي حددها بسنة (٥٦٠هـ) ،ينظر : الصلة: ابن بشكوال (ت٥٧٨هـ) تحقيق: ابراهيم الابياري، دار الكتاب المصري- القاهرة، الكتاب اللبناني-بيروت،ط١، ١٩٨٩(ترجمة ١٢٧٦)٣/٣٨٣؛ الخريدة: ٢/١٦٥؛ وفيات الاعيان:(ترجمة ٦٠٥) ، ٤/٢٦٢-٢٦٤؛ المُغرب: ٢/٤٢٤.

(٢) خريدة القصر وجريدة العصر:٢/١٦٥ ، المُغرب في حلى المغرب:٢/٤٢٤.

(٣) ديوانه: ص ١٩.

(٤) ينظر: ديوانه: مقدمة المحققين: ص ٥، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية: ابو العباس احمد بن احمد الغبريني (ت٧٠٤هـ) تحقيق: رابح بونار، الجزائر، ١٩٧٠، ص ٣٣٩-٣٤٠، الوافي بالادب العربي في المغرب الاقصى: ١/١٩٦.

(٥) ينظر: الامير الشاعر ابو الربيع الموحدي: د. عباس الجراري، الدار البيضاء- المغرب، ١٩٧٤، ص ١٤١-١٤٣.

يانفسُ حسبكِ ما فرطتِ فَازدجري ... عَن الذنوبِ فبانَّ القبرَ مثواكِ
خافي الالهَ لما قدمتِ من زللٍ ... واعصي هواكِ فإنَّ اللهَ يرعاكِ
إنَّ الهوىٰ قلما تُجدي هوادتُهُ ... وهو الذي عَن سبيلِ الرشدِ أقصاكِ
لشدةٍ ما تعلمينَ الفرقَ بينهما ... ما كانَ احراكِ بالأجدىٰ وأولاكِ
إلىٰ مَ تلهينَ عَن قولي مغالطةً ... وتوقنينَ بأنّي غيرُ أفّاكِ؟!
أصغي إليّ فَما في الأرضِ مِن أحدٍ ... ألقىٰ إليهِ صريحَ النصحِ إلّاكِ
توبي إلىٰ اللهِ إنَّ اللهَ يقبلها ... وأسعي بجهدكِ في تحسينِ عُقباكِ[1]

انه داعي النصح، وتقديم الوعظ من انسان- قبل كل شئ- رأى تقلبات الحياة في الناس امامه في سرهم وجهرهم في صبرهم وجزعهم، في امنهم وخوفهم، ولذا لابد من الخوف من عاقبة الامور، وغدر الدنيا التي تركها من مضى الى لقاء ربه:

تركَ الماضونَ دارَهُم ... فزلنا عَلىٰ خَطرِ
وكَذا نَمضي ونتركُها ... للذي يأتي عَلىٰ الأثرِ
فليكُنْ مَن جاءَ يسكنُها ... بعدنا مِنها عَلىٰ حَذرِ[2]

ومن الشعراء الذين نقف في شعرهم على معاني الزهد. وترك الدنيا وملاذها ابو حيان، وهذه المعاني واضحة تمام الوضوح، فما الذي يجعل نحويا فقيها يزهد في حياته، والمفروض انها حياة طيبة بالايمان عامرة بالعلم؟ وما الذي يجعل اشعاره باكية شاكية كلما تقدم به العمر، والمفروض انها تكون سعيدة مفرحة وقد صدرت عن حياة عرفت مخافة الله ورعت امانته حق الرعاية ؟؟ ان نظرة متأملة في زهديات ابي حيان تجعلنا نردها الى اسباب كثيرة منها:

١ .الكهولة والشيخوخة .لقد عاش ابو حيان مدة طويلة في حياته منذ سنة (٦٥٤هـ) الى وفاته (٧٤٥هـ) ، وهي حياة تكشف عن تجربة، وتمر بمعاناة لايمكن ان يصورها الا الشعر، ولاتفيض بها الا ابياته الحزينة الموعظة.

(١) ديوانه : ص١٥٢.
(٢) م.ن.: ص ١٥٣.

٢. **فقد الاهل والوطن:** لاسيما انه غادر الاندلس مبكرا وهو لايزال صبيا في سنة (٦٧٨ او ٦٧٩هـ) فبقيت عوامل صباه وطفولته، ذكرى حزينة امام عينيه طول حياته، ومن ثم سقوط بعض مدن هذا الوطن، وبكاء اهله عليه وهو بعيد عنهم ما كان ليقف حائلا بين ابي حيان وبين هجر الدنيا وترك متاعها، وغير ذلك من معاني الزهد.

٣. **رحلاته.** فقد رحل ابو حيان الى الحبشة وبعض الاقطار الاعجمية، وزار الشام ومكة المكرمة ثم استقرت به الحال في مصر، التي لم يأمن فيها جوار اهلها، ولم يرفل بحسن الاقامة معهم، وهذا امر مهم ترك الشاعر في شكوى، وخلفت له بلوى اكبر من بلواه السابقة.

٤. **شيوع التصوف وازدهاره في عصره** وقد ادت مواقفه الخاصة مع بعض ائمة المتصوفة الى ان يرميهم بالالحاد والزندقة والنجاسة[1] وهو امر يجلب الحسرة ويورث الندم على ما شاع من خطأ وما كثر من جهل عم وطم ومن هنا ربما لايكون الا اليه – عز وجل– مهربا، والا لجواره–سبحانه – مفرا بعدما عظمت الذنوب وكثر البلاء.

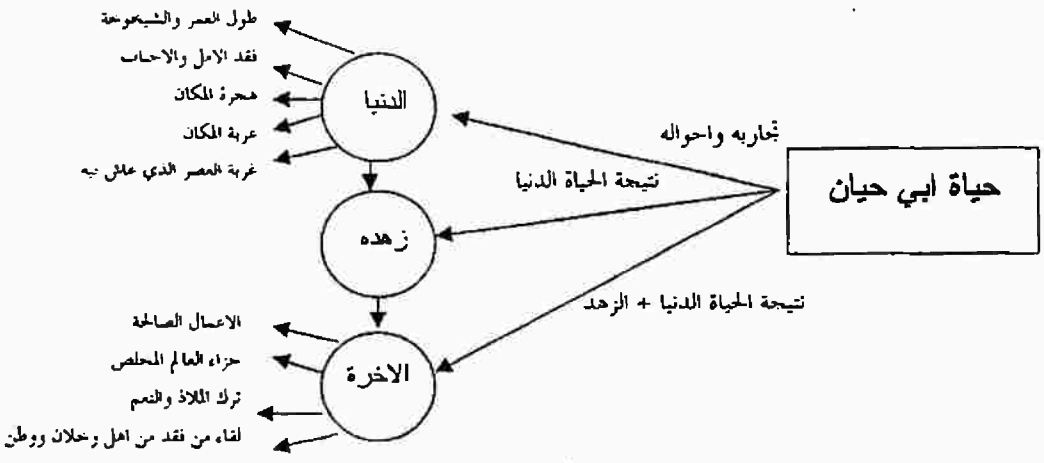

(مخطط تشكيلي يوضح مسار العلاقة التي مر بها ابو حيان في حياته مع زهده واثرهما –الحياة والزهد– على مصيره الاخروي)

(١) ينظر: ديوانه: مقدمة المحققين: ص ٨١.

واذا ماجئنا الى شعر ابي حيان ومعانيه الزهدية، وجدناه صفحة ناصعة بـانين شـاعر حكيم، وشكوى انسان مرير. يقول وقدا زادته الحياة والعلم تجاربا لسوء الايام وتقبلها بين راحة وحزن، وانه لاينال احدا راحة مهما كان صاحب علم، وخبرة في امـور الحيـاة وتصرفات الدهر:

لَقد زادني بالنـاسِ علماً تجـاربي ومـن جـرَّبَ الايـامَ مثلـي تعلَّمـا
وإني وتطلابي مـن النـاسِ راحـةً لكـالمبتغي وسـطَ الجحيـمِ تنعّمـا
سـأزهدُ حتّـىٰ لاأرىٰ لـي صاحبـاً وأنجـدُ حتّـىٰ لا ألاقـي متُـهما[1]

ولم يكتف بتجارب الحياة الخؤون، وايامها البائسة ان تكون له عظة واعتبار، وانمـا ذهب الى اكثر من ذلك عندما يتنكر القبر المظلمة، وان هذه الظلمة جعلته زاهدا فـي المال والمرتبة الدينيةاو الاجتماعية او السياسية، مع العلم انه عليها قادر، وبادارة امرها بصير:

تذكّـري للبلـىٰ فـي قعـرِ مُظلمـةٍ أصَـارني زاهـداً فـي المـالِ والرتـبِ
إنّـي أُسُـرُّ بحـالٍ سـوفَ أسـلبها عمّـا قريـبٍ وأبقـىٰ رمّـةَ الـتربِ[2]

لقد اوضحنا في كلامنا السابق، وفي مخططنا الذي رسمنا مدى ارتباط زهد ابي حيـان بالاخرة، بعدما يئس من الدنيا واهلها، لكونها لا تحافظ على مال او ولد او جاه، وربمـا لا تعطي لكل ذي حق حقه وان قصيدته الاتية، ما يدل دلالة حميمة على تبيان اواصـر الارتباط وكشف معاني الدارين- الحياة والاخرة- وفي معانيها ما يعظ. ويذكر ويسـلي ويصبر لابي حيان ولغيره يقول:

(١) من شعر ابي حيان الاندلسي: تحقيق: د. احمد مطلوب، د. خديجة الحديثي، مطبعـة العـاني- بغـداد، ١٩٦٩، ص ١٢٦.

(٢) ديوانه: ص ١١١ ، من شعر ابي حيان: ص ٥٠-٥١ الرمة- بالكسر-العظام البالية.

يومُنا يشبهُ أمسِ ... مثلما نُصبحُ نُمسي
إنَّ هذي الحياةِ ... ما تُساوي عشرَ فلسِ
فمتى يُنقلُ شخصاً ... آمناً لدارِ قُدسِ
لجنانٍ غاليات ... عَريتْ من كُلِّ بؤسِ
ما تلذُ العينُ فيها ... واشتهته كلُّ نَفسِ
مع ولدانٍ وحورٍ ... قاصراتِ الطرفِ نُفسِ
لم يكنَّ لهنَّ طمثٌ ... لا بجنٍّ ولا إنسِ
عُربٌ أبكارُ حسنٍ ... أنسٍ ليستْ بشمسِ
نورُهنَّ الدهرُ باقٍ ... لا كبدرٍ ولا شمسِ
هُنَّ من إيجادِ ربّي ... أنشئتْ من غيرِ جنسِ[1]

انها علاقة ابدية بين حياة ابي حيان وزهده، وما اعده الله للمتقين. وابو حيان منى نفسه بهذا النعيم، فراى في الزهد هروبا من حياته الشائقة، وراى في الاخرة نعيما قريبا، ومكاناً ينسيه وما كان في الدنيا فراح يتمثله ويصف نعيمه، راجيا ان يكون له جزاء وان ينعم به عاقبة.

اما عن اماكن الديانة النصرانية؛ فقد تناثرت هنا وهناك في قصائد الشعراء فمنها ما تمازج مع ذكر الديانة العربية[2] فمنها ما ذكر لوحده ليدل على شكوى او زهد او مدح او غزل، وكان الدير-المكان -أكثر ماذكر من هذه الامكنة[3]،والدير يختلف

(١) ديوانه: ص٢٢٥-٢٢٦ . على الرغم من ان ابن الخطيب مرّ بالتجارب الحياتية التي مرّ بها ابو حيان كالغربة والفتن التي اودت الى قتله وفقده اهله- ولده ووالداه في الحرب- إلا انني لم اكتشف معاني زهد حقيقية في شعره، وعلّ هذا الامر عائد الى صفاته التي قيل عنها انه كان: (معتداً بنفسه، شموخاً، بارزاً، في جل قصائده ...)،مقدمة محقق ديوانه: ص ١٣١، وهذه صفات لاتدع لشاعر ان يتنازل عنها في اخريات حياته، مهما كانت الظروف، وارجو ان اكون مُخطئاً.

(٢) ينظر: ديوان ابن خفاجة: ص ١٥٥.

(٣) ينظر: ديوان الحكيم: ص ١٠٣-١٠٤، ديوان ابي الحسن الششتري: تحقيق : د. سامي علي النشار، مطبعة المعارف-الاسكندرية، ط١، ١٩٦٠، ص ٤٢، ديوان ابن الخطيب: ص ٥١٣-٥١٤، الاحاطة: ٣٩٩/٤.

باختلاف مواضعه؛ وهو محصن بسور مكين شاهق[1]،كما يشترط (ان يكون فيه كنيسة يصلي فيها الديرانيون. كما يشترط فيه ان يحتوي على صوامع يستوعب من فيه من رهبان)[2].

وعن دلالات المكان الديني؛ فكانت كثيرة ومتنوعة فمنها ما يدل على الفرح والابتهاج كرؤية هلال الفطر[3]، او الاحتفال بعيدي الفطر والاضحى[4]أو حلول شهر رمضان المبارك على المسلمين[5] بما يحمله من طاعة وتقوى. ومن دلالات ما يدل على العظمة كالقسم ببيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وبكعبته المشرفة[6]، ومن الدلالات مايحمل في طياته رزقاً وأملاً في حياة هانئة، لاسيما اذا انيطت بالشاعر وظيفة دينية[7]، فنراه يذكرها في شعره مثمنا ومعظما ويبكي لفقدها اذا سلبت منه لا حول ولا قوة.

ومن دلالة المكان الديني الغربة، وهذه الغربة نتجت حينما احتل النصارى الاسبان مساجد المسلمين وجوامعهم وقلبوها كنائس فضاقت بهم الارض بما رحبت، وولوا عن مدنهم باكين متأسفين على جور الزمان. وظلم الاعداء. وفي النصوص التالية ما يكفينا العظة ويثير فينا الحزن، ويرد على من ادعى ان الاندلس شهدت جوا من التسامح الديني... لقد شاعت هذه الدلالة في القصائد الطوال، وفي القصائد التي اخذت صيتا مسموعا. واشتهرت شهرة كبيرة في الاندلس وغيرها، ففي سينية ابن الابار الذائعة الشهيرة التي استنجد بها بالامير ابي زكرياء الحفصي والتي مطلعها:

أدركْ بخيلَك خيلَ اللهِ أندلسا إنَّ السبيلَ إلى منجاتِها دَرَسا[8]

---

(١) ينظر: الديارات : ابو الحسن علي بن محمد المعروف بالشابشتي (ت٣٨٨هـ): تحقيق: كوركيس عواد، بغداد، ١٩٦٦، ص ٤٩.

(٢) م. ن: ص ٤٩.

(٣) ينظر: ديوان ابن خاتمة: ص١١٦.

(٤) ينظر: ديوان ابن فركون: ص١٩٠-١٩٢، ص١٩٣-١٩٤، ص١٩٥-١٩٦، ص١٩٧، ص١٩٨-٢٠٠، ص٢٠١-٢٠٣، ص٢٠٤-٢٠٦، ص٢٠٧-٢١٠.

(٥) ينظر: ديوان ابي حيان: ص١١٤.

(٦) ينظر: م.ن.: ص٢٢٥.

(٧) ينظر: ديوان القيسي: ص٢٤٣، ص٢٧٧، البسطي اخر شعراء الاندلس: ص١٨٧، ص١٩٤،ص١٩٥.

(٨) ديوانه: ص ٣٩٥.

يقول فيها عن مأساة المسلمين في اسلامهم، واماكن عبادتهم و كيف تحولت الى بيع وكنائس وكيف تبدل نداء الصلاة فيها الى اجراس الكنائس، ودنات عبادتهم:

يا للمساجدِ عادتْ للعِدىٰ بيعاً ... وللنداءِ غَداةَ اثناءَها جَرسا
لهفي عليها إلىٰ اَسترجاعِ فاتحها ... مدارساً للمثاني اصبحتْ دُرُسا[1]

وتبلغ هذه الغربة مبلغا كبيرا عند الرندي، ففيها صراخ عام، وهدير شامل، فقد رثى الشاعر الاندلس جميعا، مدنها، اناسها، اسلامها- تقوى وصلاحا وخوفا من الله- وشمل هذا الاسلام العبادات واماكنها وما حل بها، وكيف تبدلت وتغربت فحس المسلمون بغربتهم وفشلهم في دفاعهم عن ارضهم... ولكن لات ساعة مندم:

تبكي الحنيفيةُ البيضاءُ من أسفٍ ... كما بكىٰ لفراقِ الإلْفِ هيمانُ
علىٰ ديارٍ من الأسلامِ خاليةٌ ... قد اسلمت ولها بالكُفرِ عُمرانُ
حيثُ المساجدُ قد صارتْ كنائس ما ... فيهنَّ إلّا نواقيسٌ وصُلبانُ
حتى المحاريبُ تبكي وهي جامدةٌ ... حتّىٰ المنابرُ تَرثي وهي عيدانُ
ياغافلاً ولهُ في الدهرِ مَوعظةٌ ... إن كنتَ في سِنةٍ فالدهرُ يَقظانُ[2]

واذا ما انتقلنا الى القرن التاسع الهجري وهو آخر قرن نقف عنده في دراستنا، وجدنا القلوب قد تغيّرت والنفوس تبدّلت، فلم يعد القاضي هو الناضي، ولم يكن الفقيه هو الفقيه. لقد اصاب الهلع والجزع والخوف على المناصب تلك القلوب والنفوس وهي في مهامها الخطرة، فغيرت الاحكام وسادت الرشوة وعم الضعف والانحلال المؤسسات الاجتماعية والدينية مثلما عمت في المؤسسات السياسية والادارية والعسكرية... كل هذه الاحوال يخبرنا عنها بصورة دقيقة ومن قرب شاعرنا القيسي البسطي لانه كان قاضيا وترك هذه المهمة، ولانه راى بعينه ما ساد من طمع في المناصب وخوف من التنصر التي تعد من الاسباب الرئيسة لسقوط مملكة غرناطة في حقب الاندلس الاخيرة.

ولم تقف اشعار القيسي عند المساجد والجوامع ، وكيف حل بها الفساد، وانما هاجم الخطباء والقضاة والفقهاء.[3] لانهم عطّلوا شريعة الله، وتركوا صريح الكتاب ومالوا

(١) ديوانه: ص٣٩٦.

(٢) شعر الرندي: ص ٧٣٦.

(٣) ينظر: ديوانه: ص ٢٢٤، ص ٢٤٣، البسطي اخر شعراء الاندلس: ص ١٩١-٢٠٥.

إلىٰ الهوىٰ في احكامهم يحرصون في ذلك على ارضاء الحكام، ويخافون علىٰ انفسهم ومناصبهم.

واما عن الاماكن الدينية والمؤسسات التي كانت تقام على الاسس الدينية كالقضاء وامور الفقه... فان القيسي انتبه الى اهمال الدين وضياع مؤسساته عقب الحوادث والكوارث التي شهدها المسلمون في ساحات الحرب، فهو بعد كارثة اشدونة (سنة ٨٦٧هـ)، اخذ يفكر(في مصير الاندلس المظلم وينحو منحى الشاعر الزاهد* ابن العسّال وغيره، بل: انه اربى على من سبقه بتحليل الاحوال وذكر الاسباب ومنها اختلاف كلمة المسلمين وتنازع رؤوسائهم على الملك، وتهافتهم على اكل اموال الناس بالباطل وانعدام العدل الذي هو اساس العمران، واهمال الدين ومؤسساته)[1] يقول عن الامكنة الدينية وما حدث فيها:

فَـوا اسـفاً للديـنِ أُهمـل حقُّـهُ ... وقويلٌ منـهُ السترُ بالكشـفِ والـهتكِ
وهُـدَّتْ مبانيـهِ وُدكّـتْ سـفاهةً ... فساءتْ بمـا تُبـدي مـن الـهدِّ والـدكِّ
أفيقوا أفيقوا وأهجـروا النـومَ إنّـهُ ... حَديـثٌ صحيـحٌ مـا أقـولُ ومـا أحكي
ومن كانَ فيما قد مضىٰ الدمعَ باكيـاً ... ففرضٌ عليـهِ بـاقي الـدمِ أنْ يبكـي[2]

والذي يبدو ان احدا لم يستجب لنداء القيسي ولم ينصت مسلم لندائه، فراح الجميع في سنة عميقة لم توقظهم منها الا اوامر المحتلين، وزجر الغاصبين نتيجة الضعف والانحلال والاهمال. يقول في المساجد التي اشرف عليها الاحباس تعطي الارزاق وتوزع المؤن على القائمين عليها، ومن يدخل في عطاياها من مقرئين ومدرسين وفقهاء وقضاة:

---

* ابن العسال (ت٤٨٧هـ) الشاعر المعروف صاحب الابيات المشهورة في قرطبة :
يا أهلُ أندلس حثّوا مطيّكم ..... (الابيات)، راجعْ عنه الروض المعطار: ص ٩٠، نفح الطيب: ٤٤٧/٤. اما عن زهد القيسي فقد سبقنا فيه القول د. قاسم الخصيني: (كان- زهدهُ- نوعاً من محاسبة النفس في وقت كثر فيه الاحساس بدنو الموت...)الشعر الاندلسي في القرن التاسع الهجري: ص ٢٤٧، ولذا ابتعدنا عن ذكره في كلامنا عن الزهد.

(١) البسطي اخر شعراء الاندلس: ص ١٧٣.

(٢) ديوانه: ص ٣٦٤، البسطي اخر شعراء الاندلس: ص ١٧٤-١٧٥.

يا أهلَ بسطةَ مـــا لكُـم فـــي غفلـــةٍ عمَّـتْ وأمـــن مـــن حلـــولِ البـــاسِ
ومســـاجدُ اللهِ التـــي فـــي مصركُـــمْ ضـــاعتْ لغفلـــةِ نـــاظرِ الأحبـــاسِ[1]

كما خاطب الرئيس القاضي الماجد ابا عمرو بن منظور[2] في شان الاحباس، ويؤكد على اهمال المساجد وضياعها :

وللمســـاجدِ يســـري أمـــرَ ضيعتِـــها إنَّ حقَّـــها دونَ احبـــاسِ البـــلادِ نُســـي
وقَـــد اتتـــكَ بمـــا تلقـــاهُ شـــاكيةً مـــع أنَّـــها وصفـــت بـــالعيِّ والخَـــرَسِ
ومشـــرفاً وشـــهيدينِ انظـــرنَّ لَـــها وناظراً طـــاهرَ الأعـــراضِ مـــن دَنَـــسِ
لازالَ جـــانبُ ذاكَ المجـــدِ مرتفعـــاً مبلّـــغَ القصـــدِ منـــهُ كُـــلُّ مُلتمـــسِ[3]

وتطالعنا ونحن نتحدث عن الامكنة الدينية، وسقوطها وغربتها على المسلمين الذين الفوا ارتيادها واداء مناسكهم بها تلك القصيدة الرائعة التي قيلت في رثاء الاندلس عموما بعدما سقطت كل مدنها ، وجميع بلدانها وفيها يعرج الشاعر* على المباني التي هدمت والصوامع التي ازيلت والمساجد التي تغيرت بتأسف وتحسن فهو عندما يذكر سقوط رندة يذكر تفرق المسلمين فيها ، وكيف تسلم الصليب امرها ودقت نواقيسهم فيها ، يقول:

(١) ديوانه ، ص٢١٩، البسطي اخر شعراء الاندلس :ص٢٠٤.

(٢) ابو عمر بن منظور القيسي (ت٨٨٨هـ او ٨٨٩هـ)، قاضي الجماعة وامام جليل. ينظر: ازهار الرياض: ٢٢٣/٣.

(٣) ديوانه: ص ٢٧٣، البسطي اخر شعراء الاندلس: ص ٢٠٥.

* تشير معظم المصادر ان القصيدة لشاعر مجهول: وانظر: دراسات اندلسية في الفكر والفلسفة والتاريخ والادب: د. الطاهر احمد مكي، دار المعارف -مصر، ١٩٨٠، ص ٣٦٢، الادب الاندلسي موضوعاته وفنونه: ص٥٥٥، والشعر الاندلسي في القرن التاسع الهجري: ص ٢٠٢، واما نسبتها لابن خاتمة (ينظر: احتفالات الموالد النبوية: ص ٣٥) فهو غلط تاريخي لان الشاعر توفي (٧٧٠) ولم يشهد سقوط الاندلس.

وفـرّقَ شـملُ المؤمنيـنَ لهيبـهـا وقطـعَ مـن أرحامـهم زمـهريرُها
تسـلّمها حـزبُ الصليـب وقادَهـا وكـانتْ شـروداً لايقـادُ نفورُهـا
وقـد ذهبـتْ اديانُـها ونفوسُـها وقـد دُثـرتْ تحـتَ السباءِ دثورُهـا
فبادَ بِها الأسـلامُ حتّـىٰ تقطّعـت مناسـبها واسـتأصل الحـق زورُهـا
واصبحتِ الصلبانُ قـد عبـدت بـها تماثيلـها دونَ الاءلـهِ وصورُهـا
لقـرعِ النواقيـسِ اعتلـىٰ بمنارِهـا كرانـه اصـواتٍ يـروعُ صريرُهـا[1]

والشاعر فيها تأثر بمواطن من قصيدة الرندي الذائعة التي مر بنا الاستشهاد بها كقوله:

فوا حسرتا كم مـن مسـاجدَ حوّلـتْ وكانتَ إلـىٰ البيـتِ الحـرامِ شـطورُها
وواسفاكم مـن صوامـعَ أوحشـتْ وقَـد كـانَ معتـادُ الآذانِ يزورُهـا
فمحرابُها يشـكو لمنبرِهـا الجـوىٰ واياتُـها تشـكو الفـراقَ وسـورُها[2]

انه صراخ وبكاء ونحيب، انها دموع وشكوى، انه بلاء عم الامة الاندلسية في مساحي حياتها المختلفة من دين وفكر وسياسة.

المكان الحضري.

لايعرف المرء من أي الابواب يدخل ليتحدث عن حضارة الاندلس؟ ولا ندري كيف يسخر عنواناتها- وان كثرت- لتغطي هذا الموضوع؟!

وعلّ ما يزيد من هذه الحيرة ، ويثير تلك التساؤلات المختلفة، هو المجيء بهكذا حضارة، وهاته المنجزات الابداعية المبتكرة التي شملت كل مظاهر الحياة في ذلك البلد الجميل، من قبل اناس دخلوه باسم الدين الاسلامي الحنيف، وحملوا تعاليمه السمحة، وكان اهم عمل- عندهم- هو ان تشمل رحمة الاسلام الارض، وان ينشر العدل ويعم الخير، ولم يكونوا يعولون على سمات الحضارة واظهار الوانها الا ما يرتبط بدينهم، ويتصل بدعوتهم.

---

(١) قصيدة رائعة في رثاء الاندلس لشاعر أندلسي مجهول: عبد الرحمن حجي، مجلة المناهل المغربية، ع٢٨، ١٩٨٣، ص ٣٤٣-٣٤٤.

(٢) م. ن : ص ٣٤٤.

لقد اتسعت مظاهر الحضارة والعمران في الاندلس لتشمل جميع الفئات الاجتماعية، وتحيط بكل اسباب الترف والتنعم التي توفر للفرد حياة متنعمة مطمئنة الى مدة طويلة من تاريخ حكم العرب والمسلمين في تلك الديار، ولكن بوادر الانحلال والضعف لاسيما بعد عصر الموحدين، ومن ثم الوقوع في دائرة الحرب والمواجهة مع الاعداء في عصر بني الاحمر، جعل الامة في محن، وازال عنها نعيمها وترفها الذي شهدته من قبل. وعلى اية حال؛ ان كل اسباب الحضارة، وقيام عوامل التمدن، وطغيان الحياة الرخية على الاندلس واهلها عائد الى المكان، الى بيئتهم الباسقة التي منحت جمالا الاهيا بديعا، وفي ذلك يقول المقري: (خصّ الله بلاد الاندلس من الربع وغدق السقيا ولذاذة الاقوات، وفراهة الحيوان، ودرور الفواكه، وكثرة المياه ، وتبحر العمران، وجودة اللباس، وشرف الانية، وكثرة السلاح، وصحة الهواء، وابيضاض الوان الانسان، ونبل الاذهان، وقبول الصنائع، وشهامة الطبائع، ونفوذ الادراك، واحكام التمدن، والاعتمار بما حرمه الكثير من الاقطار مما سواها)[1]

ان الاستطراد في الحديث عن حضارة الاندلس وما انجزه المسلمون هناك سيطول ويطول، وان ما يهمنا هنا هو الوقوف على المكان الحضري وانماطه وابتكاراته في الشعر الاندلسي، ومدى تصوير هذا الاخير لعوامل النهضة العمرانية، وملامح الهندسة البنائية التي عدت شاهدا مكانيا ورمزا تاريخيا على ابداع وابتكار بقيا خالدين الى يومنا هذا.

وسنحاور الامكنة الحضرية التي عثرنا عليها في الشعر الاندلسي. والاصناف التي كونت اسس الجوانب المعمارية والهندسية في تلك البلاد عن طريق المحاور الآتية:

١-وصف المباني والجوانب المعمارية العامة (القصور، والقلاع، والمنارات).

٢- الحمامات .

٣- اماكن هندسية عامة.

٤- اماكن هندسية مبتكرة.

٥-اماكن الطبيعة الحضرية (المتنزهات والمتفرجات).

لايخفى على أحد اهمية القصور السلطانية في جلب اهتمام الشعراء والادباء في كل زمان ومكان؛ فهي من جهة، ترتبط بالممدوح او الملك او الامير الذي انشأها وهو في

(١) نفح الطيب: ١٢٦/١، وينظر : الشعر والبيئة في الاندلس: د.ميشال عاصي. بيروت، ط١. ١٩٧٠. ص٩.

الغالب ممدوح هؤلاء الشعراء والادباء. ومن جهة اخرى، هي مرتبطة بتاريخ الامة وحاضرها وزهوها التي يعيش في كنفها الشاعر، وبحيا تحت رعايتها الاديب. وقصور الاندلس عامرة زاهية في عصورها كافة وعلى عهود ملوكها جميعا.

هذا الوزير الكاتب ابو محمد بن عبد الغفور(من شعراء عصر المرابطين)[1]، يمدح الامير يحيى بن سير[2] ووالي اشبيلية حين ارتحل الى قصره بها، وهذا المدح متصل بالمكان- قصر الممدوح- وما يتعلق به لما بينهما- الممدوح والقصر - من وشائج لاتخفى من عظمة مكان الممدوح، واهمية هذا المكان في جعله في المرقبة العليا، وانه صاحب القدح المعلى في كل شئ، وعن اية امر، يقول:

هَـذا محلُّـكَ يـا أمـيرٌ فـأعمرهْ متصـلَ السـرورْ
قَصـرٌ تَضـاءلتِ القصـو رُ لَهُودانـتْ بـالقصورْ
فَاسـحبْ بـهِ ذيـلَ العُـلا ءِ مـدى الليـالي والدهـورْ
وانعـمْ بـاحرازِ الأمَـا نـي فـي الوفـورِ وفـي الظـهورْ[3]

ولم ينسَ الحكيم في مدحه للحسن بن علي بن يحيى الصنباجي [4]، ان يذكر قصر الممدوح ، وان يسمه بالكبر بحيث ان الدنيا بسعتها وكبرها ضاقت وقصرت عن احتواء مكانه، او معرفة قطره يقول: -

إذا سقىٰ اللهُ ارضـاً صـوبَ غاديـةٍ فليسقِ قصرتَ صـوبَ الـراحِ ماشِـربا
قصـرٌ تقـاصرتِ الدنيـا بأجمعهـا عنه وضـاقَ مـن الأقطـارِ مارحبـا[5]

---

(١) هو ابو محمد بن عبد الغفور بن ذي الوزارتين ابي القاسم محمد بن عبد الغفور صاحب المعتمد. وابو محمد كاتب الامير علي بن يوسف بن تاشفين.ينظر: قلائد العقيان: ٢/٤٦٦-٤٦٧، الخريدة،٢/٤٢٤، المُغرب: ١/٢٤١.

(٢) يحيىٰ بن سير بن ابي بكر، ولّي اشبيلية بعد ابيه عام ٥٠٧هـ، وعزل عام ٥٠٨هـ، فكانت ولايته سنة واحدة. ينظر: البيان المُغرب: ٤/١٠٦.

(٣) قلائد العقيان: ٢/٤٧٣.

(٤) ولّي المهدية سنة (٥١٥هـ) وخسر ملائكة (٥٤٣هـ) حين استولت جيوش روجار الصقلي على المهدية. ينظر: الخريدة: ١/١٩٥؛ اعمال الاعلام : ص ٧٧-٨٤.

(٥) ديوانه: ص ٥٣.

وفي عصر الموحدين ، ربما نعود الى قصيدة الرصافي التي استشهدنا بها في مواقع مختلفة من بحثنا هذا ، نستشهد بها على مكان عبد المؤمن بجبل الفتح وابتنائه القصور العظيمة اثناء نزوله بهذا الجبل، وهذا الامر لم يكن ليفوت على الرصافي فرصة مدحه بهذا البناء العظيم، يقول:

يا دارُ دارُ أميرِ المؤمنينَ بسفـ ـحِ الطودِ طودِ الهُدىٰ بُوركتِ في الدورِ
ذاتُ العمادين من عزٍّ ومملكةٍ علىٰ الاساسينِ من قُدسٍ وتطهيرِ
ماكانَ بانيكَ بالواني الكرامةِ عَن قصرٍ علىٰ مجمعِ البحرينِ مقصُورِ
مواطئ من بنيٍّ طالَ ما وُصِلَتْ فيها الخُطىٰ بينَ تسبيحٍ وتكبيرِ[1]

أمّا في شعر ابي جعفر بن سعيد ، وهو شاعر انعكست اثار الحضارة في عصره انعكاسا واسعا، يقول في قصر من قصور الخليفة عبد المؤمن وقد رحل عنه:

قصرَ الخلافةِ لا أُخليتَ من كرمٍ وإنْ خلوتَ من الأعدادِ والعددِ
جُزنا عليهِ فلم تنقصْ مهابتُه والفيلُ يخلو وتبقىٰ هيبةُ الأسدِ[2]

إنّ كل نص من النصوص السابقة ماكان ليقال حزافة، او ليمدح او ليصف... فحسب، بل؛ حمل كل نص دلالات اخرى وقف خلفها الشاعر وهو يمدح اويصف. وان الالفاظ او الاوزان، او الكلمات التي جاءت في كل نصٍ جمعت تلك الدلالات وعبرت عن عواطف فنية واحاسيس كامنة، بزغت الينا عبر هذه الوثيقة- الشعر - وربما سائل يسأل- وذلك من حقه- كيف اختفت عواطف الشاعر؟ وكمنت احاسيسه خلف نصوص مدحية غايتها ابراز هيبة الممدوح وعظمته عن طريق افعاله، لاسيما اماكن خلافته وقصورها؟؟ ولكي نجيب عن هذا السؤال نقول:

إنّ النص الاول صدر عن اديب كاتب وزير، وزر ابوه للمعتمد. ولذا رأى في ممدوحه يحيى مارأه والده في المعتمد، فاراد ان يعود الممدوح الى اشبيلية وقصرها وهو سابقا قصر المعتمد حتى لاتتكرر مأساة اشبيلية ثانية، ويظل يبكي اهلها، مثلما

(١) ديوانه: ص ٨٨-٨٩.
(٢) شعره: ص ١٣١.

حدث في فاجعة المعتمد وشكواه، ولذا كانت الفاظ الشاعر واضحة فيمثل قوله: (هذا محلك، اعمره، احرز المعالي، ونل الاماني...).

وفي النص الثاني: كان الحكيم حكيماً عندما قصر المكان في النص على قصر الممدوح، لانه عانى الغربة والمرار وهذا ما دفعه للهجرة بعدها كما نعلم، ومن هنا كانت سعة القصر ورحابته امام تقصيرالدنيا وضيقها مما يوحي بانها ماعادت تحتوي الشاعر او توليه اهتماما، فاراد عن طريق المكان ان يخبر الممدوح ان قصره الشاسع الواسع، للاسف لم يستطع ولن يستطع ان يحوي شاعرا ضعيفا تقاذفت به الايام، واحتنكته الظروف.

أمّا النص الثالث؛ فصدر عن شاعر فنان ومصور بارع، فهو من حيث فنية القصيدة، واحكام بنائها لابد ان يذكر افعل الممدوح ، ومايميزه عن غيره من الناس ، وعل هذه المباني تقف في عين الشاعر اول ما تقف لهاتيك الافعال والامتيازات. ومن ثم اراد ان يقر ان هذا القصر وهذه الديار هي مركز العظمة وان الاتين من بعيد لابد ان يروا تلك الديار، وهي تحكي صموداً وتروي بطولة، وهي -القصر والمباني- باقية تاريخيا وحضارة لذلك المنشأ في حين انّ النص الاخير؛ حكى اغتراباً مريراً من شاعر اغترب في وزارته ووظيفته... وعشقه لمحبوبته،وفي فشله ان تكون له زوجة ورفيقة حياة مع العلم انها ظلت له عاشقة ، واياه طالبة... فليس من الغريب ان يدل المكان على صاحبه وان يحكي تجاربه، فيبقى مكان الاسد رمزا للهيبة والقوة حتى ولو خلا منه. وهذا ما احسن ابو جعفر في التعبير عنه.

هذي هي وظيفة الشعر في نقل المشاعر والاحاسيس العميقة، والتعبير عن خفايا النفس الانسانية- اينما كانت وهذا هو المكان؛ انه ترجمة فعلية لتلك المشاعر والاحاسيس، وكشف معنوي لتلك الخفايا بكل صغائرها، وعظائمها.

وعند ابن الابّار تختلف الرؤى التشكيلية للنص الشعري، فقصر المراة التي تغزل بها لم يحدد، ولم يوصف الا بمقدار ما يظهر تنعمها وترفها، ورخاء عيشها، وما يظهر عفة ابن الابار وزهده في نيل المحارم او هتك ستر العفاف والحشمة. فما هي الا زورة عابرة، وهيام مشروع من:

يـا ريـمَ قَصـرٍ بـهِ أُهيـمُ الصبـحَ مـا لَـم تَلُـح بـهيمُ
سَـرتُ ولمـا يسـرِ غرامـي لا غـروَ أن يُلـزمَ الغريـمُ
يـا حبـذا مـنزلٌ خصيـبٌ ألـوى بـهِ مـنزلٌ خصيـمُ
طـابتْ بارجائـهِ الأمـاني كأنـهُ الركـنُ والحطيـمُ[1]

وبلا منازع، ان مظاهر الحضارة والعمران منتشرة في النص، وان هذه المحبوبة سكنت مكاناً ممنعاً فزادت تعلق الشاعر وابقت حيرته على عادة اهل العشق وحكايات اصحاب الغرام.

اذا ما وصلنا الى بني الاحمر لاستكشاف اعمالهم الحضرية واثارهم العمرانية وجدناها افعالاً واعمالاً تستحق الثناء والعرفان.لقدأفاض الباحثون الفضلاء[2] في الحديث عن موقع غرناطة واثرها الحضري وكيف بلغت من الاتساع واصبحت اغنى مناطق الاندلس عندما بدأت المدن الاندلسية تتساقط بيد الاسبان، وهذه الافاضة في الحديث شملت قصور تلك المدينة ومتنزهاتها وحماماتها ومعالمها الاثرية معتمدين في كل هذه الاحاديث على ما بقي من اثار وعمران وفكر، حكى تلك الحضارة، وقصّ علينا اخبارها، ويعد الشعر الاندلسي الذي ظهر في هذه المدة اهم تلك الوثائق التأريخية الحضرية التي بقيت شاهد متكلما على طول الزمن وتبدله وتغيره.

ابن الجياب الغرناطي من الشعراء الذين كانت لهم وقفة في تأمل حضارة غرناطة، ووصف مظاهر تلك الحضارة لا سيما قصرها الحمراء، ومازالت اشعاره باقية خالدة منقوشة على جدران ذلك القصر* وهو مقدم على ابن الخطيب وابن زمرك، بل ربما متفوق عليهما لانه (كان اسبقهم الى ذلك، فهو استاذهما ومعلمها لهذا النمط من الشعر)[3] ، وابن الجياب في معظم اوصافه الحضرية لم يخصص بمكان و يستقل

(١) ديوانه،ص٢٨٥ وانظر عنوان الدراية: ص٢٨١-٢٨٢.

(٢) ينظر،غرناطة في ظل بني الاحمر: ص ١٨٣-٢٠٠، يوسف الاول ابن الاحمر: ص١٦٦-١٩٨، القصيدة الاندلسية خلال القرن الثامن الهجري: ص ٢١٣/١-٢١٦.

* ذكر د. علي محمد النقراط انه زار غرناطة، ووقف على نقوش الحمراء وكانت بين النقوش اشعار لابن الجياب. م. ن. هامش (١)، ص ٢٨٠.

(٣) ابن الجياب الغرناطي: ص ٢٨٠، وذكر مؤلفه اسباباً مقنعة لتقديم ابن الجياب منها؛ لانه سبقهم بالولوج إلى هذا القصر .والامر الآخر؛المدة الطويلة التي قضاها داخل القصر.وهي اسباب موضوعية لمن اراد أن يتعرف بدقة على شاعر الحمراء الاول.

بقصر فنراه يتابع منجزات ملوك غرناطة فيسجلها بشعره وهذه عظمة اشعار المدح اذ تاتي موثقة لافعال الممدوحين تلك الافعال التي تروي جانبا مهما من جوانب الامة التي يعيش فيها ذلك الممدوح ويخصها بالعناية والاهتمام فاذا ما انشأ يوسف الاول ابو الحجاج (ت٧٥٥هـ) برجاً منيعاً داخل اسوار غرناطة، اسرع ابن جياب لوصفه مفتخراً بما ابدعته انامل المبدعين وبراعة البنائين في عمل هذا البرج، هاك قوله فيه:

برجٌ عظيمُ الشأنِ في الابراجِ ... قد باهتِ الحمراءُ منهُ بتاجِ
قلّهرة ظهرتْ لنا واستنبطتْ ... قصراً يُضيئُ بنورهِ الوهّاجِ
فيها بدائعُ صنعةٍ قد نوظرتْ ... نسباً من الأفرادِ والازواجِ
وصنائعُ الزليجِ في حيطانِها ... والأرضُ مثلُ بدائعِ الديباجِ[1]

ونراه قد شغف بوصف هذه الابراج، فله قصيدة اخرى نظمها الشاعر على البحر نفسه[2]، وفي كل تلك القصائد يخرج منها ابن الجياب الى المدح ، ويوثّق اعمال الممدوح، ويقص اهتمامه بالعمران واسس التمدن، ويبرّز اهميتها التأريخية الحضرية.
لم يقف ابن الجياب عند حدود وصف الابراج، فله اوصاف حضرية عدّة، فهو يقف عند القبة التي تعلوا دار السلطان، فيحدثنا عنها، وعن صاحبها فيقول:

ولاحتِ القبةُ الغرّاءُ خارجَها ... عنوانَ حسنٍ مبيناً أيّ تبيينِ
في صدرِها الملكُ السامي المقيمُ بِها ... للفضلِ والعدلِ قسطاسُ الموازينِ[3]

وفي قصيدة اخرى شغل بقصر السلطان محمد الثالث (ت٧١٣)، واحتفائه بافتتاح قصره الجديد، وفيها يصف الشاعر القصر، وما فيه من مبان معمارية كالقبة والنافورة.. يقول فيه:

(١)ابن الجياب الغرناطي: ص ٢٨٣.
(٢) ينظر: م. ن: ص ٢٨١-٢٨٢.
(٣) القصيدة الاندلسية في القرن الثامن الهجري: ٢١٧/١.

يـاقصرَ نجـدٍ أنـتَ اكـرَمَ مـنزلاً فلقـد شـفعتَ الحُسـنَ بالأحسـانِ
فكـأن قبتـكَ العـروسُ تـبرّجتْ عنـد الزفـافِ بحسـنِها الفنـانِ
والشمسُ ترقـمُ مـن وراءِ زُجاجِـها اثـواباً وشـيء جمّـةِ الالـوانِ
والاسـدّ تفـخرُ حولَـهُ افواهَـها أبـداً فتقـذفُ ذائـبَ المرجـانِ[1]

انها لوحة رسمت بانامل فنان بارع، وهي تكشف عن عظيم تلك المنجزات الحضرية التي تفتخر بها نحن العرب مع شعر ابن الجياب.

اما عن لسان الدين بن الخطيب[2] فهو لم يدخر وسعاً ان يشيد بتلك الحضارة ويتغنى بذلك العمران، بما فتح الله عليه من فكر، وثقافة تأريخية ودينية وادبية على وفق ان يضعها في اطار ابياته وقوالب قصائده ايما توفيق

واذا ما وصلنا الى شعر ابن زمرك ، رأينا الشعر الحضري الاصيل، والفن المعماري الرصين بكثرة قصائده وتنوع اوصافه التي شملت كل مباني بني الاحمر وقصورهم ، ومراكز حضارتهم، لقد شغفت غرناطة االعقول والقلوب، وسحرت العيون فجذبت حولها المفكرين والمبدعين والادباء ... في عصر كانت حاضرته، ومركز خلافته، وبزوغ اشعاعه، وفي ذلك تقول: د. سهير القلماوي: (ما اعرف بلداً خلد الشعراء والكتاب وصفه، وقد حملوا هذا الوصف عواطفهم الجائشة، بقدر ما خلد العرب غرناطة. فلقد وصفوها فبز وصفهم وصف سائر المدن، لافي الدقة ولافي الجمال، ولكن في العاطفة القوية التي كانت تليبه وتملؤه حياة)[3]! ومثل هذه العاطفة نجدها في أشعار أبن زمرك المدحية المرتبطة بالوصف فهو إذا ما مدح الغني بالله ذكر قصره بشنّيل[4]، وراح يصف هذا القصر بما فيه من قباب، ورياض ، وجياد... معتمداً في الوصف على نسق تركيبي اسهم في زيادة النص رونقاً وجمالاً:

(١) القصيدة الاندلسية في القرن الثامن الهجري: ٢١٨/١.

(٢) ينظر: ديوانه: ص ٢٥٢، ص ٢٦١، ص ٣١٣،ص٣٣٥،ص٣٥١، ص٤٠٠، ص ٤٨٨، ص ٥١٣-٥١٤، ص ٥٤٠، ص ٥٤٤.....

(٣) ثم غربت الشمس : دار المعارف- مصر، سلسلة اقرأ (٧٦)، ١٩٤٩، ص ٢٠.

(٤) قصر شنيل: شنيل هو نهر يمر في غرناطة وفيه قصر للغني بالله.

تطلّعَ من نجدٍ بمرقبِ قصرهِ فيا حبّذا نجدٌ ويا حبّذا القصرُ
بحيثُ القبابُ الزهرُ تستشرفُ العُلىٰ اليها وتهوىٰ أنْ تحُلَّ بِها الزهرُ
بحيثُ الوجوهُ الغرُّ جَلّلها الحيا زَهاهَا الكلامَ الحَرَّ والنسبَ الحرُ
بحيثُ الرياضُ الخضر قد جللها الحيا ونافس في طيب الثناء بها الزهرُ
بحيثُ استمرَّ النهرُ في غلوائهِ يُجرِّرُ أذيالَ الغصونِ ولاكبرُ
بحيثُ الجيادُ المقرباتُ صوافنٌ بحيثُ السيوفُ البيضُ والأسلُ السمرُ
بحيثُ يموجُ البحرُتحتَ ظلالِها ولكنَّ ذا عذبٌ إذ يَملحُ البحرُ
بحيثُ أميرُ المسلمينَ محمّدٌ وحسبُكَ فخرٌ لايَقاسُ بهِ فَخرُ[1]

انه- كما نرى- لم يترك صغيرة ولاكبيرة في الوصف الا وسخرها لتكون في هذا القصر ، ومن ثم انتهى الى المدح وحسب هذا القصر فخرا لمنشأة وبانيه، لان هذا القصر منيف شاهق الارتفاع، وصل اعنان السماء وطاولته ايدي الغمام . فكان فخرا على المباني ، وكان نهره الذي أنشا عليه فخرا على الانهار :

ألاَ أيُّها القصرُ المنيفُ قُبابهُ بِشَنْيل ما النيلُ المشَّهرُ أو مصرُ؟
سماءُ الندىٰ قَد ظللتكَ غمامةٌ فَلا قَطرَ إلّا منهُ قَد جَادهُ القطرُ

لقد نُقشت اشعار ابن زمرك على الابواب، والقباب وخزائن الكتب، ومن الجهات كافة. وعلّ المسرد التالي يبيّن لنا اهمية تلك الاشعار ووفرتها، وتناولها للمراكز الحضرية والعمرانية المتنوعة:

(١) ديوانه: ص ١١٦.

المراكز الحضرية والعمرانية	الغرض الشعري	الديوان	عدد الابيات
قصر شنيل	تهنئة من مرض	ص١١٥-١١٦	٢١
القبة الكبرى (دار الرياض السعيدة)	مديح وذكر مباني الممدوح	ص١٢٤-١٢٥	٢٦
طيقان البهو	وصف مظاهر الحضارة	ص١٢٦-١٢٧	١٣
نقوش الطاقين	وصف وذكر صانعها	ص١٢٧	٨
نقش القبة العربية	وصف مظاهر الحضارة	ص١٢٨	٧
طاقي الباب الواحد	- - -	ص١٢٨	٣
الطاق الاخر	- - -	ص١٢٩	٣
نقش خصة الرخام هنالك على الاسود	وصف مع المديح	ص١٢٩	١٢
نقش بالدشار[1] الوجهة المناظرة	- - -	ص١٣٠،ص٣٠٨-٣٠٩	٢٣+٥
الوجهة المقابلة	- - -	ص١٣١-١٣٢	٥
نقوش البرطل[2] الجانب الايمن	رمز حضري لافعال الممدوح	ص١٥٢	٧
للجانب الاخر	- - - -	ص١٥٣	٥
(المناظرة) الجانب الاول	- - - -	ص١٥٣	٧
الجانب الاخر	- - - -	١٥٤	٣
نقوش خزاني البيت	وصف مع المديح	ص ١٥٤-١٥٦	٢٢
نقش على الخشب في القصر الكبير بدار الممدوح	- - -	ص ٣٠٦-٣٠٧	٢٥
دار الملك وفخامتها	اوصاف حضرية عدة	ص ٥١٩-٥٢١	١٤٠

وذكر ابن زمرك الحمراء في نصوص مستقلة[3] وذكر جنة العريف[4] فضلا عما ذكرنا كل ذلك يدل على تمثل حقيقي، للمظاهر الحضرية لبني الاحمر، التي سرت في فكر مبدعيهم وثقافتهم واشعارهم.

---

(١) الدشار: يراد به الدستكرة او البستان.

(٢) البرطل في المغرب والاندلس ، البيت مكشوف الجدران.

(٣) ينظر ديوانه: ص ١٠٨، ص ٢٢٧، ص٣٠٥-٣٠٩.

(٤) ينظر: م. ن، : ص ٢٦٢-٢٦٣، وجنة العريف هو (قصر ، مجموعة من الابنية والحدائق فرق تلة السبيكة شمالي الحمراء). غرناطة في ظل بني الاحمر : ص ٢٣٨.

وفي القرن التاسع الهجري يطالعنا ابن فركون[1] الشاعر المثقف المتحضر لينثر لنا صفات ممدوحه الاثير يوسف الثالث ومبانيه وعمرانه على عرائس شعره، فنجده يحضر تجديد قصر الامير ويشارك في نقوش الحمراء، من كل طاقاتها وعلى جميع جدرانها بشعره الذي عرفنا فيه سمات الجزالة، وقوة اللفظ، وبراعة التصوير.

اما عن المباني الاخرىٰ كالقلاع والمنارات والقناراتِ[2]فسارت جنبا الى جنب مع القصور والمنازل ودار الملك في تبيان معالم الحضارة، ومراكز العمارة، فقلعة بني سعيد[3] ماتنفك توحي بسحر ومنظر قشيب توحي لابي جعفر ان يضعها في بوتقة ابداعه، وبين معاني حضارته يقول فيها:

الى القلعةِ الغرّاءِ يهفو بي الجوىٰ ... كأنَّ فؤادي طائرٌ زُمَّ عن ذكرِ
هي الدارُ لا أرضٌ سواها وإن نأت ... وحبّبها عني صروفٌ من الدهرِ
اليستْ بأعلىٰ ما رايتُ منضّةً ... تجلّتْ بحلي كالعروسِ علىٰ الخدرِ
لها البدرُ تاجٌ والثريا شُنُوفها ... وما وشمُها إلا من الأنجمِ الزهرِ
اطلّتْ علىٰ الحفصِ النضيرِ فكلُّ من ... رأىٰ وجهةً منها تَسلّىٰ عَن القَطرِ[4]

اذا ما انتقلنا الى الحمّامات ، المظهر الحضري الثاني لتشكيل الامكنة الحضرية، وجدنا كما هائلا من هذه الامكنة وعند اغلب الشعراء -مدة دراستنا- وهذه الامكنة دليل على اهتمام بالنظافة والصيانة وتأمين وتهيأة وسائل الحضارة من غسل وماء ومساحيق تنظيف. لقد(كانت الحمّامات الخاصة والعامة منتشرة في المدن والقرى الاندلسية وكانت تلقى العناية الخاصة... للمستحمين، فالامراء وابناء الخاصة كانوا يبنون الحمّامات في قصورهم، بينما كان ابناء الطبقة الفقيرة يقصدون الحمامات العامة المنتشرة في الاحياء الشعبية)[5] وهذا دليل على سعة الاهتمام بنظافة الفرد الاندلسي

(١) ينظر: ديوانه: ص ٢٧١-٢٧٢، ص ٢٧٣-٢٧٦، ص ٢٨٥-٢٨٦.

(٢) للمزيد عن هذه المباني ينظر: شعر ابي جعفر بن سعيد : ص ١٢٨، الروض المطار :ص١٢١، ابن الجياب -حياته وشعره:ص٤٤٥، ديوان ابن الخطيب:ص٣٥١.

(٣) قلعة بني سعيد: عقاب الاندلس الاخذ بازرار السماء، من غرر المجد والبناء، وهي رباط جهاد، وحصن اعيان وامجاد. المُغرب : ٢/١٦٠.

(٤) مجموع شعره: ص ١٣٤، ونكثر من الاستشهاد بشعر ابي جعفر لنرى مدى انعكاس الحضارة في شعره، الحقيقة التي قدمنا فيها القول.

(٥) غرناطة في ظل بني الاحمر – دراسة حضرية-:ص ١٣٠.

وكبير العناية التي يحظى بها في وقت كانت تغط فيه اوربا في دمس عميق، ودجى طويل.

لم يقتصر الشاعر الاندلسي في وصفه للحمّام على اظهار المكان، وبيان حرارته، وفائدته فقط، بل؛ ذهب يعبر من خلاله عما يشاء من افكار وما تعتليه من عواطف فالاعمى التطيلي يتبادل الشعر مع ابن بقي[1] في الحمّام ، ويؤكد تفوقه على خصمه على الرغم من عاهته في حين يراه ابن خفاجة انه بيت النار ، وشك في ان الذي يخرج من النار – مهما كان العذاب – سيدخل الجنة ، ويهنأ باللذة والاستجمام . وهذا ما ادته (اهلا) القابلة ان لنا صفات المرح والنشوة والسعادة بدخول ذلك البيت:

اهلاً ببيتِ النارِ من منزلٍ شديدَ لأبرارٍ وفُجّارِ
نقصدُهُ ملتمسي لَذّةً فندخلُ الجنّةَ في النارِ[2]

وقد تداخل وصف الحمّام مع اغلب اغراض الشعر التقليدية، فورد مع معاني العشق والغرام؛[3]. لما في محيطه من نار وحرارة تحكي نار المحبين، وتشكو حرارة بعدهم عن المعشوقين وما اقتصر الشاعر الاندلسي على ان يتغزل بالمراة، بل؛ تعداها الى الغلمان ايضا، لاسيما ما يضفيه هذا المكان على الغلام الوسيم من نظافة وجمال. ويتركه في زينة ومنظر يجلب انتباه الشعراء، ويسحر قلوبهم، فيحرك اقلامهم.

ويأتي الحمّام مع معاني الذم ايضا؛ ابو جعفر بن سعيد الذي وصف في بيتين مبلغ سعادته بالحمّام، وارتياحه لذلك المكان، نراه في مقطوعة يصب عليه جام غضبه، ويلعنه، ويتهمه بجمع الاوساخ، وازدحام الاذال... وربما كان هذا الوصف في نهايات حياته حين خسر وزارته، ومعشوقته، فادى ذلك الخسران الى تشاؤمه من كل مكان حتى ولو سبق القول فيه بما يرضي ويحب، هاك قوله ذاماً:

---

(١) ينظر: ديوان الاعمى التطيلي: ص ٢٤٦، ديوان ابن بقي: تحقيق: د.محمد مجيد السعيد، دار بركرتا ـ دمشق، ١٩٩٧، ص٩

(٢) ديوانه : ص٣٧٣.

(٣) ينظر: ديوان ابن الزقاق: ص٢١٥، ديوان الرصافي: ص ١٠٧، المطرب من اشعار اهل المغرب: ابن دحية الكلبي (ت٦٣٣هـ) تحقيق: ابراهيم الابياري، القاهرة ،١٩٥٤، ص٧٧، ديوان الموحدي: ص١١٨،ديوانه ابن خاتمة:ص١٢٣.

يـــارُبّ حمّـــام لُعنّـــا بـــهِ ابـــدئ إلينـــا كـــلّ حمّـــامِ
أُفـقٌ لَـه قطـــرٌ حميـــمٌ كمـــا أصمـــتْ سـهامٌ مـن يـــدي رامـــي
يخـرقُ سَـحباً للدخـــانِ الـــذي لاحَ نعيـــمُ العـــــارضِ الـــهامي
وقيـّـــم يجذبنـــــي جذبـــــةً وتـــــارةً يكســـــرُ إبـــــهامي
ويجمـعُ الأوْسـاخُ مـــن لؤمـــهِ فـــي عضـــدي قَصـــداً لأعلامـــي
وأزدحـمَ الانـــذالُ فيـــهِ وقَـــد ضجّـــوا ضَجيجـــاً دونَ إفـــهامِ
وجملـةُ الأمُـــرِ دَخلنـَـا بنـــي ســـامٍ وعُدنـــا كبنـــي حَـــامِ[1]

أمّا ابن شكيل الصدفي فله مقطوعة خصصها لحمام، وفيها وقف على براعة صنعه ودقة هذا البناء، متعرضا لما فيه من امور فيزيائية كالنار والماء الحار، رابطاً – بخيال طريف– بين الارض والسماء التي تعود اصلا لهذا الحمام، وكيف شكلت مناظر الحمام من زوايا مختلفة، يقول:

تُلـهي العيـونَ رقومـُـه فكأنّـَـها قـــد ألْبســـتْ ســـاحاتهُ ديباجـــا
مجموعـةً اضـداده فـــتَرىٰ بـــها نـــارَ الغضـــا والوابـــلَ الثجاجـــا
حـرّانُ منسـكبُ الدمـوعِ كأنّمـــا يحكـــي بـــذاكَ العاشـــقِ المـــبتاجا
دُحيتْ بسـيطةُ أرضـهِ مـن مَرمـرٍ فجـرىٰ الزجـاجِ بـه وثـار عجاجـا
وجلـتْ سـماوتهُ السـماءَ وإنّمـــا جَعلـــتْ مكـــانَ النـــيراتِ زجاجـــا
قامتْ علـــىٰ عَمَـدٍ جليـنَ عرانســاً فـتَرىٰ لـها السـمكَ المُكلّـلَ تاجـــا[2]

ويأتي الحمّام، هذا المكان المعروف في موقف خاص لدى الشاعر الاندلسي، وهذا الموقف هو الذي يشكل المكان عن طريق هذه الثيمة الحضرية ويعبر عن صميم التجربة الشعورية والفنية للشاعر. فابن السّيد البطليوسي الفقيه اللغوي يرى في الحمّام بناءه ولهيبه– عظةً وتذكراً لكل صاحب فطنة، وكل لبيب عرف الدنيا وما فيها. لنسمعه يقول:

(١) مجموع شعره: ص ١٤٠-١٤١.

(٢) ابو العباس احمد بن شكيل شاعر شريش: ص ٤٥.

أرى الحمّامَ موعظةً وذكرى لكلِّ فتىً أريبٍ ذي ذكاءِ
يذكرنا عذابَ ذوي المعاصي وأحياناً نعيمَ الأتقياءِ
شقا هجرٍ يشوبَ نعيمَ وصلٍ وحرَّ النارِ في بردِ الهواءِ[1]

ان التضاد الحاصل في الحمّام بين(ناره الحارة)وبرودة الهواء) هي التي اوحت لابن السّيد رسم هذه الصورة، وجعلته يتذكر ما اعد للاتقياء من نعيم ومغفرة، وما اعد لاهل المعاصي من عذاب وانتقام، وعلى اية حال، ان المكان هو المحور الاول في رسم هذه الصورة، وهو المخفز الرئيس لخيال الشاعر للجمع بين هذي المتضادات.

أمّا الرّندي فنسي تماماً ما يحدث في الحمام، من حر وقر، او من عذاب وارتياح، فقد جلبت اهتمامه امرأة برزت له وهي خارجة من ذلك المكان، فاوحت له مخيلته استغلال جمالها وهي خارجة برسمها على شاكلة قوله:

برزتْ من الحمّامِ تمسحُ وجهَها عَن مثلِ ماءِ الوردِ بالعنّابِ
والماءُ يقطرُ من ذوائبِ شعرِها كالطلِّ يسقطُ من جناحِ غرابِ
فكأنها الشمسُ المنيرةُ في الضحى طلعتْ علينا من خلالِ سحابِ[2]

انه المكان ، وما فيه من حضارة، وما يبعث للمرء من جمال وتزيين، جعلت اوصاف الرندي متحضرة بما يناسب المكان، وعلّ العبارات (ماء الورد، العنّاب، الطلّ، الشمس المنيرة، الضحى) أدّت معانيها بعفوية وصدق، ولذا جاءت المقطوعة لتعبر عن موقف نفسي رأت في المرأة ما يدفعها لتعبر عنه بما جال في خلدها، وهذا ماتسعى اليه المقطوعة في احد الأسس التي تقوم عليها في البنية والدلالة[3].

في حين أنّ أبا البركات البلّفيقي، لم يقف من الحمّام موقف العاشق أو الذام أو الواعظ أو المشاهد، إنما وقف امامه موقفاً حقيقياً لايخلو من طرافة، فهو يحدثنا عن نفسه وقد آل اليه المبيت في حمام الخندق-داخل المريّة- فانطفأ المصباح ، وبقي حائراً، فخطر بباله ما يقوله الناس من تخيل الجن في الارحاء والحمامات، وعدم اقدام

(١) مجموع شعره: ص ٩٧.
(٢) شعر الرندي: ص ٦٩٣.
(٣) ينظر: بناء القصيدة في النقد العربي القديم: د. يوسف حسين بكار، دار الاندلس- بيروت، ١٩٨٣، ص ٢٤٤-٢٤٥.

الناس اليها في الظلام، ثم يقول: (فأرتجلت هذه الابيات، وقد شعرت بقوة في نفسي، ورفعت بذلك صوتي):

زعمَ الذينَ عقولُهم مقدارُها إنْ عُرِّضت للبيعِ غيرُ ثَمينِ
إنّ الرحىٰ معمورةً بالجنِّ والـ حمّامِ عندهم كذا بيقينِ
إن كانَ ما قالوه حقاً فاحضروا للحربِ هذا اليوم من صفينِ
فلئن حضرتُم فاعلموا بحقيقةٍ إنّي مصارعُ قيسِ المجنونِ[1]

انه المكان المظلم المقفر ، علىٰ الرغم من حضارته ونفعه للرجل والمرأة، للقاصي والداني، القريب والغريب، إلّا انه تحول إلىٰ شئ آخر ، تحول الىٰ مصدر موحٍ بالرهبة والخوف والوحدة، وهكذا هو المكان إنه مايثير فينا انفعالاتنا، وما يؤجّج مشاعرنا، نتيجة مواقف معينة، وحالات مختلفة.

ما نعنيه **بالاماكن الهندسية العامة** هي تلك المظاهر الحضارية التي انتشرت في شوارع الاندلس. وبين مدنها وفي ميادينها العلمية، اذ طغت هذه المظاهر على الشعر الاندلسي، وشكلت بذلك مكانا اخر من الامكنة الحضرية في الاندلس، وقد استنزفت هذه الامكنة ذهن الشاعر، وشدت انتباهه فراح يصفها متخيلا ومبتكرا لها احداث من صنعة، واشخاص من وحي فنه. وهذا هو الفرق الاساسي بين الشاعر والاخرين لانهم ينظرون الى الاشياء بعينهم وعقولهم، اما هو فانه ينظر اليها بخياله وعاطفته، فيسبغ عليها مالايراه الاخرون ولايحسون بها.

هذا الاعمى التطيلي يصف اسد رخام (او نحاس) يرمي الماء على بحيرة، فيقول:

اسدٌ ولو أنّي أقُل قشّةُ الحسابَ لقلتُ: صخرةٌ
وكأنّهُ أسدُ السما ءِ يموجُ من فيهِ المجرَّةُ[2]

هل نلحظ كيف سما الخيال على الصورة ؟! وكيف انها صدرت بمثل هذا الابتكار من شاعر كفيف، والصورة مرئية واضحة تمام الوضوح؟!

---

(١) شعر البلفيقي: ص ٧٩.

(٢) ديوانه: ص ٢٤٩، وذكر صاحب بدائع البدائه انه- وصحبه- أعجبوا بهذا الوصف فراحوا يتعاطون الشعر على غراره، وفي شاكلته، بديهة، ينظر: بدائع البدائه: علي بن ظافر الازدي (ت٦٤٣)، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، مكتبة الانجلو المصرية- القاهرة، ١٩٧٠، الباب الرابع، ص٢٤٥-٢٤٧.

في حين رأى محمّد بن عثمان (ت٥٣٣هـ)[١]، في الصنم الذي بشاطبة[٢] واعظاً متكلماً فهو من حيث الوعظ لا ادل عليه وهو يستلهم قصص الامم الغابرة والاقوام الفائته ومن حيث التكلم فلا يوجد ابلغ من قيس بن ساعدة الا يادي الرجل المعروف بالبلاغة والبيان في كلامه ووعظه يقول في هذا الصنم:-

بقيةٌ من بقايا الروم مُعجبةٌ ... أبدى البناةُ بِها من علمهم حكما
لم ادرِ ما أضمروا فيها سوى أُممٍ ... تتابعتْ بعد سمّوه لَنا صنما
كالمبردِ الفردِ ما أخطا مشبّهه ... حقاً لقد بردَ الايامَ والأمما
كأنّه واعظٌ طالَ الوقوفُ بهِ ... مما يحدّثُ عَن عادٍ وعَن إرمَا
واعجبٌ إلىّ حجرٍ صلدٍ يكلّمنا ... أشجى وأوعظَ من قسٍ لمن فهما[٣]

انه حكمة الزمان وشاهد الناس على افعالهم مهما تغيروا أو تبدلوا انه المكان الذي يثير فينا فلسفة حقيقية تجاه كل شيء، ونحو أي ثقافة تأريخية ادبية أو دينية.

اما عن الاماكن الهندسية المبتكرة فهي المظاهر العمرانية التي شكلت ابتكارا جديداً في ميدان الحياة العمرانية في الاندلس وغيرها وهذه الاماكن تحفز الخيال وتنشط الابتكار بشكل اكبر من سابقتها لانها على ارض الواقع تسحر العيون والعقول، فما بالك بالشعر الذي هو محض خيال ولعبة ابتكار جديدة تجري في دم الشاعر، وعروقه وفكره فابو العباس احمد بن حنون الاشبيلي (المائة السادسة)[٤]، حينما يرى منبع ماء على شكل اسد، لا ينأى من ان يترك لريشته مهامها في رسم هذا الشكل، فجاء هذا الرسم على نحو ما عرف عنه من جودة واتقان، وحسن استخدام لفنون البيان، يقول:

---

(١) محمد بن احمد بن عثمان من اهل بلنسية ولد ببريانة من اعمالها والنيا ينسب يكنى ابا عامر كان من جُلّة الادباء ومشاهير الشعراء. ينظر: زاد المسافر ص ١٣٣، الذيل والتكملة : ابن عبد الملك المراكشي، دار الثقافة بيروت،ط١ ، ١٩٧٣: ١١/٦.

(٢) شاطبة: مدينة شرقي الاندلس بالقرب من شُقر وهي حاضرة فيها مساجد وفنادق.ينظر:معجم البلدان: ٣٠٩/٣،الروض المعطار: ص٣٣٧.

(٣) زاد المسافر:ص١٣٣. الذيل والتكملة: ١١/٦ وحصل خطل في ترتيب البيتين الاخيرين في المصدرين.

(٤) ابو العباس احمد بن حنون الاشبيلي، كان شاعراً مجيداً حسن التصرف في افانين النظم، بارع التشبيهات، بديع الاستعارات، متقدماً في المقطعات.ينظر:زاد المسافر :ص٩٢،رايات المبرزين:ص٤٢، المُغرب: ٢٤٤/١، الذيل والتكملة :١٠٠/١/١.

وموهمٍ قصدَ حضـــن ليـــسَ مقصـــدَهُ إلّا الســـكونَ فماشـــيٌ يحركُـــهُ
تقبّضَ الليثُ حرصـــاً للوثـــوبِ علـــىٰ فريســـةٍ وحـــذارِ الفـــوتِ يدركُـــهُ
والماءُ في فيـــهِ كالثعبـــانِ مُضطربـــاً يَبغـــي التخلـــصَ منـــهُ وهُـــو يُمســـكُهُ[1]

ولا شك في ان براعة الصورة في البيت الاخير عندما شبه المـــاء بالثعبـــان لســـهولة انسيابهما وسرعتهما ومنظر كل واحد منهما في هذه الانسيابية والسهولة، فكيف يمـــن امسك بهما وهما يريدان خلاصاً. حتما ان الذهن سيتعب وينصب وهو يحاول الربط بين المشبه والمشبه به كحقيقة، مثلما ربط بينهما شاعرنا كالفاظ وكلمات بحنكـــة وبراعـــة. فـــ(قيمة التشبيه لا يكتسبها من طرفيه فقط، ولا من وجه الشبه القـــائم بينـــهما بقـــدر استمرارها من الموقف الذي يدل عليه السياق ويستدعيه الحس الشعوري المنبث خـــلال الموقف التعبيري)[2].

ونقف في شعر جعفر ابن سعيد على صورة حضرية رائعة رائقة، تلكم هي صورته يصف جارية راقصة بسيوف وطيفور رخام يصنع في انبوبة الماء صورة خباء:

وراقصـــةٍ ليســـت تحـــرّكُ دونَ أنْ يُحرّكـــها ســـيفٌ مـــن المـــاءِ مُصلـــتِ
يدورُ بِها كرهـــاً فتنضـــي صَوارمـــاً عليـــهِ فـــلا تَعبـــا ولا هُـــو يَبـــهتِ
إذا هـــي دارتْ سُـــرعةً خلـــتَ أنَّـــها بِكُـــلِّ وَجـــهٍ فـــي الريـــاضِ تلفّـــتِ[3]

ان عوامل الحركة مبثوثة في الصورة وهي مكثفة بصورة انية لتبرز رســـم المنظـــر المشاهد احسن رسم وبلا ريبٍ ان المكان كان وراء هذا التكثيف وهذا الاتقان في الرسم فهو- اعني المكان-كامنٌ في الزمن والحركة.

---

(١) الذيل والتكملة: ١/١/١٠٠ . وقد ذكره نور الدين بن الوزير (ت٦٧٣ هـ) في المرقصات والمطربـات: دار حمد ومحيو / القاهرة، ١٩٧٣ ،ص٤٤.وكما نعلم ان ابن وزير عرف المرقص بانه :- (ما كان مخترعا مولداً يكاد يلحق بطبقة الاختراع).م. ن: ص ٧.

(٢) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور: د. رجاء عيد . منشأة المعارف، الاسكندرية. ١٩٧٩. ص١١٠.

(٣) مجموع شعره ص١٢٨-١٢٩.

واذا بعدنا قليلاً ربما نقف في شعر ابي بكر يحيى بن مجبر الفهري (ت٥٨٨هـ)[١] على صورة اكثر روعة وحركة وتمثيلا لواقع الحضارة التي عاشها الشاعر. وهي عنيت بوصف (مقصورة ترفع بالات هندسية من تحت الارض عند اتيان الامير للصلاة ثم تعاد)[٢] يقول ابو بكر:

طوراً تكونُ بمن حوتهُ محيطةً ... فكأنّها سورٌ من الأسوارِ
وتكونُ طوراً عنهم متحجبةً ... فكأنّها سِرٌ من الأسرارِ
وكأنّها علمتْ مقاديرَ الورى ... فتصرفتْ لهم على مُقدارِ
فاذا أحسّتْ بالأميرِ يزورُها ... في قومهِ قامتْ إلى الزوّارِ
يُبدو فتَبدو ثُمَّ تخفي بعدَهُ ... كتكوّنِ الهالاتِ للأقمارِ[٣]

انها صورة فنية نفيسة، فقد احاطت بما لم تحط به صنوها في النماذج الشعرية السالفة. اذ رسمت الحركة التي ترفع بها وتحيط بمن تحوي اذا ما رفعت، ثم تحجب عنهم اذا ما انتهت الصلاة وازف وقتها. وهي عالمة بمقادير الورى وحاسة بزيارة الامير فرسمها على عادة ما يقدمه الزوار من القيام والاحترام.

ولم يرد لها ان تكون مجرد جماد او اخشاب، فاضاءها بها لات القمر، ونورها الساحر حوله، وهي -الهالات- لاتظهر، او يعرف لها نور الا عند بزوغ القمر - الممدوح- فاحسن الوصف واتقن الرسم. واحكم التعبير.

---

(١) ابو بكر يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجبر الفهري الشقوري، نشأ بمرسية وتادب بها ثم سكن اشبيلية. انتقل الى مَراكش- عاصمة الموحدين- الذين قال فيهم امداحا كثيرة. وبها كانت وفاته. اديب شاعر، متقدم في طريقة الشعر؛ برع فيها وفاق اهل زمانه. ينظر: زاد المسافر: ص ٥١؛ بغية الملتمس من رجال اهل الاندلس: ابو جعفر احمد بن يحيى الضبي (ت٥٩٩هـ)، تحقيق: ابراهيم الابياري، دار الكتاب المصري- القاهرة-، دار الكتاب اللبناني- بيروت، ١٩٨٩، (ترجمة ١٤٩٨) ٦٨٣/٢، وفيات الاعيان: ١٣/٤، الاحاطة: ٤١٨/٤-٤٢١؛ مختارات من الشعر المغربي والاندلسي: مجهولة المؤلف يعود القرن الثامن الهجري، تحقيق: ابراهيم بن مراد، دار الغرب الاسلامي؛ بيروت، ط١، ١٩٨٦، ص ٧٩، نفح الطيب: ٢٣٧/٣-٢٤١.

(٢) السحر والشعر: لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: كونتنته فريد، مدريد، ١٩٨١، ص ١٤٥.

(٣) رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة: ٤٢٩/١، ، السحر والشعر: ص ١٤٥. للمزيد عن هذه الامكنة ينظر: ديوان ابن الزقاق: ق ٢٢؛ أدباء مالقة: ص ١٠٣، تحفة القادم، ص٢٠٧، ديوان ابن رشيك: ص ٣٦٢-٣٦٣.

فنياً؛ تعود الاجادة والاحسان في الوصف والرسم والتعبير الى تكرار (كأن) ولاسيما انها اتصلت بالهاء التي تعود على هذه الالة مما يدلل على شدة عناية ابي بكر بالموصوف وتعلقه به. كما ان التشخيص في (تصرفت، وقامت) اسبغ على الابيات حركة مستمرة ساعدت في اجمال الوصف، مع دقة منسّقة.

اما عن المظاهر الصوتية فلم تقصر هي الاخرىٰ عن العناية برسم حركة هذه الالة وبيان خضوعها للممدوح، وركوعها امامه، مع العناية بنشر الاصوات السهلة السأنوسة التي من شأنها اشاعة الجرس الموسيقي الذي يمثل هذه الحركة، ويساعد في تزويق الفنون البيانية التي ذكرناها، وأرىٰ ان الجناس في (الاسوار، الاسرار) والتصدير في (مقادير، مقدار) و (يزور، الزوار) ساعد على نشر هذه الاصوات التي اغدقت الجمالية، والسهولة على الأبيات، وابقت علىٰ علائق التشبيه والتشخيص اصيلة متينة.

ومن صور الأمكنة الحضرية في الاندلس المتنزهات والمتفرجات التي عُملت باحكام ومهارة، وهي وان كانت تمثل مظاهر الطبيعة الصناعية، او يمكن عدها إحدىٰ افرازات الطبيعة الاندلسية عموماً، الا انها تدخل نطاق حديثنا عن المكان الحضري لاسيما ان هذا النوع من المظاهر سرتبط بالمدن التي انشأت فيها، والتي كان يرتادها الناس للبوح عن مشاكلهم الاجتماعية، أو لانها توفر عوامل الارتياح، وتعد بحد ذاتها خروجاً عن الواقع المعاش ولو لمدة قصيرة.

فمن منتزهات قرطبة منية* الزبير المنسوبة الى الزبير بن عمر الملثم ملك قرطبة، وفيه يقول ابن بقي:

سقىٰ اللهُ بستانَ الزبيرِ ودامَ في ... مجاريهِ سيلٌ النهرِ ساغنَتِ الورقُ
فكائنْ لنا من نعمةٍ في جنابهِ ... كبزّتهِ الخضراءِ طالعُها طلقُ
هو الموضعُ الزاهي علىٰ كلّ موضعٍ ... أما ظلُّهُ ضافٍ أما ماؤهُ دفقُ
اهيمُ بهِ في حالةِ القربِ والنوىٰ ... وحُقّ لهُ منّي التذكرُ والعشقُ
ومن ذلكَ النهرِ الخفوقِ فؤاده ... بقلبي ما غُيّبتُ عَن وجههِ خفقُ[1]

---

* المنية جناناً واسعة تنقل اليها غرائب الفروس، واكارم الشجر من كل ناحية، وهي تلحق بالقصر الملكي. ينظر: تأريخ المسلمين واثارهم في الأندلس حتى سقوط الخلافة: د. السيد عبد العزيز سالم. الاسكندرية، ٢٠٠٠، ص ٢٠٧.

(١) ديوانه: ص٦٦.

ومن منتزهات قرطبة ايضا السَّدُ وهو: (الرصيف الذي كان يمتد من الناحية الشرقية لمدينة قرطبة الناحية الغربية للقصر، ثم يواصل سيره بعد ذلك فيحيط بالسوق العلمي نحو السهل الذي يقع فيه المصارة والصلاة)[1]، قالَ ابن سعيد: (اخبرني والدي ان الشاعر المبرز ابا شهاب المالقي انشده لنفسه واصفا يوم راحة بهذا السد):

ويومٌ لنا بالدلولُرَدَّ عيشه ... بعيشهِ أيامِ الزمانِ ردنداه

بكرنا له والشمسُ في خدرِ شرقها ... إلىٰ ان اجابتْ اذ دعا الغربُ داعواد

قطعنا شدواً وأغتباقاً ونشوةً ... ورجعَ حديثٍ لو رقىٰ الميتَ احياد

عَلىٰ مثلهِ من متنزهٍ تُبتغىٰ المُنىٰ ... فللّه ما أحلىٰ وأبدع مَراد

شدتنا بهِ الارحا والقتْ نثارها ... علينا فاصغينا لَهُ وقبلناه

لئن بانَ إنا بالأنينِ لفقدهِ ... وبالدمعِ في إثرِ الفراقِ حكيناد[2]

أمّا ابن عميرة المخزومي، فله قصيدة طويلة يصف فيها نزهة قام بها مع صحبة في اشبيلية،[3] وهي تضم لوحات عدة تصب في بيان جمال اشبيلية، وروعة متنزهاتها، لم لا وهو القائل فيها:

ياحمصُ إنَّكِ في البلادِ فريدةٌ ... ببديعِ حُسنٍ جَلَّ عَن تحسينِ

ويصف شاعرنا المخزومي شنتبوس من منتزهات اشبيلية[4] بما يناسب مكانه الجميل، ومنظره القشيب فيقول فيه:

حتَّىٰ بلغنا شنتبوس ويالَهُ ... من مشهدٍ بهوىٰ النفوسِ قمينِ

حيثُ القصورُ البيضُ يرمقُ حسنها ... فيكون قيدَ نواظرٍ وعيونِ

بهرتْ جمالاً في الدجىٰ حتَّى ترىٰ ... معها عمودَ الصبحِ غيرَ مُبينِ

فهي النجومُ بلَ البدورُ لأنّها ... تزدادُ حُسناً في الليالي الجونِ

قَد ألفتْ اجزاؤها فتناسبتْ ... كتناسبِ النغماتِ في التلحينِ

طابَ الزمانُ بها فَما بنيساتِها ... أندىٰ نديَّ من آبَ أو كانونِ[5]

---

(١) قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس:د. السيد عبد العزيز سالم، بيروت، ١٩٧١: ٢٠٢/١.

(٢) نفح الطيب: ٤٧٥/١.

(٣) ينظر: تحفة القادم: ص ٢١٠، ابو المطرف ابن عميرة المخزومي: ص٢٣٨.

(٤) ينظر: نفح الطيب: ١٧١/١.

(٥) تحفة القادم: ص ٢١١، ابو المطرف ابن عميرة المخزومي: ص ٢٣٩.

اذا ما بقينا نتحدث عن مثل هذي المنتزهات، ومادبجته اوصاف الشعراء فيها فاننا لن ننتهي من الموضوع،فماذا نقول في اشبيلية او بلنسية او غرناطة ... كما ان اغلب الشعر في هذه المنزهات قيل في جمع من الشعراء [1] وهذا مايؤدي الى عاملين؛ الاول: الاستطراد في الوصف حتى لاتتكرر المعاني، او تمل الصور. والاخر؛ شدة العناية برسم الصورة، اذ هو ميدان تنافس ادبي قبل ان يكون مكانا حضاريا، او منتزها جماعيا. وعلى اية حال؛ ان نظرتنا الى هذا المكان نظرة حضرية تاريخية . وعل ما طرحناه من افكار، وما عرضناه من نصوص ادت تلك النظرة بموضوعية واضحة، وشمولية دقيقة.

(١) للاستزادة ينظر: خريدة القصر وجريدة العصر: ٢/٤٩١-٤٩٢، تحفة القادم: ص ١٥١، ص ٢١١-٢١٢، شعر ابي جعفر بن سعيد: ص ١٣٠-١٣١، شعر مرج الكحل: ص٤٧، المعرب: ٢/٢٩٩، الروض المعطار: ص ٤٢، الاحاطة: ١/٣٤٨، نفح الطيب: ١/١٠-١١، ١٥٣، ١٥٦، ٢٠٨، ٤٧١، ٤٧٥، ٥٤٢، البسطي اخر شعراء الاندلس: ص ١٢٥. والمراجع التي تحدثت عن هذه المنازه: في الشعر الاندلسي: د. عدنان مصطفى صالح، دار الثقافة- الدوحة، ١٩٨٦؛ ص ٣٩-٩٣، قرطبة في العصر الاسلامي -تاريخ وحضارة-: د. احمد فكري، الاسكندرية، (د.ت)؛ ص ١٨٢-١٨٤؛ مدخل الى الادب الاندلسي ،ص ٨٨-٩١؛ تأريخ المسلمين واثارهم في الاندلس: ص٢٠٦-٢١٣.

المبحث الثاني:المكان الآني.

هو المكان الذي يعيش فيه الشاعر حاضره، ويشهد حوادثه التي تكون محوراً لاهتماماته، ومداراً لقصائده.

وعن صفات هذا المكان في الشعر الاندلسي، فيمكن القول بانه كان محمّلاً بمعاني البكاء والالم. وحكىٰ غربة شاعره وغربة اهل الاندلس لاسيما فيما يتعلق بالأدب الاستنجاد الذي ارتبط برثاء المدن والأماكن التي سقطت بيد النصارى، ففي المكان الآني اختفت قيم الالفة والانتماء لتحل محلها حالة النفور والاستصراخ. ومن ثم البحث عن وسائل الاستقرار النفسي الذي يريده الشاعر وعموم بني ادم في المكان الذي يعيشون فيه، وينعمون بظله.

اذن؛ فالمكان الاني عند الشاعر الاندلسي كان مكاناً مرفوضاً على الاغلب، متسماً بالعدوانية، سالباً دفء الحياة الآمنة، مشعراً بكم هائل من معاني الشكوى والحسرة بحسب المادة الشعرية التي وجدناها في تراث هذا الشاعر ونتاجه، والتي ارتأيت قسمها على نوعين اشعر انهما اكثر قدرة علىٰ اعطاء سمات المكان الآني والتعريف بدلالاته، وهذان النوعان كانا في:

١.الأمكنة الآنية المستوحاة من موروث الامكنة التأريخية. الشعر الذي هو مركز ثقافة المبدع يحوي احداثاً ومعارك وغزوات يمدح ابطالاً ويرثي قادة . يذكر نصّاً قرانياً وآخر حديثاً شريفاً. وثالثاً يقف على ابيات الشعراء السابقين، أو ينهل حكمة من هنا. وقولاً مأثوراً من هناك كل ذلك من مخزون ذاكرة الشاعر التي هي (مصدر اساساً من مصادر تمويل التجربة بعناصر نشاط وفعل متنوعة يعمل النص الشعري على تشكيل اجزاء مهمة من كيانه النصي، استنادا الى معطياتها وما تفرزه من قيم اثر تفاعلها الجوهري مع اكثر عناصر التجربة خصوصية وحرارة بحكم ما تنطوي عليه الذاكرة من طاقات تاريخية واجتماعية ونفسية متراكمة متنوعة الشكل والقيم والتأثير)[1]. وحتماً ان تكون ذاكرة شاعرنا الاندلسي قوية تستند على استلهام المؤثرات التأريخية، ومنها الامكنة التي تشرح تلك المؤثرات وتشكل تجربة من تجارب الشاعر نحو الاحداث التاريخية ونتائجها ويعود اثر هذه المؤثرات على شاعرنا الاندلسي قوياً متيناً لانها:

---

(١) المتخيل الشعري: د. محمد صابر عبيد، منشورات اتحاد ادباء العراق- بغداد، ط١، ٢٠٠٠، ص٣١.

أ- **بشكل عام:** هي تعود الى تاريخ بهي ، وماضٍ مشرق يمثله اولئك الرجال الذين باعوا انفسهم واموالهم لله فاستحقوا خلودا سرمديا، وخلفوا ايثارا عظيماً في سبيل التضحية ونشر مبادئ الدين الحنيف الذي طغى حبه على سائر شؤون الحياة الاخرى.

ب- **بشكل خاص:** ان الشاعر الاندلسي-مدة دراستنا- استلهم من احداث عصور الاندلس السابقة ما يمكن ان نجعله رمزاً تاريخياً لاسباب عدة، اولها: انه افادنا في التعرف على بعض ميزات تلك العصور. وهذه فائدة تأريخية قبل ان تكون ايحاء ادبياً، أو رمزاً شعرياً.

وثانيهما: انه قصَّ علينا ارهاصات حياته ومشاكلها المختلفة من خلال اللجوء الى الاحداث السابقة التي شابهت احداث عصره، وازمة ابناء جيله، وهذا جانب اخر مهم افادتنا به المعلومة التأريخية.

وثالثها: انه كشف لنا بوضوح عن الامكنة الآنية التي استوحاها الشاعر الاندلسي من تلك الامكنة التأريخية التي ذكرها والتي عُرفت باشياء، ورمزت لدلالات سرعان ماتتبادر الى الذهن حال ذكر المكان، او ما يدل عليه.

ناهيك عن اثر الموروث -بانواعه- على النص الشعري ، فـ(الشاعر حين يبدع قصيدة لابد ان يكون واقعاً تحت تأثير تقاليد تراثه الشعري، كما انه يؤثر في هذا التراث ويغير من نظرتنا اليه فالعلاقة بين الماضي والحاضر علاقة اتساق)[1].

لقد استوحى الشاعر الاندلسي كل المؤثرات التاريخية في شعره، ومنها الامكنة المشرقية والاندلسية مستغلا دلالاتها ورموزها. فعندما يذكر بابل يذكر معها صناعة الخمور. وكيف كانت الخمرة في هذه المدينة معتقة تجلب اليها الانظار، وتجذب النفوس. يقول ابن صارة في هذا الايحاء المكاني الشهير:

---

(١) البناء الفني في ديوان الهذليين- دراسة تحليلية- : د. اياد عبد المجيد ابراهيم، دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد، ٢٠٠٠، ص٢٦٩.

ماعلىٰ بابل لو استقبلتها ... واجتنتْ من ثمارها الأسحارا (تأريخي)
كلّ خمريةٍ ولم تُسَق خمراً ... تلبسُ الحسنَ والدلالَ خِمارا
تذرُ السامعينَ يثنونَ اعطا ... فَ سكارىٰ وما هُم بسكارىٰ
لو تغلغلنَ في مسامعِ رضوىٰ ... لاتثنىٰ راقصاً وخَلّىٰ الوقارا[1] (آني)

هل ترى كيف استلهم الموروث بكل اشكاله؟ فالاول؛ كمن في المكان (بابل) وما عرفت عنه- كما اسلفنا- . والثاني؛ حينما استضاء بالنص القراني من الاية الكريمة (وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ)[2]، إفعاماً منه في اتقان الصورة، واجادة المعنىٰ. والاخير؛ في رضوى وهو الطود الشامخ الضخم ليجعله راقصاً، تاركاً الوقار، متخلياً عن شموخه امام اصوات الجواري الناعمة، بين بريق الخمرة وسحر المرأة.

ان المكان الاول (بابل) هو الذي دعا الى بناء خاتمة النص، واسهم في اتمامه على هذه الشاكلة. وبلاشك فان هذا المكان يدل انياً على انصهار ابن صارة مع جمع من صحبه حول مائدة الشراب، واصوات النواعم اللواتي تركنهم سكارىٰ وما هم بسكارىٰ.

وينظر الرصافي البلنسي الىٰ بابل مكان السحر. فيطيب له ان يفتخر بنفسه، وبقومه مستغلاً دلالة هذا المكان وما عُرف عنه ، يقول في خاتمة قصيدة:

هلْ درت بابلُ أنّا فتيةٌ ... تجعلُ السحرَ من السحرِ رقىٰ (تأريخي)
ننقشُ الآيةَ في اضلاعنا ... فتقينا كلّ شىءٍ يُتقىٰ
من بنانِ الوزرِ الأعلىٰ الذي ... يُخجلُ السحرَ إذا مَا نَطقا[3] (آني)

فالمكان التأريخي (بابل) اثار دلالة آنية جعلها الشاعر خاتمة ابياته ليفتخر بشىء عرف عن اهل هذا المكان في المشرق- ديناً[4] وادباً وتأريخاً-. فما ان ذُكرت بابل حتىٰ ذُكرت معها صناعة السحر وذكر معها السحّارون فاراد الرصافي من خلال هذا الايحاء المكاني ان يبرّز نفسه علىٰ اهل الصنعة، واهل المكان الذين عرفوا به. وهذا نابع من

(١) قلائد العقيان: ٤/٨٤١؛ الخريدة: ٢/٢٧٠-٢٧١.
(٢) سورة الحج، بعض الاية: ٢.
(٣) ديوانه: ص ١١٢.
(٤) ينظر: سورة البقرة ، الاية ١٠٢.

حالة نفسية متأزمة رأت في الفخر متنفسها، ورأت في المكان التاريخي (بابل) ما يبوح عن هذا المتنفس ويعبّر عنه.

أمّا ابن الابار؛ فهو عندما يذكر بابل يذكر جمال معشوقه، ودلاله وصده على انه -المعشوق- ما حلّ بابل او سكن بها ولكن؛ ما عُرف عنها من جمال المكان وتوارث السحر ومدينة الخمر ما يجعله يجذب النفس الى بيئته عن طريق هذا الايحاء المكاني ولما في بيئته من محسنات بديعية رشيقة. يقول:

مَن عاذري من بابليٍّ طرفُهُ ولعمرهُ مَا حَلَّ يَومَا بَابلا
اعتَدَّهُ خوطاً لعيشي ناعماً فيعودُ خطيّاً لقتلي ذابلا[1]

وقد استحضرت وقائع اسلامية بارزة، ومعارك مشهودة خاضها المسلمون في الشرق لدى الشاعر الاندلسي ولاسيما في غرض المديح[2]. والشاعر من خلال هذا الاستحضار لتلك الوقائع واماكنها ونتائجها كوقعة بدر الكبرىٰ وغيرها انما هو يضع ممدوحه امام تلك البطولات والامجاد التي صنعها اولئك الرجال.

لقد سجّلوها باحرف من نور في سفر الامة الاسلامية المجيد. فالشاعر الأندلسي انما يستنهض الهمم ويخاطب غيرة اهل الاندلس ليكونوا السد المنيع، والرادع الحصين لمن اراد ان يدنس ارضهم، ويحتل بلادهم، ويبدل شعائرها وتعاليم دينها.

ولذا فالامكنة الآنية التي يمر بها الشاعر الاندلسي وشعب الاندلس اوحت لهذا الشاعر ان ينظر إلىٰ موروثه التأريخي، فذهب يذكر بطولات الصحابة (رضوان الله عليهم)، ويمجد القادة، ويخلّد الشهداء، ويذكر فتح المسلمين للبلاد ايام الدولتين الاموية والعباسية رغبة منه في اسباغ القوة والمنعة على جنود الجيش الاسلامي في الاندلس، وبثّ روح الاستنفار بين هؤلاء الجنود بما يقوي عزائمهم، ويرفع ارادتهم اثناء مواجهة العدو.

ولم يقتصر وروود الامكنة الآنية المستوحاة من سمات الامكنة التأريخية ومدلولاتها على ذكر المدن وما عرفت به، او توقفت على قصائد المديح وذكر المعارك فحسب وانما؛ جاءت في مفاصل القصيدة الاندلسية في اغراض اخرىٰ مستلهمة امكنة اخرىٰ.

---

(١) ديوانه: ص ٤٥٦.

(٢) ينظر: ديوان الاعمىٰ التطيلي: ص ٢٠٥؛ ديوان ابن الخطيب: ص ٣٦٨؛ ديوان ابن رمرك: ص ١٣٣؛ نثير فرائد الحمان: ص ٢٠٨، ص ٢٣٢.

فالاعمى التطيلي اذا رثى جاء بمقدمة طويلة زاخرة بالامكنة والاشارات التاريخية، كما جاء بكثير من الاسماء والشخصيات التي لعبت اثراً بارزاً في حضارة الاقوام التي عاشوا بين ظهرانيها، يقول:

خُذا حدثاني عن فُلٍ وفُلانِ ... لعلي أرى باقٍ على الحدثانِ
وعَن دولٍ جسنَ الديارَ واهلها ... فنينَ، وصرفُ الدهرِ ليسَ بفانِ
وعَن هرمي مصرَ الغداةَ، امتّعا ... بشرخِ شبابٍ أم هُما هرمانِ
وعَن نخلتي حلوان كيفَ تناءتا ... ولم تطويا كشحاً عَلى شَنآنِ
وطالَ ثواءُ الفرقدينِ بغبطةٍ ... أما علما أن سوفَ يفترقانِ
وزايلَ بينَ الشعرين مصرفٌ ... من الدهرِ لاوانٍ ولا متوانِ
فإنْ تذهب الشعرى العبور لشأنها ... فان الغُميصا في بقيةِ شانِ
وجُنّ سهيلٌ بالثريا جنونَهُ ... ولكنْ سلاهُ هَل يلتقيانِ
وهيهاتَ من جورِ القضاءِ وعدلهِ ... شآميةٌ الموتُ بدينِ يَمانِ
فاجمعَ عنها آخرَ الدهرِ سلوةً ... على طمعٍ خلّاهُ للدبرانِ
واعلنَ صرفُ الدهرِ لابني نويرةٍ ... بيومِ تناءٍ غالَ كُلَّ تدانِ
وكانا كندماني جذيمةَ حقبةٍ ... من الدهرِ لو لم تنصرمْ لأوانِ
فهانَ دمٌ بينَ الدكادكِ واللوى ... وما كانَ في امثالها بمهانِ
فَضاعتْ دموعٌ باتَ يبعثُها الاسى ... يهيّجهُ قبرٌ بكُلِّ مكانِ
ومَالَ على عبسٍ وذبيانَ ميلةً ... فأودى بمجنيٍّ عليهِ وجانِ
فَعوجا على جعفرِ الهباءةِ عَوجةً ... لضيعةِ أعلاقٍ هناكَ ثمانِ
دماءٌ جَرتْ منها التلاعُ بملئِها ... ولاذَحلَ إلّا أنْ جَرى فرسانِ[1]

وعلى الرغم من طول المقدمة التي نقلناها الا انها لم تنتهِ بعد. فيستمر الشاعر في وصف حروب الجاهلية ومنها حروب الاوس والخزرج وماخلّفته هذه الحروب من ويلات جرت المتاعب على اهلها طويلا. ويبدو ان الشاعر كان ممن يستمرئون التعب في نبش هذه الاحداث التأريخية فذكر بكرا وتغلب، وقصة المهلهل بن ربيعة وحادثة

(١) ديوانه: ص ٢٢٤-٢٢٧. وينظر تخريجات د. احسان عباس لاماكن النص وتواريخه و حداثه وشخصياته.

قتله، وقصة قبيلة عدوان وهم قوم جعل الله بأسهم بينهم فتفانوا وهلكوا. وبعد هذه الحوادث والامكنة والشخصيات والمشاهد يلج التطيلي الرثاء فيبدأ على عادة ما يبتدأ به الشعراء من ذكر مناقب المرثي، ومحامده. والتطيلي انما لجأ الى هذه المقدمة الطويلة لسببين اثنين:

الاول؛ قدم الشاعر وبصورة عفوية التسلية والتصبر لاهل المرثي عن طريق التعريف بكل هذا الموروث التأريخي الضخم من حوادث ومعارك واسماء، والذي يهم المرثي اذ يعود –في نظر التطيلي – الى هؤلاء الذين كتبوا التاريخ وخلدوا فيه اسمائهم وماثرهم . فلاشك في ان هذه الاسماء قد جلبت لاهل المرثي الصبر، وعالجت جراحهم فالنماضر الى هذا الكم الهائل من الاسماء والشخصيات في مختلف العصور والدهور لتهون عليه مصيبته ويهون عليه فقده. وهذا ما اراده التطيلي.

الاخر؛ ان الشاعر في هذه المقدمة اباح عن كنه مشاعره من خلال ذكر هذه الحوادث واماكنها فمن خلال هذا الموروث التاريخي الكبير يمكننا ان نشم رائحة الشكوى وضيق الحال وسوء المكان الذي يقيم فيه شاعرنا. ولذا لجأ لكل هذه المؤثرات التاريخية رغبة منه في تسلية نفسه ومواساتها . فالمكان الآني الذي تحدثنا عن سماته وخصائصه كان مكان التطيلي ومحل اقامته فلابدّ من الهروب عنه ولو لوقت بسيط عن طريق الشعر، وعن طريق التأريخ الذي كثيرا ما يسلّي النفس و يزيل همومها. ولذا كانت اكثر الاحداث التي وردت في المقدمة تحكي غدراً كقصة المهلهل وعدوانا، أو تقصّ غربة كهرمي مصر ونخلتي حلوان، وتحدّثُ عن حرب كحرب بكر وتغلب وعبس وذبيان. فالتطيلي في استنطاق مثل هذه الاحداث انما حكىٰ غربته، وغربة عصره، وشكواه من مكانه الذي جلب له كل هذه الحسرة والالم والبكاء.

ولم يكتفِ الشاعر الاندلسي بالمقدمة كمفصل من مفاصل القصيدة يذكر فيها الامكنة التأريخية ويشير الى رموزها ودلالاتها كما انه لم يكتف بها ايضا كبعد يحكي فيه مشاعره تجاه احداث حياته وعصره ومكانه منذ اول النص انما يعمد الى النص الشعري ككل فيجعله يدور في فلك تجاربه ويعبر عن الامه عن طريق الايحاء التأريخي. فحازم القرطاجني يستنطق هذا الايحاء عن طريق حادثة سيدنا الحسين بن علي(رضي الله عنهما) تلك الحادثة الاكثر بكاءً لمشاعر المسلمين اذا ما ذكرت والاكثر حزناً والماً إذا

ما عبر بها الشاعر عن فرط حزنه والمه. يقول القرطاجني ذاكرا وقعة الطف[1]:

لاتبكِ حُزناً ليومٍ بينَ وذكرِ ريمٍ برامتينِ
وابنَ البتولِ الحسينَ فاندبْ الطاهرَ ابنَ المطهّرينِ
قفا خليلي نبكي حُزناً: بكاءَ قلبٍ ونـاظرينِ
فإنَّ رزءاً بكربلاءَ فرّقَ بينَ الكرى وبيني
بالطفِ يوماً بكتهُ منّا ومن حيا المُزنِ كلَّ عينِ
اودىٰ حسينٌ بهِ فمالي عليهِ بالصبرِ من يدينِ[2]

والقصيدة تعرض صبر الامام الشهيد، ورضاه بقدر الله- سبحانه وتعالى- ومن ثم يبكي عليه القرطاجني بالدموع المدرارة، لاسيما وانه رزء اصاب الامة الاسلامية، وجعل مصابها اليما عظيما. ولاشك في ان هذه الحادثة ماكان لتكون عارضا يذكر، او عاقبة تمر، بل؛ ستظل تذكرنا بنكبة المسلمين ، ومكان حوادثهم المؤلمة، على صعيد الاندلس وغيرها. ومن هنا فالقرطاجني يستذكر هذه الحادثة، وفقيدها، ومكانها من واقع مكاني اني ممقوت شابه ذلك المكان ومائله في المشاعر، الما وفقدا وعظة.

وربما زادت هذه المشاعر في المبالغة بعظمة الفقد والمصاب عند يوسف الثالث، وهو الذي عانى ما عانى سجناً وغربة وسلب حق كان من المفروض ان يحصل عليه منذ حين. يقول في رثاء الامام الحسين- رضي الله عنه-:

ساعديني ياسماءُ بدموعِ المرزمينِ
كربلاءُ هيّجَ كربي وحسينٌ أصلُ حينِ
بعدَ صيفِ الطفِ تطفي لوعتي أدمعُ عيني
يابي منهم وجوهٌ قُدستْ عَن كلّ شينِ
أشعروا الموتَ جهاراً وثنوا كالفرقدينِ[3]

(١) الطف: ارض بناحية الكوفة في طريق البرية، قتل فيها الامام الحسين -رضي الله عنه-.ينظر: معجم البلدان: ٣٦/٤.

(٢) قصائد ومقطعات: ص ٢١٦-٢١٧.

(٣) ديوانه: ص ١٦٦-١٦٧.

ان قوله (وحسين اصل حين)، هو ماأراده من عموم النص، ومن خصوصية نظمه في رثاء الامام ورزء كربلاء. فحادثة الامام، وكربلاء كانت مركز اهتمام يوسف، وبؤرة احزان المسلمين-كما قلنا- فلاضير ان يضمها ملك مضام ، سليب الحق لشعره ، وان يعبر من خلالها عن حقه، وعن غدر الاشخاص الذين سلبوه منه، وعن مكانه الذي يجمع كل هذه الاشياء معا، فيثير في نفسه كل هذا الحزن العميق، والاسى البليغ.

وقلنا انفا ان الامكنة الانية المستوحاة من اثر الامكنة التاريخية ودلالاتها لم تقف على حدود الامكنة التاريخية المشرقية. وانما استذكر الشاعر الاندلسي في العصور التي خصصناها في دراستنا: عصر المرابطين وعصر الموحدين وعصر بني الاحمر ماحدث لامته في العصور السابقة لها وما ترتب على هذه الاحداث من خراب ودمار شمل مدينة اوشخصاً او شعبا. فابو عبد الله بن ابي الخصال له مسمطة يندب بها قرطبة والزهراء. وهاتان المدينتان تذكرنا بقصة الغرام التي وقعت مع الشاعر ابن زيدون في ذلك العشق الشهير.

لقد كانت مسمطة ابن ابي الخصال تذكيرا لتلك القصة، وملمحا من ملامح تكوين المكان الاني من خلالها. وعل ابياتا منها تخبرنا عن هذا الملمح بتأكيد وعناية، يقول:

لستَ ترىٰ ان المقامَ علىٰ شفىٰ وانّ بياضَ الصبحِ ليسَ بذي خَفا
وكم رسمِ دارٍ للاحبةِ قَد عَفا وكانَ حديثاً للوفودِ مُعَرَّفا

فاصبحَ وحشَ المنتدىٰ يتحنّبُ[1]

اذن؛ فالزهراء اطلال تبكى، وقرطبة دوارس تندب وامكنة تنتحب.

ان الشاعرين كليهما من اصحاب الوزارتين السيف والقلم، فكلاهما ينظران الى المكان من زاوية ثقافية واحدة، كما انهما شهدا انتكاسات في حياتهما. الاول (ابن زيدون) خسر عشقه الذي كان مصدرا مهما من مصادر ادبه، واودع السجن. والاخر (ابن ابي الخصال) خسر حياته بمقتله. ففقدت به الاندلس اديباً كبيراً ووزيراً عادلاً. فالمكان (الزهراء) كان لابن ابي الخصال اكثر من مكان اني يعيش فيه. فقد كان

(١) الخريدة: ٢/٤٧٢-٤٧٣. وقد وردت احداث وامكنة متشابهة بين المسمطتين. ينظر: ديوان ابن زيدون ورسائله. شرح وتحقيق: علي عبد العظيم، القاهرة، ١٩٥٧، ص١٢٩-١٣١: ص ١٣٤-١٣٦.

هاجسه ومحل اماله فاذا ما انتكس وفتن كان لا بد له من نبش قبور الماضين، وتجديد ذكراهم لاسيما انه يماثلهم الثقافة والادب والسلطة.

وفي قصة الغرام التي وقعت بين الوزير ابي جعفر بن سعيد وبين الشاعرة حفصة الركونية (ت٥٨٦هـ)[1] مايعيد لنا -تاريخاً وادباً- قصة ولّادة وابن زيدون. وما الشعر الذي قيل بينهما الا تذكرة للشعر الذي قيل بين ابن زيدون وعشيقته. إلّا ان ابا جعفر كان اكثر حظاً في حبه من ابن زيدون، لان حفصة كانت تحبه فعلاً، فكان معشوقاً اكثر منه عاشقاً، اما ابن زيدون فبالعكس كان عاشقاً اكثر منه معشوقاً فولّادة كانت امراة متعجرفة عنيدة تتصرف كأميرة حتى مع حبيبها[2]. فالناظر في شعر ابي جعفر يرى فيه انفاس ابن زيدون والفاظه الغزلية العذبة، واما كناية الطبيعية المألوفة. يقول ابو جعفر في جواب حفصة:

أجلّكم مادامَ بي نهضةٌ عَن أن تزوروا إنْ وجدتُ السبيلْ
ما الروضُ زوّاراً ولكنّما بزورهِ هبَّ النسيمُ العليلْ[3]

وفي ليلة من ليالي الوصال مع حفصة في بستان بحور مؤمل قرب غرناطة، ما يذكرنا بليالي الزهراء واحاديثها وروضها واطيارها:

(١) حفصة بنت الحاج الركونية، شاعرة اديبة من شواعر غرناطة يرجح انها ولدت سنة (٥٣٠) كانت مشهورة بالجمال والحسب والمال، تولّع بها ابو سعيد ابن عبد المومن ملك غرناطة، وبسببها نقم على ابي جعفر بن سعيد فقتله، توفيت على الاغلب في نهاية (٥٨٠)، ورُجّح انها سنة (٥٨٦)،ينظر: المُطرب من اشعار اهل المغرب: ص ١٠، تحفة القادم: ص ٢٤٠، المقتضب من تحفة القادم: ١٦١؛ رايات المبرزين: ص ٩٢-٩٣، المُغرب: ٢/١٣٨، الاحاطة: ١/٤٩١، الشعر النسوي في الاندلس ص ١١٦-١٢١، دراسات اندلسية في الادب والتأريخ والفلسفة: ص ٨٨-١٠٩؛ الشعر النسوي الاندلسي (اغراضه وخصائصه الفنية): ص ١٥٥-١٧٨.

(٢) ينظر الشعر النسوي الاندلسي (اغراضه وخصائصه الفنية): ص ١٦٦.

(٣) مجموع شعره: ص١٣٧.

رعى اللهُ ليلاً لم يُرعْ بمذمّم عشيّة وارانا بحورٍ مؤمّلِ
وقد خفقتْ من نحو نجدٍ اريحةٌ إذا نفحتْ جاءتْ بريّا القرنفلِ
وغرّدَ قمريٌّ على الدوحِ وانثنى قضيبٌ من الريحانِ فوقَ جدولِ
يُرى الروضُ مسروراً بما قد بدا لهُ عِناقٌ وضمٌّ وارتشافٌ مُقبّلِ[1]

ان اية قصة غرام تحدث في عصرنا لابد ان نستذكر من خلالها قصة ولادة وابن زيدون. وتذهب الذاكرة بعيداً لتستجلي احداث هذه القصة وملابساتها والشعر الذي قيل فيه، والزهراء التي احتضنت هذا الغرام وذلك الشعر. وهذا ما يتركه الشعر فينا فهو حبّ وأمل وتأريخ وحضارة.

وفي مأساة اشبيلية وملكها المعتمد بن عباد، وضياع ملكه وانهيار دولته ما يثير شجناً والماً عند شاعر عاقبتُه الظروف، وعاش ازمة المكان الآني الذي حلّ فيه (السجن)، وشهد انكار الصديق والقريب والتلميذ كلسان الدين بن الخطيب. اذ اثارت هذه المأساة قريحة هذا الاديب الشاعر، وهو يزور اغمات[2] ويقف على قبر المعتمد، يقول:

قَد زرتُ قبركَ عن طوعٍ بأغماتِ رايتَ ذلكَ من أولى المهمّاتِ (تأريخي)
لِمَ لا أزورُكَ يا ندى الملوكِ يداً ويا سراجَ الليالي المُدلهمّاتِ
وانتَ من لو تخطّى الدهرَ مصرعَهُ إليّ حياتي اجادتْ فيه ابياتي
اناف قبرُكَ في هضبٍ يميّزهُ فتنتحيهِ خفياتِ التحياتِ
كرُمتَ حياً وميتاً واشتهرت عَلاً فانتَ سلطانُ احياءٍ وأمواتِ
ما ريعَ مثلُكَ في ماضٍ ومُعتقدي أنْ لايرى الدهرُ في حَالٍ وفي آتِ[3] (أنسي)

(١) مجموع شعره : ص ١٣٩.

(٢) اغمات: بلدة بارض المغرب بقرب وادي درعة قريبة من مراكش. اهلها يعملون في التجارة ومدينتهم عامرة باصناف الازهار والثمار. وهما مدينتان احدهما؛ تسمى اغمات وريكة، والاخرى: اغمات ايلانة وبينهما نحو ثمانية اميال.ينظر: معجم البلدان : ٢٢٥/١؛ مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والاندلس، ص ١٣٣، كتاب معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار: ص٤٥-٤٦.

(٣) ديوانه: ص ٣٣٨-٣٣٩.

ان القطعة بالغة الاسى واللوعة والالم . ان ابن الخطيب انما اراد ان يخلد المعتمد واغمات والقبر وهو المؤرخ الثبت وعن طريق هذا التخليد، وعن طريق هذا المكان (القبر) اراد الشاعر المنكوب ان ينفث سموم شكواه، وان يبادل المعتمد الهموم التي اوقعت به وكبلته القيود وماتت به في السجن وحيداً شريداً، وقد كان الملك الفارس الشجاع الجواد.

ان المكان الآني يستحضر من خلال هذا المكان التأريخي، ومن خلال هذه الثيمة المكانية المعادية (القبر) اذ لافرق بينها وبين سجن ابن الخطيب من حيث المشاعر والعواطف والانفعالات، فالمكان التأريخي هنا شاهد عظة واعتبار اودعه ابن الخطيب ابياته ليبوح من خلاله عن شكوى دفينة، وعن حال متالم باكٍ، فالمكان التأريخي يكتسب في النص الشعري (حضوراً فاعلاً فهو من جانب يمنح النص بُعداً شاملاً بانفتاحه على التراث والتواصل مع الماضي، ومن جانب اخر فان الشاعر يمنح المكان التأريخي القدرة على التجدد والافلات من اسر الزمن بالخروج من دائرة الماضي والحضور المتواصل عبر النص الشعري)[1].

٣.ادب الاستنجاد تجسيد للمكان الاني عند الشاعر الاندلسي.

عاشت الامة الاندلسية سلسلة طويلة من النكبات والمآسي من وجوه حياتها المختلفة في الاندلس فمنها النكبة الاقتصادية بضياع تلك المدن الغنية بارضها وزرعها وخيراتها، ومنها النكبة السياسية وما تبعها من سقوط الحكام وضياع السلطة وانتشار الفوضى والفساد الاداري حتى في المناصب الدينية كخطة العدل والقضاء وادارة المساجد، ومنها النكبة الدينية وعلها اشد انواع النكبات التي مرّ بها الانسان الاندلسي وهو يفقد دينه الذي جاء من اجل نشر مبادئه الى هذه البلاد، ويفقد اماكن عبادته في بلنسية واشبيلية وغرناطة مرغما مذعنا. وبحلول هذه النكبات في ذلك الشعب المسلم المحافظ، فقد الاندلسيون كل شئ، فنواياهم الدينية التي جاؤا من اجلها لفتح هذه البلاد، ودعوة اهلها لدين الاسلام الحنيف قد تغيرت، كما ان قواهم وعزائمهم التي تنبع من تلك النوايا الحسنة الصادقة قد تبدلت، فلاحقت الترف المادي وشهدت الاسراف الاقتصادي. ومن ثم فدفاعهم الذي ياتي عن تلك القوة قد تلاشى وانهى،

(١) المكان في الشعر العراقي الحديث: ص ١٣٧.

فاحتل العدو ارضهم، واعلن طردهم، واذاع هزائمهم التي اصبحت ماضيا مؤلما. وفقدا عزيزا لحضارة وتاريخ بناه العرب واعزه الاسلام ونصره.

(لقد تتبع الشعر الاندلسي هذه المحن والنكبات كلها، مسجلا مراحلها، مخلدا شعور الاندلسيين فيها، معبرا بالدمع والدم عن تلك الاحساسات العميقة الصادقة التي كان يشعر بها الانسان الاندلسي تجاه الارض ومعالم الدين والحضارة والفكر، في تجربة انسانية قل نظيرها في ادبنا العربي القديم)[1]

ولم يخلُ هذا التتبع من خوف على مصير الامة الاسلامية في الاندلس، ومن نقد للاوضاع التي قد تحيل تلك الاصقاع البهية الى اماكن مقفرة، لا نرى فيها الا ما يبكي ويؤلم (وقد بدات اولى صيحات التحذير مع بداية بوادر التمزق الذي اصاب المجتمع الاندلسي، باندلاع الفتنة التي اجتاحت عاصمة الخلافة (قرطبة سنة ٣٩٩هـ). حدث حذّر احد شعراء قرطبة انذاك مواطنيه من هذا التمزق وانبأهم -ان لم يتداركوا امرهم- بمستقبل قاتم لا ينجو من التردي في ظلماته احد)[2]. يقول:

اضعتُم الحزمَ في تدبيرِ أمركم ... ستعلمونَ معاً عُقبىٰ البوارِ غَدا
فلو رأيتُم بعينِ الكفرِ حالكم ... بكيتُم دماً ان دمتُم أبَدا
كُنَّ سُبلَ العمىٰ أعمتْ بصائرِكم ... فالبستُكم ثيابَاً للبلىٰ جُددا[3]

ورافق هذا الخوف تعريضاً بملوك المسلمين واولي امرهم. اذ عدّهم بعض الشعراء أول من اورد تلك الامة الموارد، وادار عليها الفتن، وسهل وسائل العدو من النيل منها ومن اهلها. ويقول السميسر الالبيري (ت٤٨٨هـ) في ابيات مُعرِّضاً بهؤلاء الملوك:

---

(١) الاصوات النضالية والانهزامية في الشعر الاندلسي،الطرابيشي احمد عراب، مجلة عالم الفكر -الكويت، مج ١٢، ع١، ١٩٨١. ص١٣٢.

(٢) الشعري الاندلسي والتصدي للانهيار: د. الربعي بن سلامة. محلية قسنطينة -الجزائر، ع١، ١٩٦٥. ص١٠١.

(٣) البيان المُغرب في اخبار الاندلس والمغرب: ١١٠/١.

نـــادِ الملـــوكَ وقُـــلْ لَـــهم مَـــاذا الـــذى أحدثتُـــم
أسْـــلمتُم الاســـلامَ فـــي أسْـــرِ العِـــدىُ وقعدتُـــم
وجَـــبَ القيـــامُ عليكـــم إذ بالنصـــارىٰ قمتُـــم
لا تنكـــروا شَـــقَّ العصـــا فَعصـــا النبـــي شَـــقَقتُم[1]

(فالابيات وان غلبت عليها صبغة النثر، فانها على الاقل تعكس هذا الاحساس الصادق الذي كان يعتمل في ضمير الامة تجاه هؤلاء الملوك)[2].

وما اكتفىٰ السميسر بالتعرض بهم، بل شتمهم وسخر منهم- وهو الساخر السيكم- ونعتهم بالخيانة وانهم اهانوا فهانوا، فهم تحت كل تحت، ودون كل دون. وهو ريح عاد التي تجلب لقومها كل نحس وبؤس[3] ومن هذا المنطلق كان السميسر اكثر شعراء ملوك الطوائف جرأة وحبرة في نقد الاوضاع التي آلت اليها الاندلس في ظل اولئك الملوك. فكم فضحهم، واذاع فسادهم، وعرى اسلوب حكمهم المتنسخ[4].

وما سمع احد لتعريض السميسر وما سمع اولئك القائمون على امانات المسلمين نصيحة احد فتمادوا في غيهم ووصل الامر ببعضهم ان يستجير بملوك الاسبان لمحاربة اخوانهم حتى ضاعت المدينة تلو المدينة والمكان بعد المكان حتى وصل الامر لغرناطة التي ضاعت هي اخرى فكانت اخر معاقل الاسلام هناك، واخر كلمة العرب في الاندلس.

والشاعر الاندلسي عَلىٰ مرأىً ومسمع من هذه الاحداث . فسخر شعره ليبكي ويستصرخ ويستنجد ملوك المغرب لتدارك امر المسلمين في مدن الاندلس. وانقاذهم من ذلك العدو الباطش الجبار الذي مازال يتقدم ويخرب ويبيد، وفي كل هذا الشعر نرى سمات المكان الاني الذي يستصرخ له الشاعر مرة بالرثاء وثانية بالنقد والتعريض.

---

(١) السميسر الالبيري (حياته وشعره): د. حلمي ابراهيم الكيلاني، مجلة مؤتة -الاردن. مـ٧، ع١، ١٩٩٢، ص١٤٨.

(٢) الاصوات النضالية والانهزامية في الشعر الاندلسي: ص١٣٤.

(٣) ينظر : السميسر الالبيري(حياته وشعره): ص١٤٠،١٤٥، ١٥٠، ص١٥١.

(٤) ينظر: مدخل الى الادب الاندلسي: ص ١٢١-١٢٣؛ الاصوات النضالية والانهزامية في الشعر الاندلسي: ص ١٣٥.

وهجاء جيش العدو والنيل من جنوده، وثالثة بيت تعاليم الاسلام، ربما الروح المعنوية للجيش الاسلامي الذي يرابط في سبيل الدفاع عن ارض المسلمين وكرامتهم ومحارمهم. ابو جعفر الوقشي(ت٥٧٤هـ)[1] يقصد مراكش ويمدح الامير ابا يعقوب بن عبد المؤمن بقصيدة فريدة، يتعرض في مقدمتها لحال الاندلس وحال اهلها، وما حل بهم من نكبات ومحن يقول:

فحُقَّ لدمعي أن يفيضَ لأزرقٍ ... تملّكَ دعجاءَ المدامعِ سُودا
ويالهفَ نفسي مِن معاصمِ طفلةٍ ... تجاورُ بالقيدِ الأليمِ النهودا
وآهاً أمُدُّ الصوتَ منتحباً على ... خلوّ ديارٍ لو يكونُ مُفيدا
لعلَّ أميرَ المؤمنينَ يعيدُها ... الى افضلِ من خالَها فتعودا
حَملتُ إليهِ من نظامي قلادةً ... يلقبُها أهلُ الكلامِ قَصيدا
غدتْ يومَ إنشادِ القريضِ وحيدةً ... كما قصدتْ في المُعلواتِ وَحيدا[2]

هل نرى كيف حمّل الشاعر ارهاصات المكان الذي يعيش فيه إلى مكان اخر؟ وهل نرى اثر الظروف الآنية التي جعلت المكان مثيراً للدموع، مبكياً لرحمة لكل من يسمع القصيدة؟ فتهب في نفسه مشاعر الغيرة، وتلتهب في حفيظته دوافع النجدة والاغاثة لهكذا حال.

ان المكان هو الذي اثار مشاعر الوقشي، ودفعه لنظم النص وجعله لوحيد عصره وقائد زمانه علّه يسلُّ السيف ويطرد الغاصب المعادي. وعلى الرغم من ان سمات الاستنجاد لم تظهر فيما مثلنا به من ابيات الا انها كشفت بعمق واضح عن المكان الاني الذي يعيشه اهل الاندلس اليوم، فكيف كان فيما مضى وكيف سيكون في المستقبل؟؟ واذ عُدنا إلى الجزء الباقي من القصيدة وفيها يتخذ المضمون الموضوعي بُعداً جديداً، إذ يركز عَلى أهل الشرك والشرّ (العدو الاسباني)، يرى الوقشي انه لا سبيل لانقاذ

(١) احمد عبد الرحمن الوقشي، تردد على مالقة كثيرا. كان من بيت جلاله وحسب شهيراً سري النبهة اديباً فاضلاً شاعراً مطبوعا.كتب بجيان لابي اسحاق بن همشك فلما توفى قصد مراكش ومدح الامير بالقصيدة التي استشهدنا بها سنة(٥٦٤هـ).ينظر: تأريخ المن بالامامة: ص ٤١٦، الحلة: ٢/٢٠٧. المُعجب في تلخيص اخبار المغرب: ص ١٥٠، المغرب: ٢/٥٢، البيان المغرب: ٣/٣٩، الاحاطة: ١/٣٠٥، نفح الطيب: ٥/٢٧١.

(٢) الذيل والتكملة: ١/١/١٩٨.

الاندلس الا بالقضاء على مركزهم في (شنت ياقب)[1]. حيث كبيرهم وعميدهم وبـــؤرة قوتهم يقول:-

أَلا ليتَ شعري هَل يَمــدَّنَّ لــي المــدى		فــأَبطرَ حفــلَ المشــركينَ طَريــدا
وهَل بعدُ يقضي في النصارىٰ بنصــرهِ		تُغــادرهم للمرهفــاتِ حَصيــدا
وَيغزو ابو يعقوبَ فــي شــنت يــاقب		يعيــدُ عَميــدُ الكــافرينَ عَميــدا
ويفتكُ مــن أيــدي الطغــاةِ نواعمــاً		تبدلــنَّ مــن نظــمِ الحجــولِ قيــودا [2]

(لقد ادرك ابو يعقوب حتما بان الجزيرة محتاجة الى فتح جديد فعليه ان يعــد العــدة للجهاد الاكبر والطويل ليعيد به الاسلام صفحته المجيدة)[3]. وبذا تكون اشعار الوقشــي وغيره[4] قد آتت أُكلُها وأينع ثمرها ونضج اذ لقت اذناً مصغية ونفســاً غيــورة علــىٰ مقدسات المسلمين ومعتقداتهم واوطانهم ودمائهم.

ومن الشعراء الذي ولجوا باب الاستنجاد. وجسدوا المكان الاني من خلال هــذا الباب ابن سهل. فله قصيدة استصرخ فيها العرب للجهاد في الاندلس ســنة ٦٤٠هـــ. أستهلها بقوله:

ورداً فمضمــونٌ نجــاحُ المصــــدرِ		هــي عــزّةُ الدنيــا وفــوزُ المحشــــرِ
نــادىٰ الجــهادُ بكــم لنصــرِ نبيّكــم		يبــدو لكــم بيــنَ العتــاقِ الضمّــرِ
خَلّــوا الديــارَ لــدارِ ملــك وأركبــوا		غمــرَ الحجــاجِ إلــىٰ النعيــمِ الأخضــرِ
وتَسوَّغوا كدرَ المناهلِ فــي الســرىٰ		تــرووا بمــاءِ الحــوضِ غــير مُكــدّرِ
وتجشّــموا البحــرَ الأجــاجَ فإنّــهُ		ســببٌ بــهِ تَــردونَ نــهرَ الكوثــرِ[5]

ويستمر ابن سهل في اغراء المستغاث بهم بتعداد مزايا الجهاد. وما اعده الله للمجاهدين في سبيله من نعيم وجزاء، بما يستحق به الفخر في الدنيا والاخرة. وهــو يؤكــد هــذه الاستمرارية بجعله السيوف مغمودة فلم ترفع في سبيل الحق، والخيل مرابطها ضجــرة

(١) شت ياقب: (كنيسة عظيمة في ثغور ماردة). الروض المعطار: ص٢٤٨.
(٢) الذيل والتكملة: ١/١/١٩٨-١٩٩.
(٣) الاصوات النضالية والانهزامية في الشعر الاندلسي: ص١٣٩.
(٤) ينظر: تأريخ المن بالامامة: ص٤٣٦-٤٤١؛ المعجب في تلخيص اخبار المغرب: ص٢٢٥-٢٢٦.
(٥) ديوانه: ص١٥٧-١٥٨.

تريد الجهاد والرباط ضد من غيروا معالم الدين وعطلوا سنن النبي (صلى الله عليه وسلم):

والكفرُ ممتدّ المطالعِ والهُدىٰ ... متمسكٌ بذنابِ عيشٍ أخضرِ
البيضُ تقلقُ في الغمودِ مضاضةً ... للحقّ، إذ تَلقىٰ يدُ المستصغرِ
والخيلُ تضجرُ في المرابطِ حسرةً ... أن لا تجوسَ حريمَ رهطِ الأصفرِ
كَم نكّروا من معلمٍ، كَم دمّروا ... من معشرٍ، كَم غيّروا من مشعرِ
كَم عطّلوا سننَ النبيّ وعَطّلوا ... من حليةِ التوحيدِ صهوةَ منبرِ[1]

وعلى شاكلة هذه الابيات يبين ابن سهل المصائب التي وقعت في بلاد الاندلس والرزايا التي اكتنفت اهلها، ولا شك في ان الاستفهام الانكاريالخارج لمعانى التهويل والتعظيم اسبغ على ابياته جسامة الموقف، ومصاعب الحال التي يمر بها المسلمون في تلك البلاد سنة (٦٤٠).

لم ييأس الشعراء ولم تعرف نفوسهم الشامخة الابية الاستسلام. على ان الوضع الجديد لبلاد الاندلس في القرن السابع الهجري كان اكبر من ان يوصف. فقد كثرت الاعتداءات واحدقت بالامة المسلمة الويلات والمخاطر من كل حدب وصوب، واخذت المدن تتساقط تباعا، واهلها يجبرون على تركها وبقي الشاعر امام كل هذه الويلات في خوف وامل يسعى في شعره لاستنهاض الهمم وطلب النجدة ممن يتأمل فيهم زوال شدته وتفريج كربته[2].

فقام ابن الابار الاديب الاريب، الشاعر ذو الحس الوطني الصادق الخالص يستنجد بابناء الدولة الحفصية بقصائد قل نظيرها في الادب العربي مشاعرا ونسجا وصنعة، يضع ابن الابار بين يدي امراء هذه الدولة ماساة اخوانهم في الاندلس. ويشكو لهم ما يلاقون من لاواء مصيبة وضعت. يقول مستنجدا مستغيثا للاندلس من قصيدة انشدها بين يدي الامير أبي زكريا الحفصي في تونس:

---

(١) ديوانه: ص ١٦٠.

(٢) ينظر: ادب الاستنجاد في الاندلس من القرن الخامس الهجري الى القرن التاسع الهجري: يسن يوسف مصطفى (رسالة ماجستير)، كلية الاداب في الجامعة المستنصرية، ١٩٨٥، ص٥٦.

نـــادتكَ أندلـــسٌ فَلـــبِّ نداءَهَـــا واجعـــلْ طواغيـــتَ الصليـــبِ فداءَهَـــا
صرخـــتْ بدعوتـــكَ العليـــةِ فاحبُـــها مـــن عاطفـــاتكِ مـــا بقـــي حوباءَهَـــا
واشْدُدْ بجلبـــكَ جُـــردَ خيلـــكَ أزرهـــا تـــردُدْ عَلـــىَ اعقابِـــــها أزراءَهَـــا[1]

يبدأ ابن الابار النص بذكر المكان الآني (الاندلس) متيحاً لنفسه الاطالة في وصف مآسي هذا المكان ومعاناة اهله وهم يواجهون عدوا يفوقهم في الكثرة والسلاح. ويفوقهم مـــن حيث الروح المعنوية التي تتنازلت كثيرا في جيش المسلمين بينما هي مرتفعة في جيش عدوهم لكثرة المدن التي احتلوها وسعيهم الحثيث لاحتلال ما بقي منـــها فـــي حـــوزة المسلمين. وإذ يركز ابن الابار النداء لقائد الحفصيين وامـــيرهم وذروة كلامـــهم، فانـــه لاينسى الحفصيين عموماً، فالحفصيون هم امل الاندلس الوحيد الذين يحطّمون الاعداء ويكسرون شوكتهم، ويعيدون للمسلمين كرامتهم التي اريقت وبلادهم التي ضاعت:

واســـتدعُ طائفـــةَ الأمـــامِ لغزوهـــا تســـبقُ إلـــىَ امثالِـــــها اســـتدعاءَهَا
أرســـلْ جوارحَـــها تجئـــكَ بصيدِهـــا صيـــداً ونمـــــادِ اطحنـــــها ارجاءَهَـــا
هبّـــوا لـــها يامعشـــرَ التوحيـــدِ قَـــد أنَ الـــهبوبُ وأحـــــرزوا علياءَهَـــا[2]

ولايكفُّ ابن الابار عن تذكير الامير الحفصي بمسؤوليته تجاه الاندلس ناعتاً اياهـــا بانها داره القصوىٰ، ومسؤوليته تجاه اهلها، واصفاً لهم بانهم عبيده وهو المولىٰ الرحيـــم المجيب لداعي النصرة. وهو بذلك لايترك عنصراً من عناصر التأثير الا ويـــأتي بـــه خدمة لموضوع النص الاساس:

وهـــذي دارُكَ القصـــوىٰ أوت لايالـــة ضمنـــتْ لَـــها مَـــع نصرِهـــا ايواءَهَـــا
وبها عبيـــدُكَ لا بقـــاءَ لَـــهُم ســـوىٰ سُـــبلَ الضراعـــةِ يسـلكونَ ســـواءَهَا[3]

وعَلَّ اكبر عناصر التأثير هي الحديث عن تلك المعاهد وكيـــف احتلـــها العـــدو. ومافعل في تلك الربىٰ والاباطح، وكيف نسخت النداءات بنواقيس الصليب ، وكيف سمع شدو الورقاء، فعظم نواحها وبكاءها:

(١) ديوانه: ص٣٣.
(٢) ديوانه: ص ٣٥-٣٦الابيات بتصرف.
(٣) م.ن: ص٣٣.

ايــهٍ بلنسيةُ وفــي ذكــراكِ مَــا يُمــري الشــؤونَ دماءَهَــا لاماءَهَــا
كيفَ السـبيلُ إلـىٰ احتـلالِ معـاهدٍ شـبَّ الأعــاجِمَ دُونــها هيجاءَهَــا
والِيْ رُبىً وأبــاطحٍ لــم تعــرَ مِــن خلــعَ الربيــعُ مصيفَــها وشــتاءَهَا
طــابَ المعــرسُ والمقيــلُ خلالــها وتطلّعــت غُــررَ المُنــى اثناءَهَــا
بــأبي مــدارسُ كــالطلولِ دَوارسٌ نســختْ نواقيــسُ الصليــبِ نداءَهَــا
ومصانعٌ كســفَ الظــلالُ صباحَــها فيخالُــه الرائــي إليــهِ مَســاءَهَا
راحتْ بِها الورقــاءُ تسـمعُ شـدوها وغــدت تُرَجّــع نوحــها وبكاءَهَــا
عجبــاً لأهــلِ النــارِ حلّــوا جنــةً منــها تمــدُّ عليــهمُ افياءَهَــا[1]

انها لوحة تفيض نشيجاً وتبكي دماً، انها الفاظ تمس شغاف القلوب فتنتهك اسـرارها ، وتخاطب العقول فتلزمها الحجة، فلايجد المرء نفسه الا وهو يفيض دمعاً وحسرة وبكاء. (ان الفكرة المهدوية التي عبّر الشاعر عنها من خلال الابيات هي الفكرة التـي قـامت على اساس الدولة الموحدية في المغرب ،و اعتبر الحفصيون انفسهم ورثة هذه الدولـة الحقيقيين، بعد استقلالهم بتونس، ونرى ابن الابار يضيفها على شخص الملك الحفصـي ابي زكريا، فهو الملك الامام الذي سيحرر الاندلس ويقضي على اعداء الاسلام)[2]:

هــذي رســائلُها تُنــاجي بــالتي وقفــت عليــها ريثــها ونجاءَهَــا
بشــرىٰ لأندلــسٍ، تحــبُّ لقــاءَهُ ويحــبُّ فــي ذاتِ الالــهِ لقاءَهَــا
صــدقَ الــرواةُ المخــبرونَ بانّــهُ يشــفي ضناهــا أويعيــدُ رواءَهَــا[3]

ونقف في شعر ابن الابار على اشهر قصيدة قيلت في ادب الاستنجاد في الشعر الاندلسي، وهي من حيث بناؤها الموضوعي في تصوير حال المكان الآني (الاندلس)رطلب النجدة لـه تعد القصيدة الثانية في الشهرة والتداول بين ابناء الاندلس بعد نونية الرندي. تلكم هي ســنيته التي قال عنها المقري: (فضحت من باراها ، وكبا دونها من جارها)[4]. يقول مطلــع هــذه القصيدة التي كثيراً ما تتردد في كتب الباحثين والمؤلفين والنقاد ومؤرخي الاندلس:

---

(١)ديوانه: ص ٣٤.

(٢) الاصوات النضالية والانهواسية في الشعر الاندلسي: ص١٤٢.

(٣) ديوانه: ص ٣٧. الابيات بتصرف.

[4] نفح الطيب: ٤/٤٥٧.

أدركْ بخيلَكَ خيلَ اللهِ أندلسا إنَّ السبيلَ إلى منجاتِها دَرَسا[1]

وقد وقف اولئك الباحثون والناقدون الفضلاء من هذه القصيدة موقفين اثنين:

١. **اصحاب الموقف الاول:** يعدون هذه القصيدة من القصائد التي قيلت في رثاء المدن والمماليك التي سقطت ايام الشاعر.[2] ويعود السبب في موقفهم هذا بحجة ان اغلب ابيات القصيدة تصور حالة الاندلس ، وبلنسية (مدينة الشاعر) خاصة ، وما اصابها من دمار وتخريب بعدما عاثت يد الاعداء في جناتها مستبيحة مفاتنها بما يجعل النفس تتقطع اما وحسرة .

٢. **اصحاب الموقف الثاني:** يعدون هذه القصيدة قيلت في الاستنجاد والاستصراخ لانقاذ الاندلس وبلنسية من ايدي الطامعين الحاقدين.[3]

ويرى اصحاب هذا الرأي في تلك اللوحات والمقاطع التي تصور مصاب الاندلس بفقد بلنسية، وبكائهم عليها انها من سبيل التأثير في نفس الامير الحفصي، وتحفيزه على تحرير تلك المدينة واعادتها لحصن الأسلام والمسلمين.

واذا عدنا الى النص الشعري وجدناه لايختلف في معانيه وافكاره عن معاني النص الذي استشهدنا بابياته سابقاً، بل؛ وتكررت حتى بعض الكلمات والعبارات في النصين، ولاسيما اللوحة المتعلقة برثاء بلنسية، او تلك التي تخص مدح الامير الحفصي –التي اطال فيها– وهو قائم على تبني الفكرة المهدوية التي اسلفنا فيها القول. (فالشاعر يحث الممدوح الحفصي على انقاذ بلنسية، ويخبره انها وما يتبعها صارت في بيعته وذمته فليدافع عنها، ولينقذ بلدة مسلمة واهلها الذين سيتعرضون الى ما عهده

---

[1] ديوانه: ص ٣٩٥.

[2] ينظر: الادب الاندلسي في عصر الموحدين: ص ١٣٠؛ الادب الاندلسي : موضوعاته وفنونه: ص ٥٢٣، الادب الاندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة: ص ٣٢٠؛ الرثاء في الادب الاندلسي: حسين يوسف حسين خريوش (رسالة ماجستير)، كلية الاداب في جامعة القاهرة، ١٩٧٣، ص ١٦٠-١٦٤.

[3] ينظر: الشعر النسوي في الاندلس: ص٣٤، دراسات اندلسية في الادب والتاريخ والفلسفة: ص ٢٩٥-٣٠٦، عصر الدول والامارات: ص ٣٨٥: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس: ص ٣١٣: مدخل الى الادب الاندلسي: ص١٤٢، في الادب الاندلسي (الداية): ص ١٦٦-١٦٧؛ ادب الاستنجاد في الاندلس: ص ٨٥-٨٨، شعر ابن الابار –دراسة فنية–بشرى عبد عطية (رسالة ماجستير) كلية الاداب في جامعة بغداد، ٢٠٠٠: ص ١٠٣-١٠٤.

الاندلسيون من اعدائهم قتلاً وسبياً وتشريداً واحراقاً، ويصور له الغدر بكل بشاعته اذا لم يستدرك البلاد والناس معا)[1]

وعلى الرغم من التشابه والتماثل بين النصين فناً وموضوعاً ، الا اني سـ اقتبس النص المتعلق ببلنسية من سينية ابن الابار لنرى سمات المكان الآنـي عـن طريـق الاستنجاد، يقول ابن الابار:

وفـي بلنسـيةٍ منـها وقرطبـةٍ ... مايَنسفُ النفسَ أو مـا يـنزِفُ النفسَـا
مدائـنٌ حلَّـها الإشـراكَ مُبتسـماً ... جـذلانَ وأرتحـلَ الايمـانُ مبتئسَـا
وصيّرتها العـوادي العابثـاتُ بـها ... يستوحشُ الطرفُ منها ضعفَ مـا أنِسَـا
فمن دساكرَ كـانت دونَـها حرسـاً ... ومِـن كنـانسَ كـانت قبلـها كُنُسَـا
يالمساجدٍ عـادتْ للعِـدىٰ بِيعـاً ... وللنـداءِ غَـدا اثناءَهَـا جرسَـا
لهفي عليها إلـىٰ استرجاعِ فائتِـها ... مَدارسـاً للمثـاني اصبحـتْ دُرُسَـا[2]

وما ان سمع الامير ابو زكريا الحفصي ابن الابار لقصيدة ابن الابار حتّـىٰ جـهز اسطولاً ضخماً لتحريرها، ولكن بلنسية كانت قد استسلمت قبل وصول ذلك الاسطول، وسقطت تلك البلدة وما حولها بيد الاعداء إلىٰ الابد[3].

إلّا ان ابن الابار لم يتوقف عن البكاء على بلنسية واهلها حتى بعد سقوطها بنفس العاطفة القوية التي كان يستنجد لها، وبصرخاته المبكية وحبه الكبير لوطنه الذي ظلّ ملازماً لقصائده علىٰ امتداد ايام حياته، كقوله:

أنْ يكـنْ طاغيـة الـروم بَغـىٰ ... فظبـىٰ الـهندِ لَـهُ بـالمرصدِ
لَـم يكـدْ لـو كـانَ يـدري غـيره ... فـي محابـاةِ هـوىً لَـم يكـدِ
عزَّهُ البعـدُ عَـن قـربٍ يَـرىٰ ... جزيـة الكفـرِ تـؤدّىٰ عَـن يـدِ[4]

---

[1] في الادب الاندلسي(الداية): ص ١٦٧.

[2] ديوانه: ص ٣٩٦.

[3] ينظر: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس: ص ٤٤٤-٤٥٠، التأريخ الاندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة: ص ٤٧٣.

[4] ديوانه: ص ١٥٢.

ونظم قصيدة بين المدح والاستنجاد بمناسبة بيعة اشبيلية وسبته لابي زكريا الحفصي واعانته لشرق الاندلس:

لأندلسِ البُشرىٰ وحضرتُها حمصُ فقد كُسيت للأمنِ فضفاضةٍ قمصُ[1]

وفي بيعة اهل سبته:

قضىٰ صادقُ الآثارِ في امركَ الأرضي بأن تملكَ الدنيا وأن ترثَ الأرضا
وأُجري الىٰ اسعادِكَ الماءُ والثرىٰ فدونكَ بسطاً للسبطينِ أو قبضا[2]

ومن هنا يعدّ ابن الابار من ابرز شعراء الاندلس الذين استنجدوا وبكوا وتألموا لبلادهم فهو (يحاول في في كل مناسبة اظهار مشاعره الوطنية امام ملوك بني حفص، وحبه الشديد للارض والمدن والمقدسات التي يعيث بها العدو كما يشاء. ويحث الحفصين على استرداد الاندلس وبعث معالمها الدراسة)[3] ومن هنا (كان ابن الابار بحق شاعر الوطن الاندلسي)[4].

لقد بقيت (القصيدة الشعرية ترافق المحنة في كل صورها وابعادها. فهي تخلد شعور الامة في حزن والم وبكاء وتسجل انفعالاتها واحساساتها في كل وقت وحين... وقد اشتد اوارها في اواخر حكم الموحدين وبصفة خاصة بعد معركة العقاب المشؤومة وذلك حينما تجهم الافق وتقطب جبينه، وبدا للاندلسيين ان كل ينذر بالسقوط والانهيار)[5]،وربما بدا هذا النذير واضحاً في قصيدة ابي اسحاق ابراهيم بن عديس (ت٦٥٩هـ)[6] التي يستنجد فيها بابن الاحمر لانقاذ مدينة جيّان[7]، وفي هذه القصيدة تتثال الثيمات المكانية (المدن) لتثيالاً يضع امام السلطان المُناشَد الحجة بضرورة التحرك

---

[1] ديوانه: ص٣٣٥.

[2] م. ن : ص ٣٤٥.

[3] الاصوات النضالية والانهزامية في الشعر الاندلسي: ص ١٤٥.

[4] شعر ابن الابار- دراسة فنية-:ص١٠٧.

[5] الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس: ص ٣١٠.

[6] من شعراء بني الاحمر في زمن الخليفة محمد بن يوسف، ينظر: الاحاطة: ٣٦٧/١-٣٦٨.

[7] مدينة بالاندلس بينها وبين بياسة عشرون ميلاً... ينظر : الروض المعطار: ص ١٨٣

السريع لانقاذ هذه المدينة ولاسيما ان هذا السلطان من اصحاب النخوة العربية الاصيلة، ومن الاسود التي تحي الحمىٰ، وترعىٰ الذمم، يقول ابن عبديس:

أميرَ المسلمينَ أ لا تعودُ ... لأندلسٍ بها مرضٌ شديدُ
وانتَ طبيبُها والله يشفي ... فمالكَ لاتطبُّ ولاتعودُ
فجيّانُ تناديكَ: ابنَ نصرٍ ... ألاَ مالٌ يعودُ ألاَ جنودُ
وانتَ مليكُها الضرغامُ تدعو ... لنصرِ الدينِ لو نفسٌ تجودُ
حِمىً جيان يأسفُ لابنِ نصرٍ ... وهَل يحمي الحمىٰ إلّا الاسودُ؟؟[1]

لقد عاش الشاعر في ظروف عصيبة وشاهد تمزق اراضي البلاد وانحسارها يوما بعد يوم، فهو خائف على مصير المدن الاخرىٰ ان تقع في يد الاعداء، وان تؤول إلىٰ المصير الذي آلت اليه قرطبة وابذّة غيرهما، يقول وقد بدا المكان الآني الذي يتحدث مفزعاً مذموماً:

وقرطبةُ أقامَ الشركُ فيها ... وما يغزو القريبُ ولا البعيدُ
وان ثغورَها وثغورَ حمصٍ ... تملّكها العدو- لنا-المبيدُ
وابذّة يعيثُ بها النصارىٰ ... ونارُ الكفرِ ليسَ لَها خمودُ
وهل بيّاسةٌ إلّا بيوسٍ ... فَطُبَّ صدراً إذا طابَ الوُرودُ
وما قيجاطةٌ تركت شكاةً ... ويشكيها مهندٌ مِن يسودُ
وشوذرُ ثم مرتشُ لوتَراها ... ونارُ الكفرِ يضرمُها اليهودُ[2]

وبعد لوحتي الاستنجاد والبكاء جاء القسم الاخير من النص و(هو نفس صوفي طويل حيث التجأ ابن عبديس الى الله يشكو، ويدعو ويرجو ويتفجع مستمطراً رحمة الله ولطفه ونصره لينفذ مسلمي الاندلس من هذه المحنة التي ضيعوا فيها كل شئ الا الامل في رحمة الله ولطفه)[3]فلنتأمل هذه الابيات:

---

[1] قصيده ابن عبديس: عبد القادر رمامة، مجلة المناهل- المغرب، ع٢٦، ١٩٨٣. ص ٢٩١.

[2] المصدر نفسه. المدن التي وردت في الابيات هي من اعمال جيان، او من المدن القريبة اليها. ينظر: الروض المعطار: (ابذة) ص ٦، (بياسة) ص ١٢١، (شوذر)ص ٣٥١، (قيجاطة) ص ٤٨٨.

[3] م.ن : ص ٢٩١.

إلـــهَ العـــالمينَ إليـــكَ يشـــكو فقـــيرٌ لايقـــــومُ لَـــــهُ قعـــــودُ
فـأنتَ المسـتجيبُ لمـــن دعـــاهُ وكـــلّ الجنـــدِ جنـــدُكَ يـــا مجيدُ
فنصـراً يـا إلـهَ الخلـقِ نصـــراً فـــأنتَ اللهُ تفعـــلُ مـــا تريـــدُ
ولطفـــاً بـــالجزيرةِ يالـــهي فمـــا إن فـــي مضرتِـــها مزيـــدُ[1]

اما الرندي ، فما ان وصف المشهد المأساوي لمدن الاندلس، وبكى دلـك الانـهيار الرهيب، والتضييع والاهمال الذي لحق تلك المدن، حتى وصل الى لوحة الاسـتنجاد. وفيها يستنجد باهل العدوة من المغرب وما وراءه، يحثهم على القيام في سـبيل اغاثـة المسلمين ويبعث فيهم النخوة، ويدعوهم لنبذ التدابر والتقاطع الذي يزيد الموقف سـوءاً، ولا يخدم الا الاعداء ويحمسهم على المضي لقتل وسفك دمائهم وابادتهم. يقول:

يـاراكبينَ عتـاقِ الخيـلِ ضـامرةً كأنّـها فـي مجـالِ السـبقِ عقبـانُ
وحـاملينَ سـيوفِ الـهندِ مرهفـةً كأنّـها فـي ظـلامِ النقـعِ نـيرانُ
ورائعيـنَ وراءَ البحـرِ فـي دعـةٍ لـهم بأوطانـهم عـزٌّ وسـلطانُ
كم يستغيثُ بنو المسـتضعفينَ وهـم أسـرىٰ وقتلـىٰ فمـا يـهتزُّ انسـانُ
لماذا التقاطعُ فـي الإسـلامِ بينكـم؟ وانتـم ياعبـادَ اللهِ اخـوانُ
ألا نفـوسٌ ابيّـاتٌ لـهـا همـمٌ؟ امّا علـىٰ الخـيرِ انصـارٌ واعـوانُ؟[2]

وادار القرطاجني[3] بعض ابيات مقصورته في استنجاد اهـل تونس، وحـث الحفصين لتحرير الاندلس وتخليص اهلها مما هم فيه، فهو واجب من واجباتهم، وفرض فرضه الله- سبحانه- عليهم. مستغلاً في ذلك وسـائل التـأثير الموضـوعية (الدينـية والاجتماعية)، والفنية (اللغة والصورة) التي لاتخرج كثيراً عما قدمناه في قصائد ابـن الابار والرندي.

---

[1] قصيدة ابن عبديس: ص ٢٩٢.
[2] مجموع شعره: ص ٧٣٦-٧٣٧.
[3] ينظر: قصائد ومقطعات: ص ٦٨.

مالك بن المرحل السبتي(ت٦٩٩هـ)[1]لايكتفي بالصراخ والبكاء والعويل فحسب وانما ينظر الى القضية كقضية دينية شرعية. فعلى الدين تقوم كل العلائق التي اشرنا اليها سابقا، وعلى معالم الاسلام ومبادئه كانت غزوة الحاقدين وتكالب المعتدين، وهدف الطامعين. هاكها مستنصراً لهذه العلائق والمعالم:

أستنصرُ الدينُ بكم فأستقدموا ... فانكم أن تسلموه يُسلمُ
لاتسلموا الأسلامَ يا أخواننا ... وأسرعوا لنصرهِ والجمعوا
لاذتْ بكم اندلسٌ ناشدةً ... برحمِ الدينِ ونَعِمْ الرحمُ
فاسترحمتْكم فارحموها أنَّهُ ... لايرحمُ الدينَ مَن لايرحمُ
ماهي إلاَّ قطعةٌ مِن أرضكم ... وأهلُها منكمْ وأنتم منهمُ[2]

ثم يذكر الاندلس بخصالها وشمائلها الطيبة العامرة، ويمضي ليضع المستغاث بهم امام هذه الشمائل، فلا ينسى قرطبة وبكاءها، واشبيلية وشكواها، يقول ابن المرحل:

لهفاً على أندلسٍ من جنَّةٍ ... دارتْ بها من العِدا جهنمُ
استخلصَ الكفّارُ منها مُدناً ... لكلِّ ذي دينٍ عليها ندمُ
قرطبةُ التي تبكي لها ... مكّةُ حزناً والصفا وزمزمُ
وحمصُ هي أختُ بغدادَ دوما ... أيّامها إلّا الصبا والحلمُ
استخلصوها مَوضعاً فموضعاً ... وأقتدروا وأحتكموا وأنتقموا[3]

---

[1] ابو الحكم مالك بن عبد الرحمن بن علي بن عبد الرحمن بن فرج بن ازرق بن سالم بن فرج، ابن المرحل المالقي المصمودي نسباً، السبتي بلداً القاسمي مدفناً، ولد بمالقة سنة٦٠٤هـ كان يكتب الرسائل للامير عبد الواحد بن امير المسلمين يعقوب المريني، الّف في اكثر الفنون غير ان معظم مصنفاته ضائعة اليوم. ينظر: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية : ابو الحسن علي بن عبد الله بن ابي زرع (٧٤هـ) دار المنصور للطباعة والنشر- الرباط، ١٩٧٢، ص ١٢٣؛ الاحاطة: ٣/٣٠٣-٣٠٤، النبوغ المغربي في الادب العربي: عبد الله كنون، مكتبة المدرسة- دار الكتاب اللبناني- بيروت، ط٣، ١٩٧٥، ٣/٢٥٨-٢٦١، الوافي بالادب العربي في المغرب الاقصى:١/٣٣٨-٣٤٢؛ رسالتان في عروض الدوبيت، لابن المرحل، تحقيق: الاستاذ هلال ناجي، مسئلة مجلة المورد، مج٣، ع٤، ١٩٧٤، ص١٤٥-١٤٩.

[2] الذخيرة السنية: ص ٩٨، النبوغ المغربي في الادب العربي: ٣/٧١٩، الوافي بالادب العربي في المغرب الاقصى: ١/٣٤٣.

[3] الذخيرة السنية: ص ٩٨-٩٩؛ النبوغ المغربي في الادب العربي: ٣/٧٢١؛ الوافي بالادب العربي في المغرب الاقصى:١/٣٤٤.

لقد جلب ابن المرحل وسائل التاثير المكانية عندما جلب (مكة والصفا وزمزم) وهي اماكن دينية مقدسة ليدعم بها نظرته الدينية تجاه الاندلس واهلها والتي قدمت فيها القول عند حديثنا عن النص. وامّا الوسائل الفنية فقد غلبت على ابيات ابن المرحل نثرية واضحة وتقريرية هشة فككت اجزاء النص لغة وتركيبا. واما من ناحية الصورة فقد بقيت بعض وسائل البيان تثير انتباه القارئ هنا وهناك. وعلى الرغم من هذه النثرية الا ان القصيدة تعد واقعاً ملموساً وتحكي سمات المكان الآني الذي استنجد له الشاعر.

وكان ابن الخطيب ممن حملوا لواء الاستنجاد بملوك المغرب في سنوات عدد. وطغى على استنجاده الخوف مما قد يحل في غرناطة ما حل في قرطبة وبلنسية واشبيلية. لاسيما وقد تعرض اهل غرناطة لنكبة اخرى وهزيمة منكرة شابهت نكبة العقاب وهزيمتها وهي نكبة طريف. الا ان شاعرنا تحدث في اغلب قصائده عن هذه الواقعة بثقة وعزم، وهو يوازنها بوقعة أُحد وما حصل للمسلمين فيها. ولكنها- وقعة أُحد- ماائنت عزائمهم، وما استهدفت وحدتهم[1]. وهو يعد مثل هذه القصائد نوعا من العظة والاعتبار يستنهض به الهمم لنجدة غرناطة، ويسعى لبقاء العلاقة وثيقة متحدة بين المغرب والاندلس حتى اذا ما دعا داعي الجهاد ذهب الجميع لنصرة الدين الواحد وحماية الارض الواحدة يقول:

أُخواننا، لاتنسوا الفضلَ والعطفا ... فقد كادَ نورُ الله أن يطفا

وإذا بلغَ الماءُ الزُبى فتداركوا ... فقد بسط الدينُ الحنيفُ لكم كفّا

تحكّمَ في سكانِ أندلسٍ العِدا ... فلهفاً على الاسلام ما بينهم لهفا

وجاشتْ جيوشُ الكفرِ بينَ خلالِها ... فَلا حافراً ابقتْ عليها ولاظلفا

ثغورٌ غدتْ مثلَ الثغورِ ضواحكاً ... اقامَ عليها الكفرُ يرشفُها رشفا

وكيفَ يعيثُ الكفرُ فينا ودوننا ... قبائل منكم تُعجز الحصرَ والوصفا

فقوموا برسمِ الحقّ فينا فقد عفا ... وهبّوا لنصرِ الدينِ فينا فقد اشفا

وها نحنُ قد لُذنا بعزّ حماكم ... ونَرجو من اللهِ الا دالةَ واللطفا[2]

---

[1] ينظر: ديوانه: ص ٤١٠.

[2] ديوانه: ص ٦٢٨-٦٣٠، (الابيات بتصرف).

وعلى الرغم من ان ابن الخطيب ركز على الاستنجاد للاندلس بقوله(تحكم في سكان الاندلس العدا)، وركز الشاعر على الوحدة الاسلامية التي من اجلها استنجد باهل المغرب بقوله (اخواننا، لهفا على الاسلام)الا ان الشاعر وغيره.[1](لم يعد يستصرخ من اجل تحرير الارض والمدن التي استولى عليها العدو، ولم يعد متوافراً على تلك الانفاس الحماسية الملتهبة، والامل في المستقبل ولكنه فقط يستنجد الان من اجل ابقاء على غرناطة اليتيمة. وحفظ رمق الاسلام فيها فالنصارى يعتون في الارض فساداً وقوتهم تعتبر اكبر قوة في الجزيرة، وكل شئ في نظر الاندلسيين يبدو منجهماً. حالكاً ينذر بالويل والسقوط).[2]

لقد بقي المكان في هذه النصوص المحور الاول في استنطاق مشاعر الشاعر الاندلسي، ومن ثم انصارها في بوتقة ابداعه الادبي. فحلفت مثل هذه القصائد الوطنية النفيسة- شعورا وفنا-. والمكان الاني مثلما ارشدنا بعمق لا ستكناه تلك المشاعر، دلنا باهتمام وموضوعية على معرفة تلك الفنون والاغراض التي نشأت جراء هذا الاستدلال. فكان ادب الاستنجاد من بين هاتيك الاغراض التي انبثقت من سمات المكان الاني في الاندلس ، المرتبطة باحداثه وشخوصه . فهو الاستنجاد- بعود لتعبرات المكان الطارئة، وتبدل شخوصه والقائمين عليه، التي يخضع لها الادب- عاطفة واحساساً وادبا-.

---

[1] ينظر: ديوان ابن الخطيب: ص ٢٨٨، ص ٥٤٣؛ العبر وديوان المبتدأ والخبر : ٧/٢٢٠، ازهار الرياض: ١/١٠٤، ١٠٨-١٢٢، -الاستقصا لاخبار المغرب الاقصى: ٣/١٩٥.

[2] الاصوات النضالية والانهزامية في الشعر الاندلسي: ص ١٥٠.